هدي الرسول

صلى الله عليه وسلم

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة

ويوم يعض الظالم على يديه يقول

يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا

مختصر من زاد المعاد

اختصره وأنشأ عليه تعليقات

محمد أبو زيد

حقوق الطبع محفوظة

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع الفجالة بمصر

الطبعة الثانية

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم

أمّا بعد فإنّ الناس مطالبون بأن يعبدوا الله ويعملوا بدينه الذى نزله لإصلاح شؤونهم الدنيوية والأخروية . ولأجل أن يصلوا إلى هذا يجب عليهم أن يعرفوا هدى الرسول وطريقته العملية التى بين بها ذلك الدين من أوّل مانزل الوحى إلى يوم أن كمل

وأحسن كتاب رأيته جاء بالمقصود فى هذا الموضوع كتاب (زاد المعاد فى هدى خير العباد) تأليف ابن القيم حافظ الدين راسخ العلم محقق البحث حرّ الفكر أحد الأئمة فى القرن الثامن الهجرى

إلا أنّ هذا الكتاب فيه أبحاث متفرعة عن موضوعه جعلته طويلا يقع فى جزءين كبيرين يقل من يقرؤهما ولا يسأم . على أنّ رداءة ورقه وطبعه جعلته بعيداً عن تعميم الانتفاع به . وهو مهم جدّاً فأردت أن أسهله على الناس وأقربه من كل طبقاتهم فاختصرته ثم علقت عليه بما تدعو الحاجة إليه . وجعلت المختصر والتعليق معاً جزءًا صغيراً يطمع من يرى حجمه أن يقرأه فى جلسة واحدة . وإذا أضيف إلى صغر حجمه حسن طبعه وجودة ورقه ورخص ثمنه فلا شك أنّ الرغبة فيه تقوى والإقبال عليه يكثر . والغرض إظهار الدين بسهولته الداعية إلى تعلمه والعمل به .

يسر الدين بهدى الرسول ويقظة العلماء

لقد كان تعلم الدين يسراً وسهلا فى الزمن الأول : كان العلماء ينقلون هدى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيعملون به فى أنفسهم ثم يقدمونه للأمة ويطلبون منها أن تعمل كما يعملون . فالأمة تعمل ولا يعوقها فى سبيلها شىء . ويسهل عليها العمل من جهتين : من جهة أن أمور الدين بينة المعنى سهلة الفهم ظاهرة الفائدة غير متشعبة الخلاف . ومن جهة أن العلماء يعملون بها فتأنس الأمة بهم لأنهم خلفاء الرسول وورثته وللأمة فيهم قدوة حسنة .

عسر الدين بكتب الفقه وتقصير العلماء

ولقد عسر تعلم الدين وصعب من يوم أن ترك العلماء هدى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى التعليم بالعمل وتمسكوا بالآراء والجدل فى كتب الفقه فتفرقوا إلى مذاهب وشيع ، وتعصب كل فريق لمذهب ، وأكثروا من الكتب وجعلوا للكتب شروحا ، وللشروح حواشى وللحواشى تقارير . ثم جعلوا أنفسهم أمام ذلك طبقات متعددة : مجتهد مطلق ؛ ومجتهد مذهب ؛ ومفتى مذهب ؛ ومرجح مذهب ؛ ومقلد . وكلفوا الناس أن يأخذوا الدين من هذه الكتب وأن يعملوا بما وضعوا فيها من القيود والشروط والرموز وما أشبه ذلك مما لا يحصيه إنسان ويقف الناس أمامه حيارى لا يهتدون إلى ما فيه من الصواب !!

مقارنة بين هدى الرسول وكتب الفقه

إنك لو قارنت بين هدى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبين هذه

الكتب المتشعبة فى الخلاف لرأيت الفرق الواضح والآية البينة : إنّ بابا مثل باب الوضوء ومابعده من الغسل والتيمم تراه فى هدى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فتعرفه بمجرد نظرك إليه ؛ ونحن تلقينا هذا الباب فى الأزهر فى ثلاثة أشهر ونيف وماعرفنا سهولة الدين وحقيقته إلامنذ اهتدينا بهدى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

وإنّ منا من يقعد فى الأزهر اثنتى عشرة سنة أوخمس عشرة يتلقى كتب مذهب واحد من تلك الكتب ثم يأخذ شهادة العالمية وهو لم يحط بكتب هذا المذهب علما ، فضلا عن كتب المذاهب الأخرى وكتب التفسير والسنة . بل يظل فى حيرة واضطراب لايهتدى إلى الترجيح فى مسائلها الخلافية سبيلا !

فكيف مع هذا يكلف عامّة الناس أن يعملوا بما فى تلك الكتب وهم يرون العالم يضطرب فى قوله ولايجدون من تكون لهم أسوة حسنة فى عمله ؟ ! ومآخذ الدين كتب ضخمة الحجم كثيرة العدد متعارضة الآراء معقدة المسائل تعدّدت فيها التكاليف بعدد الشروط والأركان والفرق بين شروط الدخول وشروط الصحة والفروض والواجبات والأبعاض والهيئات والمندوبات والمستحبات والمبطلات والمكروهات وكراهة التنزيه وكراهة التحريم ؛ وغير هذا كأنواع ألفاظ الطلاق والكنايات والتصريحات وكأحكام المحيرة التى حيرتهم فى دمها ومقياس المسافات للقصر فى السفر وحدّ الغوث وحدّ القرب عند فقد الماء فى الوضوء أوالغسل ؛ وغير هذا كالفروض التى يقولون فيها : لو فرضنا كذا وكذا

عما يشتت الفكر ويضيع الوقت ولا يفيد علما بشيء وقع . فهذه كلها وأمثالها من الاستنباطات المفرعة فى كتب الفقه المعروفة ليس فى استطاعة العامة معرفتها ولا العمل بها ، فضلا عن أنّ الله لم ينزلها ولم يكلف أحداً اتباعها

القرآن والرسول

وإنما أنزل الله القرآن وقال ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقال ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۞ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ۞ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۞ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۞ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وقال ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وقال ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ وقال ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ وقال ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ وقال ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

وكان الناس أن يهتدوا بهدى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذ أنه هو المبين لما أنزل الله . قال تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ وقال ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ وقال ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وقال ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ وقال ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ وقال ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ وقال ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي

اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۞ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۞ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ۞ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ وقال ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقال ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۞ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا ﴾ وقال ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ وقال ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وقال ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وقال ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۞ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ وقال ﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ وقال ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

فهذه الآيات كما ترى داعية إلى هدى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومعلمة بأنه المبلغ عن الله المبين لأوامره فهو العالم بمراد ربه ومن اتبعه يكون على بصيرة من دينه قال تعالى ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وحسبنا أن الله تعالى وصانا باتباع صراطه وحذرنا من أن نتبع غيره فتتفرق بنا السبل فنضل عن سبيله كما ترى فى ختام الآيات. فسبيل الرسول وسنته وصراطه هو هداه الذى لا يمكن أحد أن يقف على حقيقة الدين إلا به وهو اليسير السهل، ويمكن الاتفاق عليه ولا يكون التفرق فيه. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

من يدعو إلى هدى الرسول

فمع هذا إذا قلنا يا أيها العلماء علموا الناس هذا الهدى وهلموا على هذا الصراط ليكونوا أمة واحدة وراء إمام واحد يوحد بينهم ويجمع شملهم. وليظهر الدين بيسره وينتشر بسهولة العمل به — فإذا قلنا هذا يقولون إنكم تدعون إلى الاجتهاد وتخرجون على المذاهب المشهورة وتطعنون فى الأئمة الأربعة!! ونقول لهم: إننا ندعو إلى مادعا الله اليه من اتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

الأئمة الأربعة وغيرهم

وإننا نعتقد أن الأئمة الأربعة ومن قبلهم ومن بعدهم من الأئمة رضى

الله عنهم أجمعين أصحاب الفضل علينا فى نقل الدين الينا فنحن نحترمهم ونعرف قدرهم ، ولكن ليس معنى هذا أننا نقدس رأيهم ونقدمه على أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهم لايرضون منا هذا التقديس وقد اتفقوا جميعاً على نهينا عن الأخذ بما يخالف هدى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا أول العاملين به والداعين اليه .

الكتب المنسوبة إلى الأئمة

ولم يعلم عنهم أنهم كتبوا كتباً بآرائهم فى الدين ليكلفوا الناس العمل بها ، إلا أن كلا منهم ترك مسنده من الأحاديث التى كان يأخذ منها الأحكام من قول الرسول وعمله . فكل ماوجد من كتب الفقه المنسوبة إليهم إنما كتبها خلفهم لنشر آرائهم وإظهار اجتهادهم . وكلما جاءت طبقة توسعت فى تلك الآراء وفرعت عنها فروعا إلى أن اجتمعت هذه المئات من الكتب التى يتعب الإنسان فى عد ماعليها من أسماء الماتنين والشارحين والمحشين والمقررين .

يصح أن تبقى هذه الكتب فى المكتبة حفظا لتاريخ أصحابها ومعرفة مقدار عقولهم وأفهامهم ، ولا مانع من أن علماء الدين يستنيرون بما فيها من الآراء الخاصة بالمعاملات كالأقضية وأمثالها مما يتغير بتغير الأحوال

الواجب على علماء الدين

إذ علماء الدين فى كل عصر مكلفون أن يبحثوا فى الشؤن التى ترقى الأمة فى الاقتصاد والسياسة ويضعوا لها مواد وقوانين تنطبق على أصول الدين فالدين فيه قسم لايتغير بتغير الزمان كالصلاة والتيمم والحج ، ومثل هذه

من أمور العبادات التى اختارها الله بشكلها المخصوص وهيأتها المحدودة ليربط بها بين المؤمنين ويعودهم بها على النظام والوفاء وأنواع الفضيلة ويعدّهم بها لسائر أمور الاجتماع . فهذا القسم بينه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بكل جزئياته وهيئاته ولايجوز الزيادة عليه ولا النقص منه ، لأنه لاحاجة للناس فى تغييره وتبديله مهما تقدّموا وتطوّروا . وهناك قسم آخر فى الدين يتعلق بالمعاملات والشؤون العامّة كنظام الحرب والأمن والمعاهدات الدولية والبيع والشراء والقضاء ونظام التعليم والشركات والقوانين الجنائية والتجارية وغيرها من سائر أمور السياسة والاقتصاد . فلما كانت هذه الامور تختلف باختلاف الزمان وتتقدّم بتقدّم الأمّة لم يحدّدها الدين بجزئيات مخصوصة ولم يكلف الأمة الجمود فيها على طريقة واحدة بل جاء لها بقواعد عامّة كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل الشورى من أصحابه يجتهدون فى تطبيق حوادث أزمانهم عليها ، فهى أصول تسع مايتجدّد من حوادث كل عصر ، حتى إذا اجتمع نوّاب الأمّة وأولوا أمرها للبحث فى الأنظمة الصالحة لها كان علماء الدين هم المرجع فى تطبيق كل نظام صالح على قواعد الدين وأصوله بحيث لايجمدون أمام كل قانون حديث فيحرمون الأمّة مما يقدّمها ، ولا يقبلونه من غير تمحيص وتطبيق فيوقعونها فى اضطراب التفرنج الذى يبعدها عن دينها ويسلخها من الأمور المقوّمة لها ، بل يكونون وسطا يربطون الأمة بدينها على الدوام فى حين أنهم يقودونها فى سياستها ومدنيتها إلى الأمام

عندئذ يصح لهؤلاء العلماء أن يطلعوا على كتب الفقه المعلومة ويعرفوا رأى أصحابها فيما حدث فى الأيام الخالية من المسائل التى ذكرناها ، فإذا

أعجبهم شيء منها وكان صالحا لهذه الأيام فلا مانع من أن يأخذوه أو يحوّروه فيجعلوه صالحا ، ولا يجعلوا تلك الكتب دينا يتعبدون بها ويقدّسون كل ماسطر فيها . فهذا الواجب على علماء الدين فى كل عصر من الاجتهاد والعمل ، ولكن علماءنا — عفا الله عنهم — أهملوا هذا الواجب وأكبروا هذا المركز على أنفسهم فتعوّدوا التقليد ووجدوا فى التقليد راحة لهم ! ورضوا بأن يكونوا أسرى تلك الكتب ومقدّسين لكل ماسطر فيها من عبادات ومعاملات صالحة الزمان أو غير صالحة وقالوا : ماترك الأوّل للآخر شيئا ! ورضوا بأن يكونوا متأخرين فى أنفسهم ومؤخرين لدينهم وأمتهم . وأكبر من هذا أنهم يرهقون الناس بالتزام تلك الكتب ويوجبون عليهم تقليد أصحابها فى كل رأى ويرمون من يخالفهم فى رأيهم بالزندقة والبعد عن الدين !!

فالأئمة رضوان الله عليهم لم يعملوا هذا ولم يأمروا به

الأئمة يأمرون باتباع الله والرسول

بل أمرونا بألا نأخذ الدين إلا بالدليل من كتاب الله تعالى وهدى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقال قائلهم : إذا وجدتم قولى يخالف قول رسول الله فاضربوا بقولى عرض الحائط . وقالوا : كل كلام يؤخذ منه ويرد عليه إلا كلام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم — لأنه يتكلم بالوحى المعصوم من الخطأ — ورأى بعضهم واحداً يكتب عنه كلاماً فنهاه وقال : أتكتب عنى رأيا فتجعله ديناً للناس وربما أرجع عنه غداً ! فهذا من قولهم الذى نقل عنهم .

الحكم فى الدين لله والرسول

إن أمر الدين مرجعه إلى الله فهو الحاكم فيه وقد أرسل رسوله بالهدى فهو الإمام الأعظم الذى لا يقبل إيمان الناس به حتى يعرضوا أمر الدين عليه ويرجعوا فى التحكيم إليه . قال الله تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ وقال ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ وقال ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ وقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ وقال ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ وقال ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ۚ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ وقال ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ وقال ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وقال ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وقال ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ

ضَلَالًا مُبِينًا﴾ وقال ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وقال ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ وقال ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وقال ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وقال ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾

فإذا قال قائل بعد ذلك : إن العوام لا يمكنهم أن يأخذوا الدين من القرآن وهدى الرسول نقول : إنا لم نكلفهم أن يجتهدوا ويستنبطوا الأحكام وإنما العلماء مكلفون أن يبينوا لهم . على أنّ هدى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بين فلا يحتاج إلى اجتهاد واستنباط ، وغاية الأمر أنّ العلماء ينقلونه إلى العوام بالعمل ويقولون لهم : الرسول صلى الله عليه وآله وسلم صلى هكذا (صلوا كما رأيتمونى أصلى) وتوضأ بصفة كذا ويتوضأ العلماء أمامهم أمام العوام فكل شيء من الدين يجب على العوام عمله يعمله العلماء ويصلون كما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعمله أمام أصحابه . ومثل هذا التعليم العملى يسهل على الناس ويرغبهم فى الدين

وليس فى هذا إلا دعوة العلماء لتبليغ الدين كما بلغه نبيهم الذى هم ورثته فى التبليغ ، فإذا وجدناه صلى الله عليه وآله وسلم عمل شيئا نعمله ، فإذا وجدناه اجتنب شيئا نجتنبه ، فإذا وجدناه فعل أحيانا وترك أحيانا نفعل ونترك كذلك . كل هذا فيما يتعلق بأعمال الدين التى يعملها ليهدينا إليها . وبهذا نهتدى حقا ونكون محسنين فى العمل بالدين لأننا نعمل على علم والله يقول ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

وفى الخاتمة أدعو الناس إلى هذا الهدى هدى الإمام الأعظم صلى الله عليه وسلم وأطالب المعاهد الدينية بتدريسه ، وأطالب المدارس الأخرى كذلك . ثم أنصح للوعاظ فى المساجد وغيرها أن يجعلوه فى وعظهم ودرسهم وينشروه فى طبقات الناس حتى يتيسر العمل بالدين ويكتفى العوام شر الخلاف الناتج من كتب المذاهب والعاكفين عليها ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ؟

محمد أبو زيد

مقدمة من زاد المعـاد

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن يا كريم . وصلى الله على سيدنا محمد الأمين وعلى آله الأكرمين . الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين . وأشهد أن لا إله إلا الله كلمة قامت بها الأرض والسموات وهي حق الله على جميع العباد ، فلا تزول قدما العبد من بين يدى الله حتى يسأل عن مسألتين : ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟ فجواب الأولى بتحقيق لا إله إلا الله معرفة وإقراراً وعملا . وجواب الثانية بتحقيق أنّ محمدا رسول الله معرفة وإقرارا وانقيادا وطاعة .

وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ، وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه وسفيره بينه وبين عباده المبعوث بالدين القويم والمنهج المستقيم . أرسله رحمة للعالمين ، وإماما للمتقين ، وحجة على الخلائق أجمعين . أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل وافترض على العباد طاعته وتعزيره وتوقيره ومحبته والقيام بحقوقه . وسدّ دون جنته الطرق فلم تفتح لأحد إلا من طريقه ، فشرح له صدره ، ووضع عنه وزره وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره ، ففى المسند من حديث أبى منيب الجرشى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لاشريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى . ومن تشبه بقوم فهو منهم »

وكما أنّ الذلة مضروبة على من خالف أمره فالعز لأهل طاعته ومتابعته قال الله سبحانه ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى الله وحده كافيك وكافى أتباعك فلا يحتاج معه إلى أحد .

وقد أقسم صلى الله عليه وسلم بألا يؤمن أحد حتى يكون هو أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين ، وأقسم الله سبحانه بألا يؤمن من لا يحكمه فى كل ما تنازع فيه هو وغيره ثم يرضى بحكمه ولا يجد فى نفسه حرجاً مما حكم به ثم يسلم له تسليما وينقاد له انقياداً . وقال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره صلى الله عليه وسلم ، بل إذا أمر فأمره حتم ، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه ، وكل من سواه فإنما يجب اتباعه على قوله إذا أمر بما أمر به ونهى عما نهى عنه فكان مبلغاً محضاً ومخبراً لا منشئا . فمن أنشأ أقوالا وأسس قواعد بحسب فهمه وتأويله لم يجب على الأمة اتباعها ولا التحاكم إليها حتى تعرض على ما جاء به ، فإن طابقته وشهد لها بالصحة قبلت ، وإن خالفته وجب ردّها وإطراحها ، وإن لم يتبين فيها أحد الأمرين جعلت موقوفة

وبعد فإن الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بالخلق والاختيار من المخلوقات قال تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ فالطيب من كل شيء هو مختاره تعالى، وأما خلقه فعام للنوعين. وبهذا يعلم عنوان سعادة العبد وشقاوته فإنّ الطيب لا يناسبه إلا الطيب ولا يؤلف من الأعمال إلا أطيبها مثل أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا، ويؤثر مرضاته على هواه ويحسن إلى خلقه ـ ما استطاع ـ فيعاملهم بما يحب أن يعاملوه. به وله أيضا من الأخلاق أطيبها كالحلم والوقار والرحمة والصبر والوفاء وسهولة الجانب والصدق وسلامة الصدر من الغل والغش والحقد والحسد. والتواضع لأهل الإيمان والعزة، والغلظة على أعداء الله، وصيانة الوجه عن بذله وتذلله لغير الله، والعفة، والشجاعة، والسخاء، والمروءة، وكل خلق اتفقت على حسنه الشرائع والفطر والعقول. وكذلك لا يختار من المطاعم إلا أطيبها وهو الحلال الهنيّ المريّ الذي يغذي البدن والروح أحسن تغذية مع سلامة العبد من تبعته، وكذلك لا يختار من المناكح والرائحة إلا أطيبها ومن الأصحاب والعشراء إلا الطيبين ويكون كل مثواه طيبا. فهذا من قال الله تعالى فيهم ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ومن الذين يقول لهم خزنة الجنة ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ وهذه الفاء تقتضي السببية أي بسبب طيبكم ادخلوها. وقال تعالى ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ فالكلمات والأعمال والنساء

الطيبات لمناسبها من الطيبين ، والكلمات والأعمال والنساء الخبيثات لمناسبها من الخبيثين . فالله سبحانه وتعالى جعل الطيب بحذافيره فى الجنة وجعل الخبيث بحذافيره فى النار ، فجعل الدور ثلاثا : داراً أخلصت للطيبين وهى حرام على غير الطيبين وقد جمعت كل طيب وهى الجنة ، ودارا أخلصت للخبيث والخبائث ولا يدخلها إلا الخبيثون وهى النار ، ودارا امتزج فيها الطيب والخبيث وخلط بينهما وهى هذه الدار ، وبهذا وقع الابتلاء والمحنة بسبب هذا الامتزاج والاختلاط ، وذلك بموجب الحكمة الإلهية . فإذا كان يوم معاد الخليقة ميز الله الخبيث من الطيب فجعل الطيب وأهله فى دار على حدة لايخالطهم غيرهم ، وجعل الخبيث وأهله فى دار على حدة لايخالطهم غيرهم . فعاد الأمر إلى دارين فقط : الجنة وهى دار الطيبين ، والنار وهى دار الخبيثين . وأنشأ الله تعالى من أعمال الفريقين ثوابهم وعقابهم : فجعل طيبات أقوال هؤلاء وأعمالهم وأخلاقهم هى عين نعيمهم ولذاتهم فأنشأ لهم منها أكمل أسباب النعيم والسرور ، وجعل خبيثات أقوال الآخرين وأعمالهم وأخلاقهم هى عين عذابهم وآلامهم ، فأنشأ لهم منها أعظم أسباب العقاب والآلام حكمة بالغة وثمرة باهرة قاهرة ليرى عباده كمال ربوبيته وكمال حكمته وعلمه وعدله ورحمته ، وليعلم أعداؤه أنهم كانوا هم المفترين الكذابين ! لا رسله البررة الصادقين . قال الله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾

والمقصود أن الله تعالى جعل السعادة والشقاوة عنواناً يعرفان به ، فالخبيث يتفجر من قلبه الخبث على لسانه وجوارحه . والطيب يتفجر من قلبه الطيب على لسانه وجوارحه . وقد يكون فى الشخص مادتان فأيهما غلب عليه كان من أهلها : فإن أراد الله به خيراً طهره من المادة الخبيثة قبل الموافاة فيوافيه يوم القيامة مطهراً فلا يحتاج إلى تطهيره بالنار فيطهره منها ما يوفقه له من التوبة النصوح والحسنات الماحية والمصائب المكفرة حتى يلقى الله وما عليه خطيئة ؛ ويمسك عن الآخر مواد التطهير فيلقاه يوم القيامة بمادة خبيثة ومادة طيبة . وحكمته تعالى تأبى أن يجاوره أحد فى داره بخبائثه فيدخله النار طهرة له وتصفية وسبكا ، فإذا خلصت سبيكة إيمانه من الخبث صلح حينئذ لجواره ومساكنة الطيبين من عباده . وإقامة هذا النوع من الناس فى النار على حسب سرعة زوال تلك الخبائث منهم وبطئها : فأسرعهم زوالا وتطهيراً أسرعهم خروجا وأبطؤهم أبطؤهم خروجا ﴿جَزَاءً وِفَاقًا — وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

ولما كان المشرك خبيث العنصر خبيث الذات لم تطهر النار خبثه ؛ بل لو خرج منها لعاد خبيثاً كما كان ! كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه ، فلذلك حرم الله تعالى على المشرك الجنة .

ولما كان المؤمن الطيب المطيب مبرأ من الخبائث كانت النار حراما عليه إذ ليس فيه ما يقتضى تطهيره بها . فسبحان من بهرت حكمته العقول والألباب ، وشهدت فطرة عباده وعقولهم بأنه أحكم الحاكمين ، ورب العالمين لا إله إلا هو .

فصل

من ههنا نعلم اضطرار العبد إلى معرفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتصديقه فيما أخبر به ، وطاعته فيما أمر ، فإنه لاسبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهة الرسل ، فهم الميزان الراجح الذى على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال ، فأى ضرورة وحاجة فرضت ، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير . وإذا كان سعادة العبد فى الدارين معلقة بهدى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته مايخرج به عن الجاهلين به ويدخل به فى عداد أتباعه وشيعته وحزبه . والناس فى هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

نسبه صلى الله عليه وسلم

لنسبه من الشرف أعلى ذروة : فأشرف القوم قومه ، وأشرف القبائل قبيلته ، وأشرف الأفخاذ فخذه فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصىّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معدّ بن عدنان . إلى هنا معلوم الصحة متفق عليه بين النسابين ، ولاخلاف أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

مولده صلى الله عليه وسلم ومبعثه

ولد بمكة عام الفيل (١) وكان أمر الفيل مقدمة قدمها الله لنبيه وبيته ؛ وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب ، وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة إذ ذاك : لأنهم كانوا عباد أوثان فنصرهم الله على أهل الكتاب نصراً لاصنع للبشر فيه إرهاصا وتقدمة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم الذى خرج من مكة ، وتعظيما للبيت الحرام . وتوفى أبوه وهو حمل وماتت أمه بين مكة والمدينة بالأبواء بعد منصرفها من المدينة من زيارة أخواله ولم يستكمل إذ ذاك سبع سنين ، فكفله جده عبد المطلب وتوفى والرسول نحو ثمان سنين ، وقيل ست ، وقيل عشر . ثم كفله عمه أبو طالب

فلما بلغ اثنتى عشرة سنة خرج به عمه إلى الشام — وقيل كانت سنه تسع سنين — وفى هذه الخرجة رآه بحيرا الراهب وأمر عمه ألا يقدم به إلى الشام خوفا عليه من اليهود فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى المدينة . ولما بلغ خمسا وعشرين سنة خرج إلى الشام فى تجارة فوصل إلى «بصرى» ثم رجع فتزوج خديجة بنت خويلد — وقيل تزوجها وله ثلاثون سنة ، وقيل

---

(١) كان سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام ، وكان العرب يؤرخون بالحوادث المهمة ، والفيل جاء به نصارى من اليمن على رأسهم أبرهة الحبشى ليهدموا الكعبة وقد أنزل الله تعالى فى ذلك : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول) والطير الأبابيل هى التى تسبح فى الجو جماعات متتابعة وروى الطبرى عن عكرمة فى التفسير المأثور قال : كانت ترميهم بحجارة فإذا أصابت أحدهم خرج به الجدرى ، وكان أول يوم رئى فيه الجدرى .

إحدى وعشرون وهى أوّل امرأة تزوّجها وأوّل امرأة ماتت من نسائه ، ولم ينكح عليها غيرها وأمره جبريل أن يقرأ عليها السلام من ربها .

ثم حبب إليه الخلوة والتعبد لربه . وكان يخلو بغار حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد وبغضت إليه الأوثان ودين قومه فلم يكن شيء أبغض إليه من ذلك .

فلما كمل له أربعون سنة أشرقت عليه أنوار النبوّة وأكرمه الله تعالى برسالته وبعثه إلى خلقه ، ولا خلاف أن مبعثه صلى الله عليه وآله وسلم كان يوم الاثنين واختلف فى شهر المبعث فقيل : لثمان مضين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل ، هذا قول الأكثرين وقيل بل كان ذلك فى رمضان ، واحتج هؤلاء بقوله تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وقيل كان ابتداء المبعث فى رجب .

مراتب الوحى

وكمل له الله من مراتب الوحى مراتب عديدة (إحداها) الرؤيا الصادقة وكانت مبدأ وحيه صلى الله عليه وآله وسلم وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح (الثانية) ما يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ؛ فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإنّ ما عند الله لا ينال إلا بطاعته » (الثالثة) أنه كان يتمثل له الملك رجلا فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقول له ، وفى هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا (الرابعة) أنه كان يأتيه فى مثل

صلصلة الجرس وكان أشده عليه فيلتبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها . ولقد جاءه الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها (الخامسة) أنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها فيوحى إليه ماشاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك فى سورة النجم (السادسة) ماأوحاه الله إليه وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها (السابعة) كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران ، وهذه المرتبة ثابتة لموسى بنص القرآن ، وثبوتها لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم فى حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهى تكليم الله كفاحا من غير حجاب ، وهذا على مذهب من يقول إنه صلى الله عليه وآله وسلم رأى ربه تبارك وتعالى وهى مسألة خلاف بين السلف والخلف ، وإن كان جمهور الصحابة بل كلهم مع عائشة كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمى إجماعا للصحابة (١)

---

(١) روى البخارى و مسلم والترمذى والنسائى من حديث مسروق قال : قلت لعائشة ياأم المؤمنين هل رأى محمد ربه ؟ فقالت سبحان الله لقد قف شعرى مما قلت ! أين أنت من ثلاث من حدثك بهن فقد كذب : من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ثم قرأت «لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير» . «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء إنه عليم حكيم» ومن حدثك أنه يعلم مافى غد فقد كذب ! ثم قرأت «وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير» ومن حدثك أنه كتم شيئا من الوحى فقد كذب ! ثم قرأت

ختانه صلى الله عليه وسلم

اختلف فيه على ثلاثة أقوال : (أحدها) أنه ولد مختونا مسروراً . وروى فى ذلك حديث لا يصح : ذكره أبو الفرج بن الجوزى فى الموضوعات وليس فيه حديث ثابت . وليس هذا من خواصه فإن كثيراً من الناس يولد مختونا . (القول الثانى) أنه ختن يوم شق قلبه الملائكة عند ظئره حليمة . (القول الثالث) أن جده عبد المطلب ختنه يوم سابعه وصنع له مأدبة وسماه محمداً . قال أبو عمر وابن عبد البر : وفى هذا الباب حديث مسند غريب ؛ وقد وقعت هذه المسألة بين رجلين فاضلين صنف أحدهما مصنفاً فى أنه ولد مختوناً وأجلب فيه من الأحاديث التى لا خطام لها ولا زمام! وهو كمال الدين بن طلحة فنقضه عليه كمال الدين بن النديم وبين فيه أنه ختن على عادة العرب . وكأن عموم هذه السنة للعرب قاطبة مغنيا عن نقل معين فيها والله أعلم

أمهاته اللاتى أرضعنه صلى الله عليه وسلم

فمنهن ثويبة مولاة أبى لهب أرضعته أياما وأرضعت معه عبد الله بن عبد الأسد المخزومى بلبن ابنها مسروح وأرضعت معهما عمه حمزة بن عبد المطلب ، واختلف فى إسلامها فالله أعلم . ثم أرضعته حليمة السعدية بلبن ابنها عبد الله أخى أنيسة وجذامة وهى الشيما أولاد الحرث بن عبد العزى بن رفاعة السعدى ، واختلف فى إسلام أبويه من الرضاعة

«يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين»

فالله أعلم . وأرضعت معه ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان شديد العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أسلم عام الفتح وحسن إسلامه . وكان عمه حمزة مسترضعا فى بنى سعد بن بكر فأرضعت أمه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما وهو عند أمه حليمة ، فكان حمزة رضيع رسول الله من جهة ثويبة ومن جهة السعدية

حواضنه صلى الله عليه وسلم

فمنهن أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ثم ثويبة وحليمة والشيما ابنتها ، وهى أخته من الرضاعة كانت تحضنه مع أمها ، وهى التى قدمت عليه مع وفد هوازن فبسط لها رداءه وأجلسها عليه رعاية لحقها ومنهن الفاضلة الجليلة أم أيمن بركة الحبشية وكان ورثها من أبيه وكانت دايته وزوجها من حبه زيداً بن حارثة فولدت له أسامة ، وهى التى دخل عليها أبو بكر وعمر بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم وهى تبكى فقال : ياأم أيمن مايبكيك فما عند الله خير لرسوله ؟ قالت : إنى لأعلم أن ماعند الله خير لرسوله وإنما أبكى لانقطاع خبر السماء ! فهيجتهما على البكاء فبكيا

أول ماأنزل عليه صلى الله عليه وسلم

أول مابدئ به من أمر النبوة الرؤيا : فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . قيل وكان ذلك ستة أشهر ومدة النبوّة ثلاث وعشرون سنة فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً والله أعلم

ثم أكرمه الله تعالى بالنبوّة فجاءه الملك وهو بغار حراء — وكان يحب الخلوة فيه — فأوّل ماأنزل عليه : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ

﴿الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ الخ﴾ هذا قول عائشة والجمهور، وقال جابر، أول ما أنزل عليه ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ والصحيح قول عائشة (١)

ترتيب الدعوة

المرتبة الأولى: النبوة (الثانية) إنذار عشيرته الأقربين (الثالثة) إنذار قومه (الرابعة) إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة (الخامسة) إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر. وأقام صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله سبحانه مستخفيا ثم نزل عليه ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ فأعلن الدعوة وجاهر قومه بالعداوة واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين حتى أذن لهم بالهجرتين

ذكر الهجرتين

لما كثر المسلمون وخاف منهم الكفار اشتد أذاهم له صلى الله عليه وسلم وفتنتهم إياهم فأذن لهم رسول الله فى الهجرة إلى الحبشة وقال: إن بها ملكا لا يظلم الناس عنده، فهاجر من المسلمين اثنا عشر رجلا

---

(١) وقال بعضهم: إن أول ما نزل عليه الفاتحة. ويمكن أن نجمع بين هذه الأقوال بأن الأولية فى كل منها نسبية، فالفاتحة أول ما أنزل وذلك إيناسا له صلى الله عليه وسلم وتوطئة لسماعه الوحى بعد. ويؤيد هذا ماروى من قوله لورقة بن نوفل حين سأله: إنى سمعت ممن لا أراه كلاما، وظهر بعد أنه الفاتحة وأما اقرأ باسم ربك ففى ابتداء الوحى وقد ضمه جبريل لتقوى فيه الروحانية ويزيد استعدادا لما يلقى عليه. ثم تكون أولية المدثر بالنسبة للفترة التى أعقبت الوحى الأول، أو بالنسبة للأمر بالتبليغ والله أعلم

وأربع نسوة منهم عثمان بن عفان وهو أول من خرج ومعه زوجه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقاموا فى الحبشة فى أحسن جوار ، فبلغهم أن قريشاً أسلمت وكان هذا الخبر كذبا فرجعوا إلى مكة فلما بلغهم أن الأمر أشدّ رجع منهم من رجع ودخل جماعة فلقوا من قريش أذى شديداً. وكان ممن دخل عبد الله بن مسعود ثم أذن لهم فى الهجرة ثانياً إلى الحبشة فهاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلا ، ومن النساء ثمان عشرة امرأة فأقاموا عند النجاشى على أحسن حال ؛ فبلغ ذلك قريشاً فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير المخزومى فى جماعة ليكيدوهم عند النجاشى فردّ الله كيدهم فى نحورهم فاشتدّ أذاهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فحصروه وأهل بيته فى الشعب شعب أبى طالب ثلاث سنين ، وقيل سنتين . وخرج من الحصر وله تسع وأربعون سنة ، وقيل ثمان وأربعون وبعد ذلك بأشهر مات عمه أبو طالب ثم ماتت خديجة فاشتدّ أذى الكفار له فخرج إلى الطائف هو وزيد بن حارثة يدعو إلى الله وأقام به أياما فلم يجيبوه وآذوه وأخرجوه وقاموا له سماطين (١) فرجموه بالحجارة حتى أدموا كعبيه فانصرف عنهم راجعاً إلى مكة . وفى طريقه لقى عداساً النصرانى فآمن به ، وفى طريقه بنخلة صرف إليه نفر من الجنّ سبعة من أهل نصيبين

(١) أى صفين ليتقابل الرمى من الجانبين ويكون أقوى فى الإيذاء وأظهر فى السخرية ؛ فليأنس بهذا المجاهدون فى سبيل الله والوطن ولا يصعب عليهم ما يصيبهم من السجن والنفى والجلد فإن أعداء الله وأعداء الاستقلال يصادرون الداعى إليه فى كل زمان ويتفننون فى إيذائه على قدر كفرهم بالله وطمعهم فى امتلاك الشعوب والبلاد

فاستمعوا القرآن . وفى طريقه تلك أرسل الله إليه ملك الجبال يأمره بطاعته وأن يطبق على قومه أخشبى مكة وهما جبلاها إن أراد . فقال : لا بل أستأنى بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً وفى طريقه دعا : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى » ثم دخل مكة فى جوار مطعم بن عدى ، ثم أسرى بروحه وجسده إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى فوق السموات بجسده وروحه إلى الله عز وجل فخاطبه وفرض عليه الصلوات ، وكان ذلك مرة واحدة . هذا أصح الأقوال ، وقيل كان ذلك منامًا (١) فأقام صلى الله عليه وسلم بمكة ما أقام يدعو القبائل إلى الله تعالى ويعرض نفسه عليهم فى كل موسم أن يؤووه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة فلم تستجب له قبيلة !!

ولما أراد الله إظهار دينه وإنجاز وعده ونصر نبيه وإعلاء كلمته والانتقام من أعدائه ساقه إلى الأنصار ـ لما أراد بهم من الكرامة فانتهى إلى نفر منهم ستة ، وقيل ثمانية ، وهم يحالفون رؤوسهم عند عقبة منى فى الموسم فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن فاستجابوا لله ورسوله ورجعوا إلى المدينة فدعوا قومهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأول مسجد قرئ فيه القرآن بالمدينة مسجد بنى زريق

ثم قدم مكة فى العام القابل اثنا عشر رجلا من الأنصار : منهم خمسة

---

(١) فى القرآن قال الله تعالى : ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾

من الستة الأولين فبايعوا الرسول على بيعة النساء عند العقبة ثم انصرفوا إلى المدينة ، فقدم عليه فى العام القابل منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وهم أهل العقبة الأخيرة فبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأنفسهم فترحل هو وأصحابه اليهم واختار منهم اثنى عشر نقيبا ، وأذن لأصحابه بالهجرة إلى المدينة فخرجوا أرسالا متسللين فقدموا على الأنصار فى دورهم فآووهم وأكرموهم وفشا الإسلام بالمدينة .

ثم أذن الله لرسوله فى الهجرة فخرج من مكة يوم الاثنين فى شهر ربيع الأول ، وقيل فى صفر ، وله إذ ذاك ثلاث وخمسون سنة ومعه أبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، ودليلهم عبد الله بن الأريقط الليثى فدخل غار ثور هو وأبو بكر (١) فأقاما فيه ثلاثا ، ثم أخذوا على طريق الساحل فلما انتهوا إلى المدينة — وذلك يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول — نزل بقباء فى أعلى المدينة على بنى عمرو بن عوف ، وقيل نزل على كلثوم بن الهرم ، وقيل على سعد بن خيثمة — والأول أشهر — فأقام عندهم أربعة عشر يوما وأسس مسجد قباء .

ثم خرج يوم الجمعة فأدركته الجمعة فى بنى سالم فجمع بهم بمن كان معه من المسلمين — وهم مئة — ثم ركب ناقته وسار ، وجعل الناس يكلمونه فى النزول عليهم ويأخذون بخطام الناقة فيقول : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » فبركت عند مسجده اليوم — وكان مربدا لسهل وسهيل : غلامين

---

(١) قال الله تعالى : (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)

من بنى النجار — فنزل عنها ثم سار حتى نزل على أبى أيوب الأنصارى ، ثم بنى مسجده موضع المربد بيده هو وأصحابه بالجريد واللبن ، ثم بنى مسكنه ومساكن أزواجه إلى جنبه وأقربها اليه مسكن عائشة ، ثم تحوّل بعد سبعة أشهر من دار أبى أيوب إليها .

وبلغ أصحابه بالحبشة هجرته إلى المدينة فرجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا فحبس منهم بمكة سبعة وانتهى بقيتهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة

أولاده صلى الله عليه وسلم

أولهم القاسم ، ثم زينب ، ثم رقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، ثم عبد الله . وهؤلاء كلهم من خديجة ، ولم يولد له من زوجة غيرها . ثم ولد له إبراهيم بالمدينة من سريته مارية سنة ثمان من الهجرة ، ومات قبل الفطام وكل أولاده توفى قبله إلا فاطمة فإنها تأخرت بعده بستة أشهر .

أعمامه وعماته صلى الله عليه وسلم

فمنهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب والعباس وأبو طالب وأبو لهب والزبير وعبد الكعبة والمقوم وضرار وقثم والمغيرة والعيداق ، وزاد بعضهم العوام ولم يسلم منهم غير حمزة والعباس .

وأما عماته فصفية أم الزبير بن العوام وعاتكة وبرة وأروى وأميمة أم حكيم البيضاء . أسلم منهن : صفية ، واختلف فى إسلام عاتكة . وصحح بعضهم إسلام أروى .

أزواجه صلى الله عليه وسلم

أولاهن خديجة بنت خويلد القرشية تزوجها قبل النبوة ولها أربعون

سنة ولم يتزوّج عليها حتى ماتت ، وهى التى وازرته على النبوّة وجاهدت معه وواسته بنفسها ومالها وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين

ثم تزوّج بعد موتها بأيام (سودة) بنت زمعة القرشية وهى التى وهبت يومها لعائشة

ثم تزوّج عائشة الصدّيقة بنت الصدّيق وبنى بها فى السنة الأولى من الهجرة ولم يتزوّج بكراً غيرها ، وكانت أفقه نسائه وأحبهنّ إليه وكانت مرجع كثير من الصحابة فى الفتوى وهى المبرّأة بالوحى

ثم تزوّج حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وذكر أبو داود أنه طلقها ثم راجعها ، وتزوّج زينب بنت خزيمة بن الحارث القيسية من بنى هلال بن عامر ، وتوفيت بعد ضمه لها بشهرين .

وتزوّج أمّ سلمة : هند بنت أبى أمية القرشية المخزومية ، وهى آخر نسائه موتا .

ثم تزوج زينب بنت جحش من بنى أسد وهى ابنة عمته أميمة وفيها نزل قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ (١) وبذلك

---

(١) الآية فى سورة الأحزاب وتمامها : « لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً وكان أمر الله مفعولا » . ويبين الله بهذه الآية أنّ النبى صلى الله عليه وسلم تزوّج زينب لحكمة هى إبطال ما كان يعتقده من جعل زوج الدعىّ كزوج الابن الحقيقى . والمتأمّل فى غير زينب من الزوجات يرى الحكم التى دعته للتزوّج بهنّ : فمنها إيجاد الروابط وتقوية العصبيات ، ولا يخفى ما فى ذلك من الفوائد فى حين النهضة : ومنها تعليم نساء المؤمنين إذ امرأة أو اثنتان لا تكفيان

كانت تفتخر على نساء النبى صلى الله عليه وسلم ، وتقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات ! وتوفيت فى أول خلافة عمر بن الخطاب .

ثم تزوج جويرة بنت الحارث ، وكانت من سبايا بنى المصطلق جاءته تستعين به على كتابتها فأدى عنها وتزوجها

ثم تزوج أمّ حبيبة بنت أبى سفيان صخر بن حرب القرشية الأموية وكانت تحت عبد الله بن جحش هاجر بها ثم تنصر وثبتت هى على الإسلام وبعث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى يخطبها عليه فزوجه النجاشى منها وأصدقها عنه سنة سبع من الهجرة

وتزوج صلى الله عليه وسلم صفية بنت حيّ بن أخطب سيد بنى النضير من ولد هارون بن عمران وقد صارت له من الصفى أمة فأعتقها وجعل عتقها صداقها ، فصار ذلك سنة للأمة يعتق الرجل أمته ويجعل عتقها صداقها .

وقد كان بيت الرسول صلى الله عليه وسلم مدرسة للتهذيب والتعليم ولابدّ أن يكون فى نسائه قدوة حسنة لنساء المؤمنين فيما يحتجن إليه من أمور النساء

وانظر السياسة فى تزوجه بجويرة كان قومها أسرى عند الصحابة فأعتقوهم إكراما لهذا التزوج فأسلموا جميعا وكانوا عونا للمسلمين . ولا تغب عنك الحكمة فى أمّ حبيبة التى وجدها ثبتت على الإسلام فأراد أن يكرمها ويحفظها من فتنة زوجها المتنصر بالحبشة وفتنة أهلها الكفار بمكة ، وترى فى صفية أنه عظم عليه أن تذل بالأسر بعد أن قتل أبوها مع بنى قريظة وزوجها يوم خيبر ، لما فيها من الأحكام ، وفى هذا كله رد على أعداء الدين الذين يقولون : إنّ الرسول أكثر من التزوج للشهوة لا للحكمة ! ! ولو كانوا يفقهون لعلموا أنه موجه إلى أعلى مما يقولون . ولما انتهت مهمته التى كان يتزوج من أجلها قال الله له : (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهنّ من أزواج ولو أعجبك حسنهنّ إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيبا)

ثم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية وهى آخر من تزوّج ، وكان زواجه بها فى مكة فى عمرة القضاء بعد أن حل منها

مواليه صلى الله عليه وسلم

فمنهم زيد بن حارثة حب رسول الله أعتقه وزوجه مولاته أم أيمن فولدت أسامة ، ومنهم أسلم وأبو رافع وثوبان وأبو كبشة سليم وشقران ـ واسمه صالح ـ ورباح « نوبى » ويسار « نوبى أيضا » — وهو قتيل العرنيين — ومدعم وكركرة « نوبى » ومنهم أنجشة الحادى وسفينة بن فروخ ـ واسمه مهران ، وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سفينة لأنهم كانوا يحملونه فى السفر متاعهم ـ ومنهم أنيسة ـ ويكنى أبا مشروح ـ وأفلح وعبيدة وطهمان ، ومنهم حنين وسندر وفضالة « يمانى » ومن النساء سلمى أم رافع وميمونة بنت سعد وخضيرة ورضوى وريشحة وريحانة

خدّامه صلى الله عليه وسلم

فمنهم أنس بن مالك ، وكان على حوائجه ، وعبد الله بن مسعود ، صاحب نعله ، وسواكه . وعقبة بن عامر الجهنى ، صاحب بغلته يقودبه فى الأسفار وأسلع بن شريك ، وكان صاحب راحلته ، وأبو ذر الغفارى . وأيمن بن عبيد — وكان على مطهرته وحاجته — وبلال بن رباح المؤذن وسعد — موليا أبى بكر الصديق

كتّابه صلى الله عليه وسلم

أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، والزبير ، وعامر بن فهيرة ، وعمرو

ابن العاص ، وأبيّ بن كعب ، وعبد الله بن الأرقم ، وثابت بن قيس بن شماس ، وحنظلة بن الربيع الأسدى ، والمغيرة بن شعبة ، وعبد الله بن رواحة ، وخالد بن الوليد ، وخالد بن سعيد بن العاص — وقيل إنه أول من كتب له صلى الله عليه وسلم — ومعاوية بن أبى سفيان ، وزيد بن ثابت وكان ألزمهم لهذا الشأن وأخصهم به

كتبه إلى أهل الإسلام فى الشرائع

صلى الله عليه وسلم

فمنها كتابه فى الصدقات الذى كان عند أبى بكر ـ وكتبه أبو بكر لأنس ابن مالك لما وجهه إلى البحرين ـ ومنها كتابه إلى أهل اليمن وهو الكتاب الذى رواه أبو بكر بن عمرو بن حزم ، ورواه الحاكم فى صحيحه والنسائى وغيرهما ، وهو كتاب عظيم فيه أنواع من الفقه ، ومنها كتابه إلى بنى زهير وكتاب كان عند عمر بن الخطاب فى نصب الزكاة وغيرها

كتبه ورسله إلى الملوك صلى الله عليه وسلم

لما رجع من الحديبية كتب إلى ملوك الأرض وأرسل إليهم رسله فكتب إلى ملك الروم . فقيل له . إنهم لا يقرأون كتابا إلا إذا كان مختوما ، فاتخذ خاتما من فضة ونقش عليه ثلاثة أسطر : محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر . وختم به الكتب إلى الملوك . وبعث ستة نفر فى يوم واحد فى المحرم سنة سبع . فأولهم عمرو بن أمية الضمرى بعثه إلى النجاشى — واسمه أصحمة وتفسيره بالعربية عطية — فعظم كتاب النبى صلى الله عليه وسلم ثم أسلم وشهد شهادة الحق وكان من أعلم الناس بالإنجيل . وصلى

عليه النبي صلى الله عليه وسلم يوم مات بالمدينة وهو بالحبشة ، هكذا قال جماعة منهم الواقدى وغيره ؛ وليس كما قال هؤلاء فإنّ أصحمة النجاشى الذى صلى عليه رسول الله ليس هو الذى كتب إليه وهو الثانى ولا يعرف إسلامه بخلاف الأوّل فإنه مات مسلما ، وقد روى مسلم فى صحيحه من حديث قتادة عن أنس قال : كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشى ، وليس بالنجاشى الذى صلى عليه رسول الله ، وقال محمد بن حزم إن هذا النجاشى الذى بعث إليه رسول الله عمرو بن أمية الضمرى لم يسلم ، والأول هو اختيار ابن سعد وغيره . والظاهر قول ابن حزم .

وبعث دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر ملك الرّوم — واسمه هرقل وهمّ بالإسلام وكاد ولم يفعل . وقد روى أبو حاتم وابن حبان فى صحيحه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ينطلق بصحيفتى إلى قيصر وله الجنة ؟ » فقال رجل من القوم : وإن لم يقبل ؟ قال « وإن لم يقبل » فوافق قيصر وهو يأتى بيت المقدس فرمى بالكتاب على البساط وتنحى فنادى قيصر : من صاحب الكتاب فهو آمن ! قال أنا . قال : فإذا قدمت فائتنى ؛ فلما قدم أتاه فأمر قيصر بأبواب قصره فغلقت ، ثم أمر مناديا ينادى : ألا إنّ قيصر قد اتبع محمداً وترك النصرانية فأقبل جنده وقد تسلحوا فقال لرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد ترى أنى خائف على مملكتى ! ثم أمر مناديه فنادى : ألا إنّ قيصر قد رضى عنكم وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى مسلم وبعث إليه بدنانير ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كذب عدوّ الله ليس بمسلم وهو

بلى النصرانية ، وقسم الدّنانير .

وبعث عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى — واسمه أبرويز بن هرمز بن أنوشروان — فمزّق كتاب النبي ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم مزق ملكه ، فمزّق ملكه وملك قومه .

وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس — واسمه جريج بن مينا وهو ملك الإسكندرية عظيم القبط — فقال خيراً وقارب الأمر ولم يسلم وأهدى للنبي صلى الله عليه وسلم مارية وأختيها سيرين وقيسرى ، فتسرى مارية ووهب سيرين لحسان بن ثابت . وأهدى له جارية أخرى وألف مثقال ذهباً وعشرين ثوبا من قباطى مصر وبغلة شهباء وهى دلدل وحماراً أشهب — وهو عفير — وغلاماً خصيبا يقال له مابور — وقيل هو ابن عم مارية — وفرسا — وهو اللزاز — وقدحا من زجاج وعسلا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ضنّ الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه » .

وبعث سجاع بن وهب الأسدى إلى الحرث بن أبى شمر الغسانى ملك البلقاء ، وبعث سليط بن عمرو إلى هوذة بن على الحنفى باليمامه فأكرمه ؛ وقيل بعثه ابن هوذة إلى ثمامة بن أثال الحنفى فلم يسلم هوذة وأسلم ثمامة بعد ذلك فهؤلاء الستة قيل هم الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم واحد ؛ وبعث عمرو بن العاص فى ذى القعدة سنة ثمان إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى الأزديين بعمان فأسلما وصدقا وخليا بين عمرو وبين الصدقة والحكم فيما بينهم ، فلم يزل فيما بينهم حتى بلغته وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين قبل منصرفه من الجعرانة ، وقيل قبل الفتح فأسلم وصدق .

وبعث المهاجر بن أبي أمية المخزومي إلى الحرث بن عبد كلال الحميري باليمن ، فقال : سأنظر في أمري .

وبعث أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن عند انصرافه من تبوك ، وقيل سنة عشر من ربيع الأول داعيين إلى الإسلام فأسلم عامة أهلها طوعا من غير قتال .

ثم بعث بعد ذلك عليّ بن أبي طالب إليهم ووافاهم بمكة في حجة الوداع وبعث جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الكلاع الحميري وذي عمرو يدعوهما إلى الإسلام فأسلما وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وجرير عندهم ، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى مسيلمة الكذاب بكتاب وكتب إليه بكتاب آخر مع السائب بن العوام أخي الزبير فلم يسلم ، وبعث إلى فروة ابن عمرو الجذامي يدعوه إلى الإسلام ، وقيل لم يبعث إليه ، وكان فروة عاملا لقيصر بمعان فأسلم وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بإسلامه .

وبعث إليه هدية مع مسعود بن سعد ـ وهي بغلة شهباء يقال لها فضة ـ وفرس يقال له الضرب ، وحمار يقال له يعفور . وبعث أثوابا وقباء سندس مخوص بالذهب فقبل هديته ووهب لمسعود بن سعد اثنتي عشرة أوقية ونشا . وبعث عياش بن أبي ربيعة المخزومي بكتاب إلى الحرث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير .

مؤذنوه صلى الله عليه وسلم

كانوا أربعة : اثنان بالمدينة ، بلال بن رباح ، وهو أول من أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمرو بن أم مكتوم القرشي العامري

الأعمى . وبقباء سعد القرظ ، مولى عمار بن ياسر ، وبمكة أبو محذورة واسمه أوس بن مغيرة الجمحى .

وكان أبو محذورة يرجع الأذان ويثنى الإقامة وبلال لا يرجع ويفرد الإقامة .

أمراؤه صلى الله عليه وسلم

منهم باذان بن ساسان أمره رسول الله على أهل اليمن كلها بعد كسرى فهو أول أمير فى الإسلام على اليمن وأول من أسلم من ملوك العجم ، ثم أمر بعد موت باذان ابنه شهر بن باذان على صنعاء وأعمالها ، ثم قتل شهر فأمر خالد بن سعيد بن العاص

وولى المهاجر بن أبى أمية المخزومى كندة والصدف فتوفى رسول الله ولم يسر إليها فبعثه أبو بكر لقتال ناس من المرتدين .

وولى زياد بن أمية الأنصارى حضرموت .

وولى أبا موسى الأشعرى زبيد وعدن وزمع والساحل ، وولى معاذ ابن جبل الجند ، وولى أبا سفيان صخر بن حرب نجران ، وولى ابنه يزيد تيما وولى عتاب بن أسيد مكة وإقامة الموسم بالحج بالمسلمين سنة ثمان ، وله دون العشرين سنة ، وولى على بن أبى طالب الأخماس باليمن والقضاء بها

وولى عمرو بن العاص عمان وأعمالها ، وولى الصدقات جماعة كثيرة لأنه كان لكل قبيلة وال يقبض صدقاتها ، وولى أبا بكر إقامة الحج سنة تسع وبعث فى أثره علياً يقرأ على الناس سورة براءة .

حرسه صلى الله عليه وسلم

فمنهم سعد بن معاذ حرسه يوم بدر حين نام فى العريش ، ومحمد بن مسلمة حرسه يوم أحد ، والزبير بن العوام حرسه يوم الخندق .

ومنهم عباد بن بشر وهو الذى كان على حرسه .

وحرسه جماعة آخرون غير هؤلاء ؛ فلما نزل قوله تعالى : (وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) خرج على الناس فأخبرهم وصرف الحرس .

شعراؤه صلى الله عليه وسلم وخطباؤه

كان من شعرائه الذين يذبون عن الإسلام كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت ـ وكان أشدهم على الكفار حسان ـ وكعب يعيرهم بالكفر والشرك ، وكان خطيبه ثابت بن قيس بن شماس

حدّاثه فى السفر صلى الله عليه وسلم

منهم عبد الله بن رواحة ، وأنجشة ، وعامر بن الأكوع ، وعمه سلمة بن الأكوع . وفى صحيح مسلم : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حاد حسن الصوت فقال له : « رويداً أنجشة لاتكسر القوارير » يعنى ضعفة النساء

سلاحه وأثاثه صلى الله عليه وسلم

كان له تسعة أسياف : منها ذو الفقار ـ وكان لا يكاد يفارقه ، وكانت قائمته وقبيعته وحلقته وذؤابته وبكراته ونعله من فضة ـ وسبعة أذرع ، وست قسى ، وترس يقال له الفتق ، وترس يقال له الزلوق ، وخمسة أرماح ، وحربة يقال لها النبعة ، وأخرى كبيرة تدعى البيضاء ، وأخرى صغيرة شبه العكاز

يمشي بها بين يديه فى الأعياد تركز أمامه فيتخذها سترة يصلى إليها ، وكان يمشي بها أحيانا (١)

وكان له مغفر من حديد يقال له الموشح ومغفر آخر يقال له المسبوغ ، وكان له ثلاث جبات يلبسها فى الحرب ؛ قيل فيها جبة سندس أخضر ، وكان له راية سوداء . وفى سنن أبى داود عن رجل من الصحابة قال : رأيت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم صفراء

وكان له ألوية بيضاء ، وربما جعل فيها الأسود ، وكان له فسطاط يسمى الكن ، وحجن يمشي به ويركب به ويعلقه بين يديه على بعيره

وكان له قدح مضبب بسلسلة فضة ، وقدح من قوارير ، ومدهن ، وربعة فيها المرآة والمشط والمقراضان والسواك ، وسرير قوائمه من ساج ، وفراش من أدم حشوه ليف

وكانت له قصعة تسمى الغراء لها أربع حلق يحملها أربعة بينهم ، وكان له بساط ، وكان له قدح من عيدان (٢) يوضع تحت سريره يبول فيه بالليل

وكان له مائة شاة وكان لا يريد أن تزيد — كلما ولد له الرّاعى بهمة ذبح مكانها شاة — وغنم يوم بدر جملا مهريا لأبى جهل فى أنفه برة من فضة فأهداه يوم الحديبية ليغيظ به المشركين .

ملابسه صلى الله عليه وسلم

كانت له عمامة يلبس تحتها القلنسوة — وكان يلبس القلنسوة بغير عمامة

---

(١) هذا مظهر من مظاهر القوة فى الأمة يظهر به رئيسها وقائدها ليجعلها تألف عدد الحرب ويربى أبناءها على الشجاعة استعدادا للدفاع والذود عن حياضها

(٢) نخيا

ويلبس العمامة بغير قلنسوة — وكان إذا اعتمّ أرخى عمامته بين كتفيه ، كما رواه مسلم فى صحيحه عن عمر بن حريث قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه . وفى مسلم أيضا عن جابر بن عبد الله أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة وعليه عمامة سوداء — ولم يذكر فى حديث جابر ذؤابة فدلّ على أنّ الذؤابة لم يكن يرخيها دائما بين كتفيه (١) — وقد يقال إنه دخل مكة وعليه أهبة القتال والمغفر على رأسه فلبس فى كل موطن ما يناسبه .

ولبس القميص وكان أحب الثياب إليه وكان كمه إلى الرّسغ ولبس الجبة والفروج — وهو شبه القباء والفرجية — ولبس القباء أيضا ؛ ولبس فى السفر جبة ضيقة الكمين ؛ ولبس الإزار والرّداء .

ولبس حلة حمراء — والحلة إزار ورداء ولا تكون الحلة إلا اسما للثوبين معا ، وغلط من ظنّ أنها كانت حمراء بحتا لا يخالطها غيرها وإنما الحلة الحمراء بردان يمانيان منسوجان بخطوط حمر مع الأسود كسائر البرود اليمنية وهى معروفة بهذا الاسم باعتبار ما فيها من الخطوط الحمر ، وإلا فالأحمر البحت منهى عنه ، ففى صحيح البخارى أنّ النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن المياثر الحمر (٢) — وفى سنن أبى داود عن عبدالله بن عمر أنّ النبى صلى الله عليه وسلم رأى عليه ريطه مضرّجة بالعصفر (٣) فقال :

---

(١) الظاهر أنها كانت عادة فى بلاد العرب لوقاية القفا من حرارة الشمس

(٢) المياثر جمع ميثرة ، وهى اللبد أو الفراش الذى يجعل تحت الراكب على القرس والبعير :

(٣) الريطة : كل ثوب لين رقيق . والمضرّجة : المصبوغة صبغا خفيفا غير مشبع

ما هـذه الريطة التى عليك ؟ فعرفت ما كره ! فأتيت أهلى وهم يسجرون تنوراً لهم فقذفتها فيها ؛ ثم أتيته من الغد ، فقال : يا عبدالله مافعلت الريطة ؟ فأخبرته فقال : هلا كسوتها بعض أهلك فإنه لا بأس بها للنساء » .

ولبس ثوبا أسود ، ولبس الفروة المكفوفة بالسندس ، كما روى الإمام أحمد وأبو داود ، ولبس الخفين ولبس النعل ولبس الخاتم (١) . وفى صحيح مسلم عن أسماء بنت أبى بكر قالت : هذه جبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجت جبة طيالسية خسروانيـة (٢) . لها لبنـة ديباج وفرجاها مكفوفان بالديباج ! فقالت : هذه كانت عند عائشة حتى قبضت فلما قبضت قبضتها وكان صلى الله عليه وسلم يلبسها .

وكان قميصه من قطن وكان قصير الطول قصير (٣) الكمين وأما هذه الأكمام الواسعة الطوال التى هى كالأحراج فلم يلبسها هو ولا أحد من أصحابه البتة ! وهى مخالفة لسنته ؛ وفى جوازها نظر فإنها من جنس الخيلاء . وكان أحب الألوان إليه البياض ، وقال : « هى من خير ثيابكم فالبسوها وكفنوا فيها موتاكم »

ورأى أنس جماعة عليهم الطيالسة فقال : ماأشبههم بيهود خيبر ! !

ومن ههنا كره لبسها جماعة من السلف والخلف لما روى أبو داود والحاكم فى المستدرك عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من

(١) الخاتم الذى نقش عليه اسمه وكان يختم به كتبه إلى الملوك كان يلبسه فى أصبعه . لا الخاتم الذى يلبسه الناس الآن للزينة والأبهة .

(٢) نسبه إلى نوعها من الثياب

(٣) إن فى قصر الثياب حفظا من القذر واقتصادا فى الثمن وتنشيطا على العمل .

تشبه بقوم فهو منهم » وفى الترمذى : « ليس منا من تشبه بقوم غيرنا[1] »

(١) يريد صلى الله عليه وسلم أن المرء الذى يتشبه بالأجانب فى الزى ومثله من الشعائر لا يكون من أمته بل ينسلخ منها ويبعد عنها : ذلك بأن كل أمة لها شعار من الزى واللغة والدين يميزها من غيرها ويجعل لها استقلالا خاصا بها ، وبقدر ما يكون بين أفراد الأمة من الارتباط بشعائرها يكون استقلال أمتهم وعظمتها بين الأمم : فرسول الله يهدينا إلى ذلك . وقد رأى صلى الله عليه وسلم أحد أصحابه لابساً ثوبا من الثياب فقال له : « لا تلبس هذا فإنه من لباس الكفار » وقد قال الله تعالى (ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين) فالتفقه أمتنا هذه التعاليم ولتحافظ على شعائرها التى يسعى العدو فى هدمها بنشر شعائره

وليحذر كل فرد منا أن يترك أى شعار من شعائرنا المقومة لنا ولا نقلد الأجانب فى أى شعار من شعائرهم التى تدمجنا فيهم وتبعدنا من أمتنا ونحن لا نشعر ولنكن مثلهم فى اختراع الصناعات واستخراج كنوز الأرض والانتفاع بعلوم الكون ولنرق أمتنا من هذه الجهة بقدر ما نستطيع . وإنى أنبه أبناء قومى الذين يلبسون أولادهم القبعات (البرانيط) إلى أنها شعار الأجانب وإن كانوا يروونها من المدنية فهى تحل رابطة الأمة . وإذا أصبحت هذه التقاليد الضارة وراثية فى الأمة فإنه يتعذر استقلالها . وإنى أكرر النصح للإخوان الذين يذهبون إلى أوربا وأمريكا ألا يخلعوا زيهم فإنه الشعار الذى به يعرفون . وكذلك الذين يحضرون المؤتمرات والمجامع تمثيل الأمة إنما يمثلونها بشعارها الذى يجعل لهم صفة وشخصية تملأ عيون الناظرين : فإن كانوا يرون أنهم إذا ظهروا بمظهر أبنائهم يحتقرون ويضحك منهم فإن كثيرين من الأجانب جاءوا عندنا وكنا نضحك منهم وما تركوا شعارهم بل بقوا محافظين عليه حتى ألفناهم وصاروا هم أهل البلاد ونحن بما يخيله لنا الوهم والشيطان نترك شعار أمتنا ونزعم أننا تمثلها . وإذا لم يكن الزى كل شىء فى الاستقلال فإنه شىء هتم بالضامه إلى باقى الشعائر يمثل الاستقلال التام ويبعث فى الأمة روح الدفاع عما تشعر به فى نفسها من عظمتها الشخصية . فالله يوفقنا للعمل بهدى رسوله الموصل إلى أقوم طريق فى الاجتماع وأعنا على الخلاص من عدوانا حتى نتمكن من تعميم هذه التعاليم

وكان هديه فى اللباس أن يلبس ما تيسر من الصوف تارة والقطن تارة والكتان تارة

وكان إذا استجدّ ثوبا سماه باسمه وقال : «اللهم أنت كسوتنى هذا القميص أو الرداء أو العمامة أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » . وكان إذا لبس قميصه بدأ بميامنه . وفى سنن النسائى عن عائشة أنها جعلت للنبى صلى الله عليه وسلم بردة من صوف فلبسها فلما عرق فوجد ريح الصوف طرحها (١) ؛ وكان يحب الريح الطيب . وفى سنن أبى داود عن عبد الله بن عباس : « لقد رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلل » فالذين يمنعون عما أباح الله من الملابس والمطاعم والمناكح تزهداً وتعبداً بإزائهم طائفة قابلوهم فلا يلبسون إلا أشرف الثياب ولم يأكلوا إلا ألين الطعام فلا يرون لبس الخشن ولا أكله تكبرا وتجبرا وكلا الطائفتين هديه مخالف لهدى النبى (صلى الله عليه وسلم) . ولهذا قال بعض السلف : كانوا يكرهون الشهرتين من الثياب العالى والمنخفض . وفى السنن عن ابن عمر يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم « من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوب مذلة ثم يلتهب به فى النار » وفى الصحيحين : « من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » . وكذلك لبس الدنى من الثياب يذمّ فى موضع ويحمد فى موضع

---

(١) بعض الناس لا تطاق رائحته من كثرة عرقه ووساخة جسمه وثوبه ، وهو مع ذلك يبحث فى دم البرغوث : نجس هو أم طاهر ؟ وهل إن قتل يكون جلده جلد ميتة حمله يبطل الصلاة أم لا ؟ ! فاللهم هب القوم نظافة الثياب والأجسام كما تهبهم نظافة العقول والأفكار .

فيذم إذا كان شهرة وخيلاء، ويمدح إذا كان تواضعاً واستكانه . كما أن لبس الرفيع من الثياب يذم إذا كان تكبراً وفخراً وخيلاء ويمدح إذا كان تجملا وإظهاراً لنعمة الله .

ففى صحيح مسلم : « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من كبر ، ولايدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان » فقال رجل يارسول الله : إنى أحب أن يكون ثوبى حسناً ونعلى حسنة أفمن الكبر ذاك ؟ فقال لا ! إن الله جميل يحب الجمال ؛ الكبر بطر الحق وغمط الناس .

هديه صلى الله عليه وسلم فى الطعام والشراب

كان لايرد موجوداً ولا يتكلف مفقوداً : فماقرب إليه شىء من الطيبات إلا أكله ، إلا أن تعافه نفسه فيتركه بدون تحريم . وماعاب طعاما قط . إن اشتهاه أكله وإلا تركه كما ترك أكل الضب لما لم يعتده ولم يحرمه على الأمة ؛ بل أكل على مائدته وهو ينظر .

وكان هديه أكل ماتيسر : فإن أعوزه صبر حتى إنه يربط على بطنه الحجر من الجوع ويرى الهلال والهلال والهلال ولايوقد فى بيته ناراً وكان معظم مطعمه يوضع على الأرض فى السفر ، وهى كانت مائدته . وكان من هديه الشراب قاعداً ، وصح عنه أنه شرب قائما : جاء إلى زمزم وهم يسقون منها فاستقى فناولوه الدلو فشرب وهو قائم .

وروى عنه « إذا شرب أحدكم فليمص الماء مصاً » .

وفى صحيح مسلم كان يتنفس فى الشراب ثلاثا ويقول : « إنه أروى وأمرأ

وأبرأ » ومعنى تنفسه فى الشراب إبانة القدح عن فيه وتنفسه خارجه ثم يعود إلى الشراب كما جاء مصرحا به فى الحديث الآخر : « إذا شرب أحدكم فلا يتنفس فى القدح ولكن ليبن الإناء عن فيه » . وروى الترمذى : « لا تشربوا نفساً واحداً كشرب البعير ! لكن اشربوا مثنى وثلاث ، وسموا إذا أنتم شربتم واحمدوا إذا أنتم فرغتم » .

وكان لا يأكل متكئاً ، وكان يسمى الله تعالى على أول طعامه ويحمده فى آخره ، وكان إذا شرب ناول من على يمينه وإن كان من على يساره أكبر منه .

هديه صلى الله عليه وسلم فى معاشرة أهله

صح عنه من حديث أنس : « حبب إلىّ من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

وكان يطوف على نسائه فى الليلة الواحدة ، وكان يقسم بينهن فى المبيت والإيواء والنفقة . وأما المحبة فكان يقول . اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك » . وطاق وراجع وآلى إيلاء مؤقتاً بشهر ولم يظاهر أبدا (١)

وكان مع أزواجه حسن المعاشرة وحسن الخلق ، وكان يسرب إلى عائشة بنات الأنصار يلعبن معها ، وإذا هويت شيئاً لا محذور فيه تابعها عليه وإذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه فى موضع فمها وشرب ، وكان يتكئ فى حجرها ويقرأ القرآن ورأسه فى حجرها وربما كانت حائضا ،

(١) سيأتى معنى الإيلاء والظهار بعد فارجع إلى الفهرس

وكان يأمرها وهى حائض فتتزر ثم يباشرها ، وكان يقبلها وهو صائم ويريها الحبشة وهم يلعبون فى مسجده وهى متكئة على منكبيه تنظر ، وسابقها فى السفر على الأقدام مرتين وتدافعا فى خروجهما من المنزل .

وكان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه : فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه وكان يقول « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » وكان ربما مدّ يده إلى بعض نسائه فى حضرة باقيهن ، وكان إذا صلى العصر دار على نسائه فدنا منهن واستقرأ أحوالهن ، فإذا جاء الليل انقلب إلى بيت صاحبة النوبة فخصها بالليل . قالت عائشة : كان لا يفضل بعضنا على بعض فى مكثه عندهن فى القسم . وكان يقسم لثمان منهن دون التاسعة وهى « سودة » لما كبرت وهبت نوبتها لعائشة ، وكان صلى الله عليه وسلم يقسم لعائشة يومها ويوم سودة .

وكان يأتى أهله آخر الليل وأوله ، وإذا جامع أول الليل فربما اغتسل ونام وربما توضأ ونام ، وكان يطوف على نسائه بغسل واحد ، وربما اغتسل عند كل واحدة .

وكان إذا سافر وقدم لم يطرق أهله ليلا وينهى عن ذلك .

هديه صلى الله عليه وسلم فى نومه وانتباهه

كان ينام على الفراش تارة ، وعلى الحصير تارة ، وعلى السرير تارة ، وعلى الأرض تارة (١) ، وكان فراشه حشوه ليف .

---

(١) كذلك كان يجلس على الأرض تارة وعلى الحصير تارة . والحكمة فى هذا الجمع بين التخشن والتمتع بنعمة الله وهو يريد ألا يتعود شيئا مخصوصا من هذا

وكان إذا أوى إلى فراشه للنوم قال : «باسمك اللهم أحيا وأموت» وينام على شقه الأيمن ويضع يده اليمنى تحت خده الأيمن ثم يقول : « اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك » ؛ وإذا انتبه من نومه قال : «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » ثم يتسوّك ؛ وكان ينام أول الليل ويقوم آخره وربما سهر أول الليل فى مصالح المسلمين (١) وكانت تنام عيناه ولا ينام قلبه ؛ وإذا نام لم يوقظوه حتى يكون هو الذى يستيقظ .

هديه صلى الله عليه وسلم فى الركوب

ركب الخيل والإبل والبغال والحمير ؛ وركب الفرس مسرجة تارة وعريا أخرى ، وكان يجريها فى بعض الأحيان، وكان يركب وحده وهو الأكثر، وربما أردف خلفه وأركب أمامه ! وكانوا ثلاثة على بعير. وأردف الرجال وأردف بعض نسائه ، وكان أكثر مراكبه الخيل والإبل ولم تكن البغال مشهورة بأرض العرب بل لما أهديت له البغلة قيل : ألا ترى الخيل على الحمر؟ فقال « إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون » (٢)

كما كان يحذر أن يتعوّد طعاما أو شرابا مخصوصا بحيث تصبح نفسه مكيفة به أسيرة له مترفة بالنعمة فلا يستطيع أن يقاوم طوارئ الزمان ، وهذا اعتدال فى الحياة واقتصاد فى التربية ، ومن خيرة ما ينفع فى الاجتماع .

(١) فليعتبر بهذا الذين يسهرون طول الليل فى اللعب واللهو ولا تكسب الأمة منهم غير فساد الأخلاق وتعطيل المصالح .

(٢) لأن الذين لا يعلمون لا يحافظون على الخيل ونسلها من جنسها ؛ والخيل قوة عظيمة فى الحرب ! وقد أقسم الله تعالى بها بصفاتها الحربية لنعتنى بها فقال : (والعاديات ضبحا فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعا) وكل قوة فى الحرب تتغير بتغير الزمان إلا الخيل فلا تزال . وانظر بلاغة

هديه صلى الله عليه وسلم فى معاملته وأخلاقه

باع واشترى وآجر واستأجر ، ويحفظ عنه أنه أجر نفسه قبل النبوة فى رعاية الغنم وأجر نفسه من خديجة فى سفره بمالها إلى الشام

وشارك ، ولما قدم عليه شريكه قال . « أما تعرفنى ؟ قال أما كنت شريكى فنعم الشريك كنت لاتدارئ ولا تمارى » — وتدارئ بالهمز من المدارأة وهى مدافعة الحق فإن ترك همزها صارت من المداراة وهى المدافعة بالتى هى أحسن

ووكل وتوكل ، وأهدى وقبل الهدية وأثاب عليها ، ووهب واتهب ، فقال لسلمة بن الأكوع وقد وقع فى سهمه جارية : « هبها لى » فوهبها له ففادى بها من أهل مكة أسارى من المسلمين . واستدان برهن وبغير رهن واستعار واشترى بالثمن الحال والمؤجل ، وضمن ضمانا خاصا على ربه على أعمال من عملها كان مضمونا له بالجنة وضمانا عاما لديون من توفى من المسلمين ولم يدع وفاء . وقد قيل : إن هذا الحكم عام للأئمة بعد فالسلطان ضامن لديون المسلمين — إذا لم يخلفوا وفاء — يوفيها من بيت المال . وقالوا : كما يرث من مات ولم يدع وارثا ، فكذلك يقضى عنه

القرآن حيث يقول الله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) نكر القوة فلم يبين أنواعها لأنها ستجدد بالاكتشاف وعرف الخيل باسمها لأنها تبقى قوة إلى ماشاء الله فمن يوم أن تركنا تعاليم الدين تركنا العناية بالخيل كما تركنا العناية بغيرها من قوات الحرب ومعدات التحصين والدفاع فصرنا سخرة للأعداء يفعلون بنا مايريدون .

دينه إذا مات ولم يدع وفاء وكذلك ينفق عليه فى حياته إذا لم يكن له من ينفق عليه

ووقف أرضاً كانت له جعلها صدقة فى سبيل الله (١) وتشفع وشفع إليه وردت بريرة شفاعته فى مراجعتها مغيثا فلم يغضب عليها ولا عتب

(١) هذا الوقف هو المشروع النافع ويعرف بالوقف الخيرى : أما الذى يعملونه الآن ويسمونه الوقف الأهلى فلا أصل له فى الدين : ذلك بأن المرء يقف ما يملك على نفسه مدّة حياته ثم على ذريته أو من يشاء بعد موته طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل ويشرط لنفسه (الشروط العشرة) وغيرها والغرض منها أن يبقى الباب مفتوحا له فى التغيير فى الوقف يخرج منه من يشاء ويدخل فيه من يشاء ، وقد يكون الغرض من وقفه إحرام أبويه أو أحد أولاده من الميراث وقد تكون له زوجة يحبها فورثها كل ما يملك ويحرم جميع أولاده ! وهكذا على حسب هواه وشهوته

فهل بهذا يبقى معنى للتوريث الشرعى أم يختل نظامه فيصير غير الوارث وارثا والوارث غير وارث وتهمل وصية الله تعالى فى قوله (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) إلى آخر الآيات التى قسم الله بها الميراث فى سورة النساء ؟ وهل من يعمل على هذا الوقف يكون راضيا عن حكم الله وقسمته ؟ أم يقولون المالك يتصرّف فى ملكه كيف يشاء ولو تعدّى حدود الله والله تعالى يقول : (ومن يعص الله ورسوله ، ويتعدّ حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين) وقد جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليشهده على ملك أعطاه لولده فقال : ألك أولاد غيره ؟ قال نعم قال : أعطيتهم مثل ما أعطيته ؟ قال لا قال : لا تشهدنى على جور إنى لا أشهد إلا على الحق .

ومن الشروط الفظيعة فى هذا الوقف أنّ أحد الزوجين يشرط على الآخر ألا يتزوج بعد موته وإلا لا يستحق فى وقفه فهل بربك تجوز الرهبانية فى الإسلام من أجل الوقف ويعيش المرء راهبا ويفقد نعمة الزواج ويعطل حكمة الله فى التناسل ؟ أم أنّ المرء يزنى ويفسد أخلاقه وأخلاق أمّته خوف أن يتزوج فتحكم المحكمة الشرعية بحرمانه من الوقف حسب شرط الواقف ؟ . . . .

وحلف وكان يستثنى فى يمينه تارة ويكفرها تارة ويمضى فيها تارة (١).

وكان يمازح ويقول فى مزاحه الحق ويورّى ، ولا يقول فى توريته إلا الحق ، مثل أن يريد جهة يقصدها فيسأل عن غيرها كيف طريقها وكيف مياهها وكيف مسلكها ويشير ويستشير ، ويعود المريض ويشهد الجنازة ويجيب الدعوة ويمشى مع الأرملة والمسكين والضعيف فى حوائجهم وسمع الشعر وأثاب عليه ، وأثاب على الحق ! وسابق بنفسه على الأقدام وصارع ، وخصف نعله بيده ، ورقع ثوبه ودلوه ، وحلب شاته ، وفلى ثوبه ،

فما هذه الشروط المخجلة التى ما أنزل الله بها من سلطان (إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون) (إيتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) وما ذا نصنع فى المحاكم الشرعية التى أصبح أكثر شغلها فى هذا الوقف وقد أوجد مشاكل ووقعت بسببه كانت حوادث كافية لزجرنا ووقفنا عن هذا الوقف ؟ والرجاء فى أهل القضاء الشرعى كبير بأن يغلقوا باب هذا الوقف ويعملوا على حل ما سجل منه ليريحوا عمال المحاكم الشرعية من كثرة اللغو فى مواده وسجلاته ويحولوا الناس إلى الوقف الخيرى الذى هداهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ به يقوى جيش الأمة المحافظ على عزتها وسيادتها وتكثر المدارس والمستشفيات والملاجئ وغيرها من المشروعات التى تحيى الأمة وتعلى شأنها .

(١) أى يمضى فى اليمين إذا كان المضاء فيها خيرا ؛ ويرجع عن اليمين ويكفرها إذا رأى فى الرجوع خيراً : فهو مع المصلحة والله تعالى يقول (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم) . ويقول : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون)

وخدم أهله ونفسه ، وحمل معهم اللبن فى بناء المسجد ، وأضاف وأضيف وحمى المريض مما يؤذيه .

وكان أحسن الناس معاملة إذا استلف سلفا قضى خيرا منه ، وإذا استلف من رجل سلفا قضاه إياه ودعا له فقال : « بارك الله فى أهلك ومالك إنما جزاء السلف الحمد والأداء »

واستلف من رجل أربعين صاعا فاحتاج الأنصارى فأتاه فقال صلى الله عليه وسلم : « ماجاءنا من شىء بعد » فقال الرجل — وأراد أن يتكلم — فقال رسول الله : « لا تقل إلا خيرا فأنا خير من تسلف » فأعطاه أربعين فضلا وأربعين سلفة فأعطاه ثمانين — ذكره البزار

واقترض بعيراً فجاء صاحبه يتقاضاه فأغلظ للنبى صلى الله عليه وسلم فهم به أصحابه فقال : دعوه فإن لصاحب الحق مقالا »

واشترى مرة شيئا وليس عنده ثمنه فأربح فيه فباعه وتصدق بالربح على بنى عبد المطلب وقال : « لا أشترى بعد ذلك شيئا إلا وعندى ثمنه » — ذكره أبو داود — وهذا لا يناقض شراء فى الذمة إلى أجل ، فهذا شىء وهذا شىء وتقاضاه غريم له دينا فأغلظ عليه فهم . عمر بن الخطاب فقال : « مه يا عمر كنت أحوج إلى أن تأمرنى بالوفاء ؛ وكان أحوج إلى أن تأمره بالصبر » . وباعه يهودى بيعا إلى أجل فجاء قبل الأجل يتقاضاه ثمنه فقال : « لم يحل الأجل ! » فقال اليهودى : إنكم لمطل يا بنى عبد المطلب افهم به أصحابه فنهاهم فلم يزده ذلك إلا حلما ؛ فقال اليهودى : كل شىء منك قد عرفته من علامات النبوة وبقيت واحدة وهى ألا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما

فأردت أن أعرفها . فأسلم اليهودى [1]

هديه صلى الله عليه وسلم فى مشيه وجلوسه واتكائه

قال أبو هريرة : مارأيت أحداً أسرع فى مشيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الأرض تطوى له وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث . وقال علىّ : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مشى تكفأ تكفيا كأنما ينحط من صبب . وأما مشيه مع أصحابه فكانوا يمشون بين يديه وهو خلفهم ويقول «دعوا ظهرى للملائكة» ولهذا فى الحديث وكان يسوق أصحابه ، وكان يمشى حافيا ومنتعلا . وكان يماشى أصحابه فرادى وجماعة ؛ ومشى فى بعض غزواته فانقطعت أصبعه وسال منها الدم فقال

«هل أنت إلا أصبع دميت * وفى سبيل الله مالقيت

وكان فى السفر ساقة أصحابه : يزجى الضعيف ويردفه ويدعو لهم . وكان يجلس على الأرض وعلى الحصير وعلى البساط . ولما قدم عليه عدىّ ابن حاتم دعاه إلى منزله فألقت إليه الجارية وسادة يجلس عليها فجعلها بينه وبين عدىّ وجلس على الأرض ، قال عدىّ : فعرفت أنه ليس بملك .

وكان يستلقى أحيانا وربما وضع إحدى رجليه على الأخرى ؛ وكان

---

(١) حسبه أنّ الله تعالى شهد له فقال : (وإنك لعلى خلق عظيم) وقال (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) ولو كانت المعاملات بين الناس على هذه الأخلاق الكريمة لما قست قلوبهم ولما زالت الثقة من بينهم ولما تداخل الأجنبى فيهم ولما احتاجوا إلى الظلم والزور وما يتبع هذا من أنواع المخاصمات الجالبة للشقاء والهموم

يتكىء على الوسادة ؛ وربما اتكأ على يساره وربما اتكأ على يمينه ، وكان إذا احتاج فى خروجه توكأ على بعض أصحابه من الضعف :

هديه صلى الله عليه وسلم فى قضاء الحاجة

كان إذا دخل الخلاء قال : « اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث الرجس النجس الشيطان الرجيم » وإذا خرج يقول « غفرانك » وكان يستنجى بالماء تارة ، ويستجمر بالأحجار تارة ، ويجمع بينهما تارة (١)

وكان إذا ذهب فى سفره للحاجة انطلق حتى يتوارى عن أصحابه ، وكان يستتر للحاجة بالهدف تارة ، وبحائش النخل تارة ، وبشجر الوادى تارة : وإذا أراد أن يبول فى عزاز من الأرض - وهو الموضع الصلب - أخذ عوداً فنكت به حتى يثرى ثم يبول ، فكان يرتاد لبوله الموضع الدمث - وهو اللين الرخو من الأرض - وأكثر ما كان يبول وهو قاعد

وقد روى مسلم من حديث حذيفة أنه بال قائما - فعل هذا لما أتى

---

(١) هذا الاستنجاء تراه فى كتب الفقه المعلومة مكتوبا فى عدّة صفحات ومشروطا فيه عدّة شروط لايصح إلا بها عند أصحاب تلك الكتب ولا حاجة إليها لأنه أمر فطرى يهتدى الناس إليه بالفطرة حتى إنك لتجد الذين لايتدينون يفعلونه . فالرسول بفعله بين أنّ الإنسان يغسل أو يمسح . والغرض إزالة مافيه من القذر الذى تهدى الفطرة إلى إزالته فلم يزد بيانه على سطر : وإذا كان المؤلفون فى الفقه يشددون فى كيفية هذا الأمر الفطرى فكيف غيره مما شددوا فيه حتى نفروا الناس منه ! وليس وراء هذا إلا اختلاف المؤلفين بين محلل ومحرم وموجب ومجوز والناس لا يعرفون من يتبعون وهم على كل حال ضالون لا يهتدون إلا بهدى الرسول الذى هو متفق عليه وليس لأحد رأى فيه .

سباطة قوم - وهو ملقى الكناسة - ويسمى المزبلة وهى تكون مرتفعة فلو بال فيها الرجل قاعداً لارتد عليه بوله وهو صلى الله عليه وسلم استتر بها وجعلها بينه وبين الحائط فلم يكن بد من بوله قائما . وكان يخرج من الخلاء فيقرأ القرآن ، وكان يستنجى ويستجمر بشماله ، ولم يكن يصنع شيئا مما يصنعه المبتلون بالوسواس من نثر الذكر والنحنحة .

قال أبو جعفر العقيلى : وكان إذا سلم عليه أحد وهو يبول لم يرد عليه ذكره مسلم فى صحيحه عن ابن عمر ، وروى البزار فى مسنده فى هذه القصة أنه رد عليه . ثم قال : «إنما رددت عليك خشية أن تقول سلمت عليه فلم يرد على سلاماً ، فإذا رأيتنى هكذا فلا تسلم على فإنى لا أرد عليك السلام وكان إذا استنجى بالماء ضرب يده بعد ذلك على الأرض . وكان إذا جلس لحاجته لم يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض .

هديه صلى الله عليه وسلم فى الفطرة والنظافة

كان يعجبه التيمن فى تنعله وترجله وطهوره وأخذه وعطائه ، وكانت يمينه لطعامه وشرابه وطهوره ، ويساره لخلائه ونحوه من إزالة الأذى

وكان هديه فى حلق الرأس : تركه كله ، أو أخذه كله ، وكان يقص شاربه . روى الترمذى : «من لم يأخذ من شاربه فليس منا» وقال حديث صحيح ، وفى صحيح مسلم : « قصوا الشوارب وارخوا اللحى ، خالفوا المجوس » ، وفى الصحيحين : « خالفوا المشركين ووفروا اللحى وأحفوا الشوارب »[1] وكان يحب الطيب ويكثر التطيب . وقالت طائفة : كان

(١) من الشبان فى هذا العصر من يحلقون شاربهم من جانبيه ويبقون وسطه

صلى الله عليه وسلم مما يكثر التطيب قد احمرّ شعره فكان يظنّ مخضوبا ولم يخضب .

قيل لجابر بن سمرة : أكان فى رأس النبى صلى الله عليه وسلم شيب ؟ فقال . لم يكن إلا شعرات فى مفرق رأسه إذا ادهن واراهن الدهن ، وفى البخارى أنه كان لايردّ الطيب . وفى مسلم . «من عرض عليه ريحان فلا يردّه فإنه طيب الريح خفيف المحمل» . وفى سنن أبى داود والنسائى : «من عرض عليه ريح فلا يردّه فإنه خفيف المحمل طيب الرائحة» .

وفى مسند البزار «إن الله طيب يحب الطيب ؛ نظيف يحب النظافة ؛ كريم يحب الكرم ؛ جواد يحب الجود ؛ فنظفوا أفنيتكم وساحاتكم ولا تشبهوا باليهود يجمعون الأكب — الزبالة — فى دورهم» .

وصح عنه «إنّ لله حقاً على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام ؛ وإن كان له طيب أن يمس منه (١)» . وكان يحب السواك ويستاك مفطراً وصائما

وهذا نشأ من تربيتهم على عادة الأجنبى الذى يرونه فى نظرهم عظيما يحترمون عادته ويحتقرون عادة أمتهم ، فهلا سابقوا الأجنبى فى الصناعات والمكتشفات العلمية النافعة أو ليس واجبا عليهم — وهم طلاب الاستقلال — أن يرتبطوا بأمتهم ولا يندمجوا فى عدوهم ؟ !

(١) هذه النظافة هى مظهر الإيمان ولكن يوجد ناس يدّعون الإيمان وهم يحبون الوساخة ويألفون القذر ويقولون : هذا تواضع لله وأكبر من ذلك أنّ الشخص القذر يسمونه وليا لله ويعتقدون فيه البركة ! وكثيراً ما اتخذ الناس أولياء لأنهم أهل قذر وبلاهة ! فكأنّ البركة والولاية لا تعرف إلا بذلك مع أن الله يقول : (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات)

وعند الانتباه من النوم : وعند الوضوء . وعند الصلاة وعند دخول المنزل ؛ وكان يستاك بعود الأراك .

وفى الصحيحين : «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» وفى البخارى تعليقاً . «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب» والأحاديث فيه كثيرة ، وفيه عدة منافع : يطيب الفم ويشد اللثة ويذهب بالحفر ، وينشط للقراءة والذكر . ويستحب فى كل وقت ويتأكد عند الصلاة والوضوء وتغير رائحة الفم ، ويستحب للمفطر والصائم فى كل وقت ، لعموم الأحاديث فيه ولحاجة الصائم إليه . فى السنن عن عامر بن ربيعة قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مالا أحصى يستاك وهو صائم ، وقال البخارى قال ابن عمر : يستاك أول النهار وآخره .

وأجمع الناس على أن الصائم يتمضض وجوبا واستحبابا ، والمضمضة أبلغ من السواك ، وليس لله غرض فى التقرب إليه بالرائحة الكريهة ولا هى من جنس ماشرع التعبد به ؛ وإنما ذكر طيب الخلوف عند الله يوم القيامة حثا منه على الصوم لاحثا على إبقاء الرائحة (١) . والسواك لايمنع الخلوف عند الله يوم القيامة بل يأتى الصائم وخلوف فمه أطيب من المسك علامة على صيامه ، كما أن الجريح يأتى يوم القيامة ولون دمه لون الدم وريحه ريح المسك وهو مأمور بإزالته فى الدنيا ، وأيضا فإن الخلوف لايزول بالسواك لأن سببه قائم وهو خلو المعدة عن الطعام ،

---

(١) غرضه الرد على الذين يقولون إن السواك مكروه للصائم بعد الزوال لحديث : « لخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك »

وإنما يزول أثره وهو المنعقد على الأسنان واللثة ، وأيضا فإن النبي صلى الله عليه وسلم علم أمته مايستحب لهم فى الصيام وما يكره ولم يجعل السواك من القسم المكروه وهو يعلم أنهم يفعلونه وقد حضهم عليه بأبلغ ألفاظ العموم والشمول وهم يشاهدونه يستاك وهو صائم مراراً كثيرة وهو يعلم أنهم يقتدون به ولم يقل لهم يوما : لاتستاكوا بعد الزوال . وتأخير البيان عن وقت الحاجة ممتنع . والله أعلم

هديه صلى الله عليه وسلم فى كلامه وسكوته وضحكه وبكائه

كان أفصح خلق الله وأعذبهم كلاما : قالت عائشة : ما كان يسرد سردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام يبينه فصل يحفظه من جلس إليه . وكان كثيرا مايعيد الكلام ثلاثا ليعقل عنه . وكان طويل السكوت لايتكلم فى غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلم ، لا يتكلم فيما لايعنيه ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، وإذا كره الشيء عرف فى وجهه ، ولم يكن فاحشا ولامتفحشا ولاصخابا ، وكان ضحكه التبسم . فنهاية ضحكه أن تبدو نواجذه ، وكان يضحك مما يضحك منه وبكاؤه لم يكن بشهيق ورفع صوت ، كما لم يكن ضحكه بقهقهة ولكن كان تدمع عيناه حتى تهملا ويسمع لصدره أزيز ، وكان بكاؤه تارة رحمة للميت ، وتارة خوفا على أمته وشفقة ، وتارة من خشية الله ، وتارة عند سماع القرآن ، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال مصاحبة للخوف والخشية ولما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه وبكى رحمة له وقال : « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا مايرضى ربنا ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون »

وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض ، وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء وانتهى إلى قوله تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ وبكى لما كسفت الشمس وصلى صلاة الكسوف وجعل يبكى فى صلاته ، وكان يبكى أحيانا فى صلاة الليل

هديه صلى الله عليه وسلم فى خطبته

خطب على الأرض ؛ وعلى المنبر ، وعلى البعير ، وعلى الناقة . وكان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش .

وكان يقول : « أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » .

وكان لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله . وأما قول كثير من الفقهاء إنه يفتتح خطبة الاستسقاء بالاستغفار وخطبة العيد بالتكبير فليس معهم فيه سنة عن النبى صلى الله عليه وسلم البتة ، وسنته تقتضى خلافه وهو افتتاح جميع الخطب بالحمد لله ، وكان يخطب قائما . وفى مراسيل عطاء وغيره أنه كان إذا صعد المنبر أقبل بوجهه على الناس ثم قال : « السلام عليكم » قال الشعبى : وكان أبو بكر وعمر يفعلان ذلك . وكان يختم خطبته بالاستغفار ؛ وكان كثيرا ما يخطب بالقرآن . وفى صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة قالت : ما أخذت ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلا عن لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس . وذكر أبو داود أنه كان إذا تشهد قال : والحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ

بالله من شرور أنفسنا ؛ من يهد الله فلامضلّ له ومن يضلل فلاهادى له ، وأشهد أن لاإله إلا الله وأنّ محمداعبده ورسوله أرسله بالحق بشيراونذيرا بين يدى الساعة ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فإنه لايضر إلا نفسه ولايضرّ الله شيئا» .

وكان مدار خطبه صلى الله عليه وسلم على حمد الله والثناء عليه بآلائه وأوصاف كماله ، وتعليم قواعد الإسلام وذكر الجنة والنار والمعاد والأمر بتقوى الله وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه .

وكان يخطب فى كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم (١) ولم يكن يخطب خطبة إلا ويتشهد فيها بكلمتى الشهادة ويذكر فيها نفسه باسمه العلم .

وكان يتكئ فى خطبته على عصا أحيانا ؛ وعلى قوس أحيانا ؛ ويقصر الخطبة أحياناً ، ويطيلها أحيانا بحسب حاجة الناس .

وكان يخطب للنساء على حدة فى الأعياد ويحرّضهنّ على الصدقة .

---

(١) انظر خطبته فى الجمعة ؛ وليعتبر بذلك الخطباء الذين لا يهمهم إلا سجع الكلام وتعقيده والذين يتمسكون بدواوين الخطب القديمة التى لا تراعى الزمان ولا المكان ولا حالة المخاطبين ؛ وعليهم أن يقولوا ما يفهمه العوام ويؤثر فى نفوسهم وليتبعوا طريقة نبيهم صلى الله عليه وسلم فى بناء الخطبة على القرآن الذى فيه أعظم هداية وأكبر عظة وأقوى تأثير ، وليفسروا كل آية يقرأونها وكل حديث يروونه وليعلموا أنّ صلاح الأمة موقوف على صلاحهم وصلاح وعظهم وهم مسئولون أمام الله تعالى عن كل خطبة يخطبونها ولهم من الأجر بمقدار ما يتأثرون ويتأثر الناس بوعظهم . أصلح الله شأننا أجمعين ووفقنا الخطب النافعة لتنبيه المسلمين .

قسم العبادات

هديه صلى الله عليه وسلم فى الوضوء

كان يتوضأ لكل صلاة فى غالب أحيانه ، وربما أدى الصلاة بوضوء واحد ، وكان يتوضأ بالمد تارة وبثلثيه تارة وبأزيد منه تارة .

وكان يحذر أمته من الإسراف بقوله : « إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء » وصح عنه أنه توضأ مرة مرة ، ومرتين مرتين ، وثلاثا ثلاثا ، وبعض الأعضاء مرتين وبعضها ثلاثا . وكان إذا كرر غسل الأعضاء أفرد مسح الرأس ؛ ولم يصح عنه أنه اقتصر على مسح بعض رأسه ؛ بل كان إذا مسح بناصيته كمل على العمامة . وكان يمسح على رأسه تارة ؛ وعلى العمامة تارة ، وعلى الناصية والعمامة تارة . ولم يتوضأ إلا تمضمض واستنشق ، ولم يحفظ عنه أنه أخل به مرة واحدة . وكان يتمضمض ويستنشق تارة بغرفة ، وتارة بغرفتين ، وتارة بثلاث ، وكان يصل بينهما فيأخذ نصف الغرفة لفمه ونصفها لأنفه كما فى الصحيحين من حديث عبد الله ابن زيد . وكان يستنشق بيده اليمنى ويستنثر باليسرى ، وكان يمسح أذنيه مع رأسه ظاهرهما وباطنهما ، ولم يثبت عنه أنه أخذ لهما ماء جديداً وإنما صح ذلك عن ابن عمر . وكان يغسل رجليه إذا لم يكونا فى خفين ولا جوربين ، ويمسح عليهما إذا كانا فى الخفين — وصح عنه المسح على الخفين فى الحضر والسفر ولم ينسخ ذلك حتى توفى — ووقت للمقيم يوماً وليلة وللمسافر ثلاثة أيام ولياليهن . فى عدة أحاديث حسان وصحاح .

وكان يمسح ظاهر الخفين ومسح على الجوربين والنعلين (١) .

---

(١) هذا العمل يبين قول الله تعالى : (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) فعلى قراءة وأرجلكم بفتح اللام تكون معطوفة على الأعضاء المغسولة — فى قوله فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق — وعلى قراءتها بكسر اللام تكون معطوفة على العضو الممسوح فى قوله : (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم) فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يغسل الرجلين إذا كانتا مكشوفتين ويمسح عليهما إذا كانتا مستورتين بنعل أو جورب أو غيره فلا يتكلف الناس خلع ما فى الرجل ، وفى ذلك ما فيه من السهولة التى ترغب كثيرمن الناس فى العبادة . ولا يخفى أنّ فى كتب الفقه يشترطون فى الجورب والخف شروطا لا يصح المسح عليه إلا بها ولا حاجة إليها لأنّ الرسول ما خصص الجورب بشروط ولا خصص الخف أو النعل بعلامات بل ترك كل منها على حسب اسمه وشكله ونوعه فى أى زمن من الأزمان ، والحكمة معروفة فلا معنى للتشديد فى الدين باشتراط ما لم يشترطه الله ورسوله : انظر هديه فى الصلاة بالنعل .

وقد رتب صلى الله عليه وسلم فى الوضوء كما رتبه الله تعالى فى الآية : وجعل غسل الفم والأنف من الوجه كما جعل مسح الأذنين مع الرأس .

وفى الآية من نواقض الوضوء شيئان : (جاء أحدمنكم من الغائط أو لامستم النساء) والغائط هو مكان قضاء الحاجة - ونسميه الكنيف والمرحاض وبيت الراحة والخلاء - وهو كناية عما يخرج من مخرجى الإنسان ، كما أنّ قوله : « أولامستم النساء » كناية عما يكون بين المرء وزوجه . فهذان الشيئان متفق على أنهما ينقضان الوضوء .

وقد ذكر الله سبحانه فى الآية الطهر من الجنابة حيث قال : (وإن كنتم جنبا فاطهروا) وكان هدى النبي صلى الله عليه وسلم فى الغسل من الجنابة أنه يبدأ فيغسل أعضاء الوضوء ثم يعمم جسده بالماء بادئا بأعلاه ويمناه . وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من

وكان وضوؤه مرتباً متوالياً لم يخل به مرة واحدة ، ولم يواظب على تخليل لحيته وأصابعه ، ولم يقل على وضوئه شيئا غير التسمية فى أوله والتشهد فى آخره . ولم يثبت أنه تجاوز المرفقين والكعبين فى غسلهما وأما تنشيف الأعضاء فقد قال الترمذى : لا يصح فى هذا الباب شىء عنه صلى الله عليه وسلم .

وكان تارة يصب الماء على نفسه وتارة يعاونه غيره ، كما فى حديث المغيرة ابن شعبة أنه صب عليه فى السفر لما توضأ — خرجه الصحيحان .

هديه صلى الله عليه وسلم فى التيمم

كان يتيمم بضربة واحدة للوجه والكفين ، ولم يصح عنه أنه تيمم بضربتين ولا إلى المرفقين . قال الإمام أحمد : من قال إن التيمم إلى المرفقين فإنما هو شىء زاده من عنده .

وكان يتيمم بالأرض التى يصلى عليها ، ترابا كانت أو سبخة أو رملا .

وصح عنه أنه قال : « حيثما أدركت رجلا من أمتى الصلاة فعنده مسجده وطهوره » . ولم يتيمم لكل صلاة ويأمر بذلك بل أطلق وجعله قائما مقام الوضوء (١)

إناء واحد (وفى رواية النسائى قالت) : فنشرع فيه جميعا فأفيض على رأسى يدى ثلاث مرات وما أنقض لى شعرا »

وقد جئت بالغسل هنا لمناسبة ذكره فى الآية مع الوضوء ولم يذكر له باب فى زاد المعاد

(١) يقوم التيمم مقام الوضوء والاغتسال من الجنابة عند فقد الماء وفى حالة

هديه صلى الله عليه وسلم فى الصلاة [١]

كان إذا قام إلى الصلاة قال : « الله أكبر » ولم يقل شيئا قبلها ولا يلفظ

المرض أو السفر قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا . وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إنّ الله كان عفوّا غفورا) وقال فى الآية الأخرى : (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) .

(١) من فوائد الصلاة أنها تربى الناس على النظام والنشاط وتعوّدهم حفظ المواعيد والأوقات وتريهم كيف أنّ الاتحاد فى الصف يساعده على الاتحاد فى القلوب والصف فى الحرب ، زد على ذلك النظافة والطهارة التى تصبح بتعوّد الصلاة خلقا وطبيعة فى النفس ، ولا تنس وجود المرء فى جماعة المصلين فإنه بهذا يشعر دائما أنه قوى بإخوانه ويألف الجماعة التى هى أساس التعاون على كل خير .

وفوق هذه الفوائد فائدة اتصال العبد بربه بالوقوف بين يديه يتلو آياته ويتدبرها ويقوم ويجلس ويفعل كل أمور الصلاة وهو يعلم أنّ الله تعالى مراقبه ومطلع عليه فيتربى فى نفسه الخوف من الله تعالى وحب إرضائه ؛ وبالمحافظة على الصلاة بهذا الشكل تكون النتيجة منها أنها تبعد صاحبها عن المنكرات قال تعالى (وأقم الصلاة إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون) .

فبالصلاة تصلح الأخلاق وتنظف الأجسام والأثواب والأمكنة ويكون النشاط والنظام والتعاون وتتأصل كل مبادئ الخير فى النفس وبها يستعين الناس على كل عمل من أعمال الدنيا ، ويستعدّون للقيام بكل شأن من شؤون الاجتماع قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون — ولهذا لا يستغنى عنها عامل فى هذه الحياة ، وقد تركها بعض الناس لما جهل حكمتها وفهم أنها عبارة عن حركات

لا معنى لها ورأى كثيراً من المصلين لم تتحسن أخلاقهم ولم تنظف أجسامهم ولم يتعودوا نظاما ولا محافظة على موعد ، وفات هذا الجاهل أنّ هؤلاء المصلين هم الذين قال الله تعالى فيهم : (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون) فهم يصلون ولكن لا يعلمون معنى للصلاة لأنهم ورثوها بالتقليد عن آبائهم أو لقنوها تلقينا جافا بعدد الشروط والأركان من غير أن يتدبروا ما فيها من القرآن ويعتبروا بما فيها من التكبير والتسبيح وحركات القيام والجلوس والركوع والسجود فجهلهم بكل هذا وإعراضهم عنه جعلهم ساهين عن الصلاة لا يخشعون ولا يفلحون قال تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون » وحكمة مجيء اللغو هنا الإعلان بأنّ الصلاة التى لا خشوع فيها تكون لغوا لا قيمة لها ولا ينتظر إصلاح منها .

هذا وإنّ حكمة التوقيت فى الصلاة هى أنّ الناس كلما اشتغلوا فى الدنيا وقتا رجعوا إلى الصلاة وقتا ليمسحوا ما علق بنفوسهم من وسخ الجرّو يحصنوها بذكر الله فيعدّوها الإحسان والتقوى فى العمل ، وهكذا فلا تتمكن مشاغل الدنيا من نفوسهم ولا يتغلب عليها ما يحيط بها من رداءة البيئة وسوء المخالطين والمعاشرين. ولهذا كانت الصلاة بمواقيت وكانت المحافظة عليها ضرورة لكل إنسان وكل من يقيمها كما يريد الله تعالى منها يكون مستعدّا بها لإقامة كل ما فيه سعادته الدنيوية والأخروية . فليفهم هذا أهل عصرنا الذين يريدون إصلاح الأمّة واتحاد أفرادها وتعديل أخلاقها ؛ وليعلموا أنّ حكمة الله فى الصلاة — كحكمته فى كل عبادة — هى الوصول إلى توحيد الأعمال والحركات التى تتوحد بها الأعمال والمقاصد .

هذا وإنّ أوقات الصلاة ذكرها الله تعالى فى القرآن مع ما فيها من القيام والقراءة والركوع والسجود والتسبيح فقال تعالى : (إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) وقال تعالى : (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهودا) وقال تعالى : (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إنّ الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين . (وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم

بالنية ألبتة ، ولا قال : أصلى لله صلاة كذا مستقبل القبلة أربع ركعات إماما أو مأموماً ، ولا قال أداء ولا قضاء ولا فرض الوقت ، وهذه عشر بدع لم ينقل عنه أحد قط — بإسناد صحيح ولا ضعيف ولا مسند ولا مرسل — لفظة واحدة منها ألبتة ، بل ولا عن أحد من أصحابه ولا استحسنه أحد من التابعين ولا الأئمة الأربعة .

وكان يرفع يديه مع التكبير ممدودة الأصابع إلى المنكبين أو الأذنين ، ثم يضع اليمنى على ظهر اليسرى .

وكان يستفتح تارة بـ : « اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب» ، وتارة يقول : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » — « إنّ صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم) . وقال تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون) . وقال تعالى : (والعصر إنّ الإنسان لفى خسر) . وقال تعالى : (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وإدبار السجود) وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) . وقال تعالى : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) : وقال تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) فالصلوات هى الخمس ، والوسطى : هى المعتدلة بالخشوع والتدبر ؛ والرسول صلى الله عليه وسلم بين المراد من ذلك كله بفعله الذى يثبت الصلاة فى النفوس ويجعلها محفوظة بالتواتر العملى ، جعلنا الله تعالى من المحافظين عليها والخاشعين فيها .

وذكر أصحاب السنن أنه كان يقول فى استفتاحه : « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك » . وصح عن عمر أنه كان يستفتح به فى مقام النبى ويجهر به ويعلمه الناس .

وكان يقول بعد ذلك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويجهر ببسم الله الرحمن الرحيم تارة ويخفيها تارة أخرى ؛ ثم يقرأ الفاتحة يقف عند كل آية ويمد بها صوته . فإذا فرغ من الفاتحة — وكان جاهراً بها — جهر بآمين ورفع بها صوته وقالها من خلفه .

وكان له سكتتان : سكتة بعد التكبيرة وسكتة بعد الفاتحة ؛ ثم يأخذ فى قراءة سورة يطيلها أحيانا ويقصرها لعارض من سفر أو غيره ويتوسط فيها غالبا ، وكانت قراءته فى الفجر أطول من غيرها ؛ وكان يصليها يوم الجمعة بسورة الم (السجدة) وهل أتى على الإنسان ، لما اشتملتا عليه من ذكر المبدإ والمعاد وخلق آدم ودخول الجنة والنار وغير ذلك مما كان ويكون فى يوم الجمعة تذكيرا للأمة بحوادث هذا اليوم كما كان يقرأ فى المجامع العظام كالأعياد والجمعة ، سورة ق . واقتربت . وسبح . والغاشية .

وكان لا يعين سورة فى الصلاة بعينها لا يقرأ إلا بها إلا فى الجمعة والعيدين وأما فى سائر الصلوات فقد ذكر أبو داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : مامن المفصل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤمّ الناس بها فى الصلاة المكتوبة

وكان يطيل الركعة الأولى على الثانية . وكان إذا فرغ من القراءة سكت بقدر ما يترادّ إليه نفسه ثم رفع يديه وكبر راكعا ووضع كفيه على

ركبتيه كالقابض عليهما . ووتر يديه فنحاهما عن جنبيه . وبسط ظهره ولم ينصب رأسه ولم يخفضه بل يجعله معادلا لظهره ، وكان يقول : سبحان ربى العظيم : وتارة يزيد سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفرلى

وكان ركوعه مقدار عشر تسبيحات وسجوده كذلك

روى أهل السنن عن أنس : ماصليت وراء أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا هذا الفتى — يعنى عمر بن عبدالعزيز — فحزرنا فى ركوعه عشر تسبيحات وفى سجوده عشر تسبيحات

ثم كان يرفع رأسه بعد ذلك قائلا : سمع الله لمن حمده ، ويرفع يديه . وروى رفع اليدين عنه فى هذه المواطن الثلاثة نحو من ثلاثين نفساً . واتفق على روايتها العشرة ، ولم يثبت عنه خلاف ذلك البتة

وكان إذا استوى قائما قال : ربنا ولك الحمد ، وربما قال : ربنا لك الحمد ؛ وربما قال : اللهم ربنا لك الحمد ، صح ذلك عنه . وأما الجمع بين اللهم والواو فلم يصح . وكان من هديه إطالة هذا الركن بقدر الركوع والسجود ؛ فصح عنه أنه كان يقول : سمع الله لمن حمده ؛ اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ماشئت من شيء بعد ؛ أهل الثناء والمجد أحق ماقال العبد وكلنا لك عبد ؛ لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد . وصح عنه أنه قال : اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد ؛ ونقنى من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ؛ وباعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب .

ثم كان يكبر ويخرّ ساجدا ولا يرفع يديه ويضع ركبتيه قبل يديه ؛ ثم يضع يديه ؛ ثم جبهته وأنفه . هذا هو الصحيح الذى رواه شريك عن عاصم ابن كليب عن أبيه عن وائل بن حجر : رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سجد وضع ركبتيه قبل يديه ، وإذا نهض رفع يديه قبل ركبتيه ولم يرو فى فعله مايخالف ذلك

وكان إذا سجد مكن جبهته وأنفه من الأرض ونحى يديه عن جنبيه وجافى بهما ووضعهما حذو منكبيه وأذنيه - وفى صحيح مسلم : « إذا سجدت فضع كفيك وارفع مرفقيك »

وكان يعتدل فى سجوده ، ويستقبل بأطراف أصابع رجليه القبلة

وكان يبسط كفيه وأصابعه ، ولا يفرج بينهما ولا يقبضهما . وفى صحيح ابن حبان : كان إذا ركع فرج أصابعه فإذا سجد ضم أصابعه

وكان يقول : سبحان ربى الأعلى ؛ سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ؛ اللهم اغفرلى . ويقول : « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ؛ وبمعافاتك من عقوبتك ؛ وأعوذ بك منك ؛ لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك

ويقول : اللهم اغفر لى جدّى وهزلى وخطئى وعمدى وكل ذلك عندى . اللهم اغفرلى ماقدّمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ؛ أنت إلهى لاإله إلا أنت .

وأمر بالاجتهاد فى الدعاء فى السجود - والدعاء نوعان : دعاء ثناء ودعاء مسألة - والنبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يكثر فى سجوده من النوعين

و كان إذا أطال القيام أطال الركوع والسجود ، وإذا خفف القيام خفف الركوع والسجود

وكان يرفع رأسه مكبراً ثم يجلس مفترشاً رجله اليسرى ناصباً اليمنى ، واضعاً يديه على فخذيه ، جاعلا مرفقه على فخذه ، وطرف يده على ركبتيه ثم يقبض ثنتين من أصابعه ويحلق حلقة ثم يرفع أصبعه يدعو بها ويحركها هكذا قال وائل بن حجر فى الحديث الصحيح الذى ذكره أبو حاتم .

وكان يجلس بين السجدتين بقدر السجود ويقول : اللهم اغفر لى وارحمنى واجبرنى واهدنى وارزقنى ، وكان ينهض على صدور قدميه وركبتيه معتمداً على فخذيه ، ولا يعتمد على الأرض بيديه .

وكان إذا نهض أخذ فى القراءة من غير سكتة ، ثم يقصر الركعة الثانية عن الأولى ، فإذا جلس للتشهد وضع يده اليسرى على فخذه اليسرى ، ووضع يده اليمنى على فخذه اليمنى وأشار بأصبعه السبابة وكان يحنيها ويحركها وكان يقبض أصبعين — وهما الخنصر والبنصر — ويحلق بالوسطى مع الإبهام ويرفع السبابة يدعو بها ويرمى ببصره إليها ويبسط الكف اليسرى على الفخذ اليسرى ، وكان يفترش — كما تقدم . ففى الصحيحين من حديث أبى حميد — فإذا جلس فى الركعتين جلس على رجله اليسرى ونصب الأخرى ، وإذا جلس فى الركعة الأخيرة قدم رجله اليسرى ونصب اليمنى وقعد على مقعدته .

وكان يقول فى هذه الجلسة ويعلم أصحابه : التحيات لله والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى

عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وكان يخفف هذا التشهد جداً ثم ينهض مكبراً رافعاً يديه .

ولم يثبت أنه زاد فى القراءة عن الفاتحة بعد الركعتين الأوليين .

ثم إذا جلس للتشهد الأخير زاد على التشهد الأول الصلاة عليه وآله واستعاذ من عذاب القبر والنار ، ومن فتنة المحيا والممات ، والمسيح الدجال .

ثم كان يسلم عن يمينه : السلام عليكم ورحمة الله ، وعن يساره كذلك

وكان إذا قام فى الصلاة طأطأ رأسه - ذكره الإمام أحمد - ولم يغمض عينيه بل كان ينظر إلى محل سجوده ، وكان فى التشهد لا يجاوز بصره إشارته وقد جعلت قرة عينه فى الصلاة . فكان يقول : أرحنا بالصلاة يا بلال ، وكان يدخل فى الصلاة وهو يريد إطالتها فيسمع بكاء الصبي فيخففها مخافة أن يشق على أمه ، وكان يصلى وهو حامل أمامة بنت أبى العاص بن الربيع ابنة بنته على عاتقه إذا قام حملها وإذا ركع وسجد وضعها ، وكان يجىء الحسن أو الحسين فيركب ظهره . فيطيل السجدة كراهية أن يلقيه عن ظهـــره .

أرسل مرة فارساً طليعة له فقام يصلى وجعل يلتفت إلى الشعب الذى يجىء منه الفارس ولكن لم يشغله كل ذلك عن مراعاة أحوال المأمومين وغيرهم مع كمال إقباله وقربه من الله تعالى وحضور قلبه بين يديه .

وكان يصلى فتجىء عائشة من حاجتها والباب مغلق فيمشى فيفتح لها الباب ثم يرجع إلى الصلاة .

وكان يرد السلام بالإشارة على من يسلم عليه وهو فى الصلاة قال جابر

بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة ثم أدركته وهو يصلى فسلمت عليه فأشار إلىّ . ذكره مسلم فى صحيحه . وفى السنن والمسند من حديث ابن عمر أنه كان يشير بيده . وقال عبدالله بن مسعود : لما قدمت من الحبشة أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فسلمت عليه فأومأ برأسه : ذكره البيهقى .

وكان يصلى وعائشة معترضة بينه وبين القبلة ، فإذا سجد غمزها بيده فقبضت رجلها وإذا قام بسطتها

وكان يصلى على المنبر ويركع عليه ، فإذا جاءت السجدة نزل القهقرى فسجد على الأرض ثم صعد .

وكان يصلى إلى جدار فجاءه بهيمة تمرّ من بين يديه فما زال يداريها ويدافعها حتى لصق بطنه بالجدار ومرّت من ورائه .

وروى الإمام أحمد وغيره أنه رأى جاريتين تقتتلان فأخذهما بيده ونزع إحداهما من الأخرى وهو فى الصلاة ولم ينصرف .

وكان يبكى فى صلاته ويتنحنح ، قال علىّ بن أبى طالب كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة آتيه فيها فإذا أتيته استأذنت ، فإن وجدته يصلى تنحنح دخلت ، وإن وجدته فارغا أذن لى ، ذكره أحمد والنسائى

وكان يصلى حافياً تارة ومنتعلا أخرى . وأمر بالصلاة بالنعل مخالفة لليهود (١) . وكان يقنت عند النوازل خاصة للدعاء لقوم وللدعاء على

---

(١) طالما تكلم الفقهاء فى مبطلات الصلاة وعدوا قصد التنحنحة والإشارة من المبطلات : فماذا يقولون فى أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم التى مشى فيها وفتح الباب وتنحنح وأشار ليرد السلام وحمل الأولاد وصلى بهم إلى غير هذا

آخرين . فإذا زال العارض ترك القنوت . ذكره البخارى ومسلم . وفيه أنه كان يقنت فى الفجر والمغرب . وذكر الإمام أحمد عن ابن عباس : قنت رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً متتابعاً فى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح فى دبر كل صلاة إذا قال سمع الله لمن حمده من الركعة الأخيرة يدعو على حىّ من بنى سليم ويؤمّن من خلفه . وقد ذكره أبو داود وغيره أيضاً ، هذا الذى صح فى قنوته المقيد بالعوارض والطوارئ ، وأما ماورد من القنوت الدائم فإنما المقصود منه الدعاء والثناء الذى يذكر فى الوقوف لتطويله بعد الرفع من كل ركوع .

هديه صلى الله عليه وسلم فى سجود السهو

ثبت عنه : «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكرونى»

وقد سها مراراً : فسجد سجدتين فى بعضها قبل السلام ، وفى بعضها الآخر

ماذكر ؟ أليس هذا هو الذى يصح أن يكون دين الفطرة الذى لا حرج فيه ؟ ! هذا وإن بعض الناس ينكر على من يصلون بالنعل وهذا من الجهل بالدين وقد ترك العلماء الرسميون كثيرا من السنن فإذا جاء من يحييه قالوا جاء بدين جديد ! ! والناس إذا لم يألفوا شيئا من الدين كان فعله بدعة فى نظرهم ؛ وما الصلاة بالنعل بدعة . وقد فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بها كما فى البخارى وغيره من كتب السنة حتى قال أهل التفسير المأثور فى قوله تعالى : (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) إن من الزينة لبس النعل فى الصلاة ؛ ولا يمنع من الصلاة بالنعل تعرضه للنجاسة فإنه يطهر بالمسح فى الأرض . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا جاء أحدكم إلى المسجد فليقلب نعليه ولينظر فيهما فإن رأى خبثاً فليمسحه بالأرض ثم ليصل فيهما» رواه أحمد وأبو داود . وفى رواية : «إذا وطئ أحدكم بنعله الأذى فإن التراب له طهور» رواه أبو دواد

بعد السلام ، ففى الصحيحين من حديث عبد الله بن بحينة أنه صلى الله عليه وسلم قام من اثنتين من الظهر ولم يجلس بينهما . فلما قضى صلاته سجد سجدتين ثم سلم ، وفى رواية متفق عليها : يكبر فى كل سجدة وهو جالس قبل أن يسلم .

وسلم من ركعتين فى إحدى صلاتى العشى — الظهر أو العصر ثم تكلم ثم أتمها ؛ ثم سجد سجدتين بعد السلام .

وصلى يوماً فسلم وانصرف وقد بقى من الصلاه ركعة فأدركه طلحة فرجع فدخل المسجد وأمر بلالا فأقام فصلى بالناس ـ ذكره الإمام أحمد ـ وصلى الظهر خمساً فقيل له ؟ فسجد سجدتين بعد ماسلم . متفق عليه .

وصلى العصر ثلاثا ثم دخل منزله فذكره الناس فخرج فصلى بهم ركعة ثم سلم ، ثم سجد سجدتين ثم سلم . هذا مجموع ماحفظ عنه صلى الله عليه وسلم من سهوه فى الصلاة وهو خمسة مواضع

هديه صلى الله عليه وآله وسلم بعد تمام الصلاة

كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً وقال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام . ولم يمكث مستقبلا القبلة إلا بمقدار مايقول ذلك ، بل يسرع الانتقال إلى المأمومين . قال ابن مسعود : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ينصرف عن يساره ، خرجه الصحيحان : وقال أنس : عن يمينه ، خرجه مسلم . وقال عبد الله بن عمر : رأيته ينفتل عن يمينه ويساره فى الصلاة . ثم كان يقبل على المأمومين بوجهه ولا يخص ناحية منهم دون ناحية .

وكان يقول دبر كل مكتوبة : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . وذكر ابن حبان فى صحيحه أنه أمر بها عشراً . وروى أبو حاتم فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول عند انصرافه من صلاته : اللهم أصلح لى دينى الذى جعلته عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى جعلت فيها معاشى ، اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من نقمتك ، وأعوذ بك منك ، لامانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

وأوصى معاذاً أن يقول فى دبر كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك . ودبر الصلاة يحتمل أن يكون قبل السلام وبعده ، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية يرجح قبل السلام ويقول : دبر كل شيء منه كدبر الحيوان .

هديه صلى الله عليه وسلم فى اتخاذ السترة فى الصلاة

كان إذا صلى إلى جدار لم يتباعد منه ، وكان إذا صلى إلى عود أو عمود أو شجرة جعله على حاجبه الأيمن أو الأيسر ؛ وكان يركز الحربة فى السفر والبرية فيصلى إليها فتكون سترته .

هديه صلى الله عليه وآله وسلم فى السنن والرواتب

كان يحافظ على عشر ركعات فى الحضر دائماً ، كما قال ابن عمر حفظت من النبى صلى الله عليه وآله وسلم عشر ركعات : ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب فى بيته ، وركعتين بعد العشاء فى بيته وركعتين قبل صلاة

الصبح . روى فى الصحيح . وعن حفصة وابن عمر كان يصلى بعد الجمعة فى بيته خرجه الصحيحان . وكان هديه فعل السنن والتطوع فى البيت إلا لعارض ، كما أن فعل الفرائض فى المسجد إلا لعارض ويؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « أيها الناس صلوا فى بيوتكم فإن أفضل صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة »

وكان تعاهده لسنة الفجر والوتر أشد حتى إنه لم ينقل عنه صلاة راتبة فى السفر غيرهما . وقال ابن تيمية سنة الفجر تجرى مجرى بداية العمل والوتر خاتمته ، ولذلك كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يصليهما بسورتى الإخلاص ، وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل ، وتوحيد المعرفة والإرادة ، وتوحيد الاعتقاد والقصد .

فسورة الإخلاص متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة ومايجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذى لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه ونفى الولد والوالد الذى هو من لوازم الصمدية ، وغناه ، وأحديته ، ونفى الكفء المتضمن لنفى التشبيه والتمثيل والتنظير . وهذه الأصول هى مجامع التوحيد العلمى الاعتقادى الذى يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك ؛ فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال ونفى كل نقصان عنه وخلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمى كما خلصت سورة (قل يا أيها الكافرون) من الشرك العملى الإرادى القصدى .

ولما كان الشرك العملى الإرادى أغلب على النفوس لأجل متابعتها هواها ؛ وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه لما لها فيه من نيل

الأغراض ؛ وإزالته وقلعه منها أصعب وأشد من قلع الشرك العلمى وإزالته لأنّ هذا يزول بالعلم والحجة ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشيء على غير ماهو عليه ؛ بخلاف شرك الإرادة والقصد فإنّ صاحبه يرتكب مايدله العلم على بطلانه وضرره لأجل غلبة هواه واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه — جاء من التأكيد والتكرار فى سورة (قل ياأيها الكافرون) المتضمنة لإزالة الشرك العملى مالم يجئ مثله فى سورة (قل هو الله أحد)

ولهذا كان يقرأ بهاتين السورتين فى ركعتى الطواف ؛ ولأنهما سورتا الإخلاص والتوحيد كان يفتتح بهما عمل النهار ويختمه بهما ويقرأ بهما فى الحج الذى هو شعار التوحيد .

وروى مالك عن عائشة أنه كان يصلى من الليل إحدى عشرة ركعة يوترمنها بواحدة ؛ فإذا فرغ منها اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن فيصلى ركعتين خفيفتين . وكانت عائشة تقول : لم يكن يضطجع لسنة ولكنه كان يدأب ليلته فيستريح . وذكر أنّ فى اضطجاعه على الشق الأيمن سراً وهو أنّ القلب معلق فى الجانب الأيسر ، فإذا نام عليه استثقل نومه وهو ظاهر فى أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يريد من ضجعته الراحة ومقاومة النوم حتى لايمنعه عن صلاة الفجر .

وفى الصحيحين عن القاسم بن محمد قال سمعت عائشة تقول : كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الليل عشر ركعات ويوتر بسجدة ويركع ركعتى الفجر .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يسر بالقراءة فى صلاة الليل تارة ،

ويجهر بها تارة ، ويطيل القيام إذا قام تارة ، ويخففه تارة ، وكان أكثر وتره آخر الليل ، وتارة كان يوتر وسطه أو أوله

وكان يصلى التطوع بالليل والنهار على راحلته فى السفر قبل أىّ جهة توجهت به فيركع ويسجد عليها إيماء ، ويجعل سجوده أخفض من ركوعه وقد ذكر أحمد وأبو داود أنه كان يستقبل القبلة فيكبر للصلاة ثم يخلى عن راحلته ثم يصلى أينما توجهت .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا قدم من سفره يصلى ركعتين — وهذه الصلاة هى التى سموها (الضحى) إذ رأوه يصليها ضحى حينما رجع من مغيبه ويوم الفتح - ولم يكن من هديه صلى الله عليه وآله وسلم صلاة راتبة مخصوصة لهذا الوقت كما بينته عائشة فى الصحيح ، وفهم من مجموع الأحاديث المرفوعة وآثار الصحابة .

هديه صلى الله عليه وآله وسلم فى سجود الشكر والقرآن

كان يسجد عند تجدد نعمة تسرّه ، أو اندفاع نقمة تحزنه ، كما فى المسند عن أبى بكرة . وذكر ابن ماجه عن أنس أنه صلى الله عليه وآله وسلم بشر بحاجة فخرّ لله ساجداً .

وكان إذا مرّ بسجدة فى القرآن كبر وسجد [1] وربما قال فى سجوده :

---

(١) ورد أنه لم يكن يسجد عند كل آية فيها سجدة ، ومن ذلك ما روى عن زيد بن ثابت قال : قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (والنجم) فلم يسجد فيها أخرجه الخمسة ؛ وكذلك نقل عن الصحابة أنهم كانوا يسجدون أحيانا ويتركون أحياناً ؛ كما نقل عن عمر فى سجدة النحل ونقله البخارى ومالك .

سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره بحوله وقوته . ذكره أهل السنن ، ولم ينقل عنه أنه كبر للرفع من هذا السجود : كما لم ينقل عنه تشهد ولا سلام .

هديه صلى الله عليه وآله وسلم فى الجمعة

قدم صلى الله عليه وآله وسلم المدينة فى هجرته فأقام بقباء فى بنى عمرو ابن عوف يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس - أسس مسجدهم ؛ ثم خرج يوم الجمعة فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى - وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة قبل تأسيس مسجده ذكره ابن إسحق وقال : أول خطبة خطبها أنه حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد أيها الناس قدموا لأنفسكم والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه ، ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ، وآتيتك مالا وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ؟ ! فلينظرن يميناً وشمالا فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدّامه فلا يرى غير جهنم . فمن استطاع أن يتقى بوجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ؛ ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإنها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وكان من هديه تعظيم هذا اليوم وتشريفه [1] ويقرأ فى فجره سورة

---

(١) لأنه عيد الأسبوع يجتمع الناس فيه من كل الطبقات للصلاة وسماع الوعظ وإدراك معنى الحياة فى الاجتماع — والاجتماع فى هذا اليوم شبيه بمؤتمر لأهل البلد ينظرون فيه ما يحتاجون إليه من شؤونهم الاجتماعية فى الأسبوع — ما فات منها وما يأتى — بعد ما يقفون بين يدى الله تعالى يخلصون له ويستعينون

الم تنزيل ـ السجدة ـ وهل أتى على الإنسان ـ للتذكير بما تضمنتاه مما كان ويكون فى يوم الجمعة كخلق آدم ، وذكر المعاد ، وغيره ، لا للقصد إلى السجدة التى اكتفى بقراءتها كثير من المصلين .

وروى الإمام أحمد وغيره : « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب ، إن كان له ، ولبس من أحسن ثيابه ثم خرج وعليه السكينة حتى يأتى المسجد ، ثم يركع إن بدا له ولم يؤذ أحداً ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلى كانت كفارة لما بينهما » وفى السنن : « ماعلى أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبى مهنته ؟ » (١)

به ، ويلى هذا اليوم فى الاجتماع يوم العيد ، ثم يوم الحج الأكبر يجتمع فيه المسلمون من جميع البلاد ليتعارفوا ويتآمروا على مصالح أمتهم وشؤون بلادهم . فهذه العبادات التى شرعها الله تعالى ليربى بها عباده المؤمنين على أن يكونوا محسنين للاجتماع ، وهذا التعظيم الذى يعظمه ليوم الجمعة — ومثله ليوم العيد والحج — لم يكن لذات اليوم وإنما لما فيه من الاجتماع الذى يوجد بين أفراد الأمة ، ولما فيه من الخطب والمحاضرات التى توقظهم وتنبههم إلى ما يجب عمله لتعزيز الأمة وسعادة البلاد . هذا وفى يوم الجمعة نزل قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) .

(١) نرى ناسا يحضرون الجماعة بثيابهم التى يبيعون فيها السمك والزيت وغير هذا من الحالات المنفرة بمنظرها وريحها ، فالمؤمن لا يقبل أن يكون قذرا بل يجب أن يرى غيره حسن الهيئة نظيف الثياب طيب الرائحة ؛ والمؤمن يجب أن يرى الناس منه ما يحب أن يراه منهم . والغرض من هذا الاجتماع تأليف الناس ولا يمكن أن يألف نظيف وسخا ! وكم هجر ذوو النظافة أمكنة الصلاة من أجل

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يمهل يوم الجمعة حتى يجتمع الناس فيخرج وحده من غير شاويش يصيح بين يديه ولا لبس طيلسان ولا طرحة فإذا دخل المسجد سلم عليهم فصعد المنبر فاستقبل الناس وسلم ، ثم جلس وعندئذ يأخذ بلال فى الأذان — ولم يكن الأذان إلا واحداً — فإذا فرغ منه قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم فخطب من غير فصل بين الأذان والخطبة ولم يقم أحد يركع ركعتين البتة . وهذا يدل على أن الجمعة كالعيد لا سنة لها قبلها ، ومن ظن أنهم كانوا إذا فرغ بلال من الأذان قاموا كلهم فركعوا ركعتين فهو أجهل الناس بالسنة .

ومايظنه الجهال أنه كان يعتمد على السيف وأن ذلك إشارة إلى أن الدين قام بالسيف فمن فرط جهلهم ! فإنه لايحفظ عنه بعد اتخاذ المنبر أنه كان يرقاه بسيف ولاقوس ولاغيره ، ولاقبل اتخاذه أنه أخذ بيده سيفاً البتة ؛ وإنما كان يعتمد على عصاً أوقوس .

وكانت خطبته تدور على مايحتاج الناس ، وكان يأمر وينهى إذاعرض له

ذوى الوساخة والقذر . وثبت فى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم منع بعض الأصحاب من الاجتماع لما شمّ من فمه الرائحة الكريهة — رائحة الثوم أوالبصل — وقال : (من يأكل من هذا فلا يؤذينا برائحته ليقعد فى بيته) ومثل الثوم والبصل فى تغيير الفم — البخر — رائحة خبيثة توجد عند بعض الناس ويجتمع مع المصلين ولا يهتم بإزالة هذه الرائحة — ومن يذق لذة الإيمان يسعى دائما فى أن يكون طيباً فى كل شىء حتى يرغب فيه كل من يراه ولا ينفر منه أحد ومن هذا كله تفهم الحكمة فى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالسواك وتشديده فى العناية بتنظيف الفم وغيره من البدن وغيره من كل ما يحيط بالمرء : انظر هديه فى النظافة

أمر أو نهى ، كما أمر الداخل وهو يخطب أن يصلى ركعتين ، ونهى المتخطى رقاب الناس أن يتخطى وأمره بالجلوس .

وكان يقطع خطبته للحاجة تعرض أو السؤال لأحد من أصحابه فيجيبه ثم يعود إلى خطبته فيتمها . وكان يدعو الرجل فيقول : تعال اجلس يافلان صل يافلان .

وكان يشير بالسبابة عند ذكر الله ودعائه ، وكان يأمر الناس بالدنو منه ويأمرهم بالانصات ويخبرهم أن الرجل إذا قال لصاحبه أنصت فقد لغا ؛ ويقول : « من لغا فلا جمعة له » .

ويقول : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا ، والذى يقول له أنصت ليس له جمعة » . رواه الإمام أحمد .

وكان يخطب فى الأول قائما ثم يجلس جلسة خفيفة ، ثم يقوم فيخطب الثانية ، فإذا فرغ منها أخذ بلال فى الإقامة . وكان يطيل الصلاة ولا يصلى بعدها حتى ينصرف فيصلى ركعتين ، كما ثبت عن ابن عمر : كان صلى الله عليه وآله وسلم يصلى بعد الجمعة ركعتين فى بيته . خرجه الصحيحان (١)

---

(١) فى المساجد بعد صلاة الجمعة يقيمون صلاة الظهر بالجماعة ! وهذا حدث لم يكن له أصل فى السنة ، ولم يفرض الله ظهرا وجمعة فى يوم واحد ، ولكن ماذا نصنع وقد أصبحت البدع والعادات فى المساجد وغيرها دينا بسبب كثرة المقلدين بغير فهم وعدم قدرة العلماء على تنفيذ ما يعلمون .

هديه صلى الله عليه وآله وسلم فى العيدين

كان يصلى العيدين فى المصلى التى على باب المدينة الشرقى ، فيلبس للخروج إليهما أجمل ثيابه ، وصح الحديث فى اغتساله .

وكان يأكل قبل خروجه فى عيد الفطر تمرات وترا ، وأما فى عيد الأضحى فكان لا يطعم حتى يرجع فيأكل من أضحيته .

وكان يعجل صلاة الأضحى ويؤخر صلاة الفطر ، وكان إذا انتهى إلى المصلى أخذ فى الصلاة من غير أذان ولا إقامة ولا قول : الصلاة جامعة ولا غير ذلك ، فيصلى ركعتين : يكبر فى الأولى سبع تكبيرات متواليه بتكبيرة الافتتاح ، يسكت بين كل تكبيرتين سكتة يسيرة ، ولم يحفظ عنه ذكر معين بين التكبيرات . ولكن ذكر عن ابن مسعود أنه كان يحمد الله ويثنى عليه ويصلى على النبى صلى الله عليه وآله وسلم وكان إذا تم التكبير أخذ يقرأ الفاتحة فق والقرآن المجيد ، وربما قرأ سبح اسم ربك الأعلى ثم يكبر ويركع . فإذا فرغ من السجود قام فكبر خمسا متواليه ، ثم قرأ الفاتحة فاقتربت الساعة وانشق القمر ، وربما قرأ هل أتاك حديث الغاشية ، ولم يصح عنه أنه قرأ بعد الفاتحة غير هذا ، ولم يثبت أنه قرأ قبل التكبير بل إن التكبير كان أول ما يبدأ به فى الركعتين . وقد روى الترمذى من حديث كثير بن عبد الله أنه صلى الله عليه وآله وسلم كبر فى العيدين فى الأولى سبعا قبل القراءة وفى الثانية خمسا قبل القراءة وقال : سألت محمدا يعنى البخارى — عن هذا الحديث فقال : ليس فى الباب أصح من هذا ، وبه أقول .

وكان إذا أكمل الصلاة انصرف فوقف مقابل الناس وهم جلوس على صفوفهم فيعظهم ويوصيهم .

قال جابر : شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة يوم العيد فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بلا أذان ولا إقامة ، ثم قام متوكئا على بلال فأمر بتقوى الله وحث على طاعته ووعظ الناس وذكرهم ثم مضى حتى أتى النساء فوعظهنّ وذكرهنّ ، متفق عليه .

وكان يكثر التكبير فى خطبتى العيدين كما روى ابن ماجه فى سننه عن سعد مؤذنه صلى الله عليه وآله وسلم وهذا لا يدلّ على أنه كان يفتتحها به وكان يفتتح كل خطبة بالحمدلله وقال « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمدالله فهو أجذم » .

ورخص لمن شهد العيد أن يجلس للخطبة وأن يذهب ، ورخص لهم إذا وقع العيد يوم الجمعة أن يكتفوا بصلاة العيد عن حضور الجمعة ؛ ولم يكن من هديه صلاة شيء قبل العيد ولا بعده .

وكان يذهب الى المصلى فى طريق ، ويرجع فى أخرى ليسلم على أهل الطريقين ويقضى حاجة من له حاجة منها ويظهر شعائر الإسلام ويشهد البقاع ، وغير ذلك من الحكم .

وكان يكبر فى الأضحى من صلاة الفجر يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد (١)

---

(١) كان سلفنا الصالحون على هدى الرسول صلى الله عليه وسلم مظهرهم فى

هديه صلى الله عليه وسلم فى صلاة الكسوف

لما كسفت الشمس خرج مسرعا إلى المسجد فتقدم فصلى ركعتين : قرأ فى الأولى فاتحة الكتاب وسورة طويلة جهرا ، ثم ركع فأطال الركوع ثم رفع رأسه فأطال القيام ، وقال : سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ، ثم أخذ فى القراءة . وكان هذا القيام دون القيام الأول ثم ركع دون الركوع الأول فى الطول ثم رفع ، ثم سجد فأطال السجود . ثم فعل فى الركعة الثانية مثل الأولى فكان فى كل ركعة ركوعان وسجودان . ثم انصرف فخطب بهم خطبة حفظ منها قوله : « إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا ، ولقد أوحى إلىّ أنكم تفتنون فى القبور يؤتى أحدكم فيقال له ماعلمك بهذا الرجل فأمّا المؤمن — أو الموقن — فيقول محمد رسول الله جاء بالبينات والهدى فآمنا واتبعنا ، فيقال له نم صالحا فقد علمنا أن كنت لمؤمنا ، وأمّا المنافق — أو المرتاب — فيقول لا أدرى سمعت

العيد التكبير والعبادة والبحث فى أسرار الاجتماع ، وعندنا الآن مظهر العيد فى نساء تخرج إلى القبور فتصيح بالويل والثبور وتجعل اليوم يوما أسود ويذهب الرجال تبعا للنساء ؛ فيظهر أعظم المظاهر فى القبور كالموالد والأسواق . وفى أمّ المدن المصرية يبيتون ليالى العيد فى الدور التى أعدّوها فى القبور للفسق والفجور ! ! ولا تسل عن ازدحام القهوات ومحلات اللهو بالناس فى تلك الليالى وغيرها من الليالى والأيام وإن لم نرجع عن هذا الفساد ونتمسك بالدين فقل علينا وعلى بلادنا السلام .

الناس يقولون شيئا فقلته [١] » والثابت الصحيح أنّ صلاة الكسوف لم يصلها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلا مرّة واحدة ، وكان ذلك يوم أن مات ولده إبراهيم .

هديه صلى الله عليه وسلم فى الاستسقاء

ثبت عنه أنه استسقى على وجوه : أحدها يوم الجمعة على المنبر أثناء خطبته وقال : « اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم اسقنا اللهم اسقنا » الثانى أنه وعد الناس الخروج إلى المصلى فأخذ يخطب بالتضرع والابتهال رافعاً يديه ثم صلى بهم ركعتين كصلاة العيد من غير أذان ولا إقامة ولا غيرهما جهر فيهما بالقراءة قرأ فى الأولى الفاتحة ، وسبح اسم ربك الأعلى . وفى الثانيه هل أتاك حديث الغاشية . الثالث أنه استسقى على منبر المدينة استسقاء مجرّداً فى غير يوم جمعة ولم يحفظ عنه صلى الله عليه وآله وسلم فى هذا الاستسقاء صلاة . الرابع استسقى وهو جالس فى المسجد فرفع يديه ودعا الله عز وجل [٢] .

---

(١) من يتأمل هذا الكلام يجد أنّ الدين لابد أن يؤخذ بالبرهان الذى يطمئن به القلب وتسكن إليه النفس وأنّ التقليد فيه اضطراب لا يرتاح إليه ضمير ولا تثبت معه قدم ؛ فلعلّ من هذه الفئة يعتبر المقلدون (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون) .

(٢) أصل الاستسقاء فى القرآن ففى سورة هود (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) وفى سورة نوح (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) .

هديه صلى الله عليه وسلم فى السفر

كان سفره دائراً بين أربعة : للهجرة والجهاد — وهو الكثير — والعمرة والحج .

كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها سافرت معه . ولما حج سافر بهن جميعاً . وكان يخرج أول النهار يدعو الله أن يبارك لأمته فى بكورها . وأمر المسافرين أن يأمروا أحدهم ، ونهى أن يسافر الرجل وحده .

وكان يقول حين ينهض للسفر : « اللهم إليك توجهت وبك اعتصمت ، اللهم اكفنى ماأهمنى ومالا أهتم به ، اللهم زودنى التقوى واغفر لى ذنبى ووجهنى للخير أينما توجهت » .

وكان إذا قدمت اليه دابته ليركبها يقول حين يضع رجله فى الركاب : بسم الله ، وإذا استوى على ظهرها : الحمد لله الذى [1] سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون .

وكان يقول : « اللهم هون علينا سفرنا واطو عنا بعده . اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل » .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقصر الرباعية فيصليها ركعتين من حين يخرج مسافراً إلى أن يرجع ؛ ولم يثبت أنه أتم الرباعية البتة فى سفره . ففى

---

(١) فى القرآن (سبحان الذى) قال تعالى (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون)

صحيح البخارى عن ابن عمر صحبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكان فى السفر لايزيد على ركعتين ، وأما ماروى عن عائشة من مخالفة ذلك فقال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية إنه باطل وما كانت أم المؤمنين لتخالف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجميع أصحابه فتصلى خلاف صلاتهم ، كيف والصحيح عنها : إن الله فرض الصلاة ركعتين ركعتين . فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة زيد فى صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر ـ الحديث متفق عليه .

قال ابن عباس : فرض الله الصلاة على لسان نبيكم فى الحضر أربعاً وفى السفر ركعتين وفى الخوف ركعة . أخرجه مسلم ، وقال عمر بن الخطاب : صلاة السفر ركعتان والجمعة ركعتان والعيد ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد خاب من افترى . وعمر هذا هو الذى سأل النبى صلى الله عليه وآله وسلم مابالنا نقصر وقد أمنا ؟ ولما أجابه بأن هذه صدقة الله عليكم ودينه اليسر فاقبلوا صدقته علم عمر أن المراد من القصر ـ فى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ليس قصر العدد وأن المفهوم غير مراد (١)

---

(١) إذ ثبت أن الصلاة أول ما فرضت ركعتين وبقيت كذلك فى السفر المطلق فإن الآية بينت أن السفر الذى يصحبه خوف ، يجوز فيه قصرها تين الركعتين وقصرهما يكون بقصر الأركان كما فهم عمر فتصير خفيفة غير مطولة . أو بقصر العدد فتصير ركعة واحدة كما بان من قول ابن عباس السابق وفعل النبى صلى الله

وكان إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس وجد به السير أخر الظهر إلى وقت العصر ثم نزل فجمع بينهما ، فإن زالت الشمس قبل أن يرتحل صلى الظهر ثم ركب . وقد روى عنه فى غزوة تبوك أنه إذا زالت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين الظهر والعصر ، وإن ارتحل قبل أن تزيغ أخر الظهر حتى ينزل للعصر فيصليهما ، وكذلك فى المغرب والعشاء ، وقد روى ذلك الحاكم وغيره وقاله ابن عباس وخرج فى السنن .

ولم يحد لأمته مسافة محدودة للقصر ولا للفطر ، بل أطلق لهم ذلك كما أطلق التيمم فى كل سفر . وما يروى عنه فى ذلك من التحديد لم يصح منه شىء البتة .

وأما جمعه وهو نازل غير مسافر فلم ينقل عنه إلا بعرفة فإنه جمع بين

عليه وسلم فى الصفة الواردة فى حديث حذيفة . وقد خرجه مسلم : أو بقصر الركن والعدد معاً وبذلك يكون منتهى التيسير من الشارع الذى شدد فى المحافظة على الصلوات حتى فى الحرب وقال : «فإن خفتم فرجالا أو ركبانا» وذلك لأن الصلاة صلة بين العباد وبين الله تذكرهم به وهم أحوج إلى ذكره عند الفتنة والحرب ليؤيدهم ويثبتهم ولعل فى هذا عبرة للذين يتركون الصلاة اعتمادا على أن عندهم أشغالا وهم يجهلون أن أشغالهم لا تتقن ولا يثبتون فيها إلا بتأثير الصلاة ، وهل هناك شغل أعظم من الحرب والدفاع عن الأمة والقائمون بهذا لا يسمح لهم أن يتركوا الصلاة بل يصلون بقدر ما يستطيعون ؛ ويوجد أناس يتركون الصلاة اعتماداً على الحيلة التى تعمل لهم بعد موتهم لإسقاط الصلاة ، وهذا من الجهل بالدين وعدم العلم بأن النفوس التى لا تتزكى فى الدنيا بالصلاة والعمل الصالح لا يمكن أن ترقى عند الله فى الآخرة (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) .

الظهر والعصر جمع تقديم : وذلك لاتصال الوقوف فى الدعاء . كما قاله الإمام الشافعى وابن تيمية .

هديه صلى الله عليه وسلم فى قراءة القرآن واستماعه

كان له حزب يقرؤه ولايخل به . وكانت قراءته بالترتيل ! وكان يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم قبل أن يقرأ ، ويقرأ قائما . وقاعدا ؛ ومضطجعاً محدثاً ؛ ولم يمنعه من القراءة إلا الجنابة .

وكان يتغنى ويرجع صوته أحياناً ويقول : «زينوا القرآن بأصواتكم ، ليس منا من لم يتغن بالقرآن ، ما أذن الله لشىء كإذنه [1] لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن » .

وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره فقد أمر عبدالله بن مسعود فقرأ عليه فخشع حتى ذرفت عيناه .

واستمع ليلة لأبى موسى الأشعرى ، فلما أخبره بذلك قال : «لو كنت أعلم أنك تسمعه لحبرته لك تحبيراً » [2]

---

(١) أى ما سمع الله لشىء كسمعه .

(٢) المقصود من قراءة القرآن العظيم واستماعه إنما هو التأثر به حتى يكون له السلطان على الإرادات والتصرف فى النفوس . ولما كان هذا لا يكون إلا بفهمه وتدبره كان من هدى الرسول صلى الله عليه وسلم ترتيله وتحسين الصوت به ؛ وقد عرف من الفطرة أن القراءة إذا كانت سلسة الحروف مرتبة الوقوف موقعا فيها على كل آية بما يناسبها من حركات الصوت من استفهام أو خبر أو تبشير أو تحذير ؛ تحدث طربا يجعله أعظم تأثيراً فى النفس . هذا هو المراد بالتغنى فى الحديث لا ما يفعله قراء زماننا الذين لم تتجاوز آيات القرآن حناجرهم ولم

هديه صلى الله عليه وسلم فى عيادة المريض

كان يعود من مرض من أصحابه ، وعاد غلاما يهودياً كان يخدمه ، وعاد عمه وهو مشرك وعرض عليهما الإسلام فأسلم اليهودى .

وكان يدنو من المريض ويجلس عند رأسه ويسأله عن حاله ويدعو له. وذكر أنه كان يسأله عما يشتهى فإن علم أنه لا يضره أمر له به .

وكان إذا دخل على المريض يقول : «لا بأس . طهور إن شاء الله» .

ولم يكن من هديه تخصيص يوم للعيادة ولا وقت من ليل أو نهار

وكان إذا يئس من المريض قال : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١)

تطرق معانيه قلوبهم وإنما يأتون بحركات ونغمات يتصنعونها إرضاء لمن يؤجرونهم. إحياء للأندية الفكاهية واتباعا لعادة الأفراح والمآتم .

(١) عيادة المريض مقيدة بمن كان مرضه لا يعدى أو كان معديا واتخذت الاحتياطات الواقية من انتقال جراثيم المرض إلى العائد ، فقد ثبت فى علم الطب أن الجراثيم إذا انتقلت إلى العائد وكان جسمه غير قادر على مقاومتها أهلكته ، فإذا قوى على الدفاع سكنت فيه حتى يلتقطها غيره منه وهناك تعمل عملها والله يعلم ماذا يكون من أمرها :

ومن ينظر فى الشريعة يجدها مطابقة لسنن الله وقدره ، انظر هدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى اتقاء الأمراض المعدية واقرأ ما هناك من الآثار ثم ارجع إلى عمل أصحابه تجد عمر بن الخطاب رجع عن دخول أرض الشام حينما سمع بالطاعون فيها : ولما قال له بعض أصحابه : أترجع فرارا من قدر الله يا عمر ؟! قال : فرارا من قدر الله إلى قدر الله ، وأيده عبد الرحمن بن عوف بما رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا سمعتم بالطاعون فى أرض فلا تدخلوا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه » - الحديث فى الصحيحين وهو يعد أصلا وأساساً للحجر الصحى العام .

هديه صلى الله عليه وآله وسلم فى الجنائز

كان أول تعاهده للميت فى مرضه يذكره الآخرة ويأمره بالوصية والتوبة ويأمر من حضره بتلقينه شهادة أن لا إله إلا الله لتكون آخر كلامه . ثم ينهى عن عادة الأمم التى لا تؤمن بالبعث من لطم الخدود ، وشق الثياب ورفع الصوت بالنياحة ، وتوابع ذلك .

وسن الخشوع للميت والبكاء الذى لا صوت معه وحزن القلب .

وكان يفعل ذلك ويقول : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا مايرضى الرب » وسن لأمته الحمد والاسترجاع والرضى عن الله .

وكان من هديه تغميض عينى الميت وتغطية وجهه وبدنه — وربما يقبله — والإسراع بتجهيزه إلى الله فيطهره ويطيبه ، ويكفنه فى الثياب البيض ؛ ثم يصلى عليه .

ولم يكن من هديه تغسيل قتيل المعركة . وذكر الإمام أحمد أنه نهى عن تغسيلهم . وكان ينزع عنهم الجلود والحديد ، ويدفنهم فى ثيابهم ، ولم يصل عليهم .

وكان إذا مات المحرم أمر أن يغسل بماء وسدر ، ويكفن فى ثوبيه ، وهما : ثوبا إحرامه : إزاره ورداؤه ، وينهى عن تطييبه وتغطية رأسه .

ونهى عن المغالاة فى الكفن . وكان إذا قصر الكفن عن ستر جميع البدن غطى الرأس وجعل على الرجلين من العشب (١)

---

(١) يوجد ناس يكفنون ميتهم فى الحرير وعندهم أقاربهم الأحياء محتاجون إلى ثوب من القطن أو الكتان فلا يجدون ، وهؤلاء يريدون الفخر عند الناس

وكان يصلى على الميت خارج المسجد إلا لعذر ؛ وكان إذا قدم إليه ميت يصلى عليه سأل : هل عليه دين ؟ فإن كان عليه دين لم يصل ، وأذن لأصحابه أن يصلوا إذ صلاته شفاعة موجبة والعبد مرتهن بدينه لا يدخل الجنة حتى يقضى عنه . ولما فتح الله عليه كان يصلى على المدين ويتحمل دينه ويدع ماله لورثته .

وكان إذا أخذ فى الصلاة عليه كبر وحمد الله وأثنى عليه ودعا للميت . وكانت تكبيراته أربعاً . وصح عند مسلم أنه كبر خمساً . وروى فوق ذلك فمنه ماذكره سعيد بن منصور عن ابن عيينة : كانوا يكبرون على أهل بدر خمساً ، وستاً ، وسبعاً . وكل هذه الآثار صحيحة فلا موجب للمنع من الزيادة عن الأربع وقد فعلها النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة من بعده .

وصلى ابن عباس على جنازة فقرأ بعد التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب جهراً وقال . لتعلموا أنها سنة ، وكذلك قال أبو أمامة بن سهل وذكر جماعة من الصحابة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فى الصلاة على الجنازة .

والمقصود من الصلاة على الجنازة هو الدعاء للميت ، وكذلك حفظ ونقل عنه مالم ينقل من قراءة الفاتحة والصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم فحفظ من دعائه : « اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار » ومنه : « اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام والسنة ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان ، اللهم لاتحرمنا أجره ولا تفتنا

فيما يلى ، ولا يريدون الأجر عند الله فيما يبقى ! !

بعده . وحفظ من دعائه : اللهم أنت ربها وأنت خلقتها وأنت هديتها للإسلام وأنت قبضت روحها وتعلم سرها وعلانيتها جئنا شفعاء فاغفر لها»

وكان يأمر بإخلاص الدعاء للميت .

وكان من هديه إذا فاتته الصلاة على الجنازة صلى على القبر ، ولم يوقت فى ذلك ، فصلى مرة بعد ليلة ، وأخرى بعد ثلاث ، وثالثة بعد شهر .

وكان يقوم عند رأس الرجل ووسط المرأة .

وكان يصلى على الطفل ويقول : «صلوا على أطفالكم فإنهم من أفراطكم» كما فى سنن ابن ماجه .

وكان لا يصلى على من قتل نفسه ولا على من غلّ فى الغنيمة .

وكان إذا صلى على ميت تبعه إلى المقابر ماشيا أمامه ، وسنّ لمن تبعها إن كان راكبا أن يكون وراءها وإن كان ماشيا أن يكون قريبا منها فى الخلف أو الأمام أو اليمين أو اليسار .

وكان يأمر بالإسراع بها ، وأما دبيب الناس اليوم خطوة خطوة فبدعة ، وكان أبو بكرة يرفع السوط على من يفعل ذلك ويقول لقد رأيتنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نرمل رملا (١)

---

(١) نرى الذين يحملون نعش الميت يقفون فى الطريق ويتأخرون إلى الوراء ؛ فإذا قلنا لهم امشوا وأسرعوا حسب السنة يقولون إنّ الميت ثقل علينا فلا يريد أن يترك الدنيا بل يريد أن يرجع إلى أحبائه . ويعدّون ذلك كرامة للميت . فما أجهل الناس بالكرامة .

ومن يقتف هذه الآثار التى تمثل آداب الرسول صلى الله عليه وسلم وإكرامه للميت بمشيه بين يديه سا كنا مشغولا بالاتعاظ فلا يسعه إلا أن يتحسر على القوم

وكان إذا تبعها لم يجلس حتى توضع على الأرض وأمر بذلك؛ كما قال أبو داود .

وكان من هديه اللحد وتعميق القبر وتوسيعه وتسويته ؛ ولم يكن من هديه تعلية القبور ولا بناؤها بآجر ولا حجر ولا لبن ولا غيره

بل قد بعث علي بن أبي طالب ألا يدع تمثالا إلا طمسه ولا قبرا إلا سوّاه، ونهى أن يجصص القبر وأن يبنى عليه وأن يكتب عليه

وكان يعلم قبر من يريد تعرّف قبره بصخرة .

وكان إذا وضع الميت فى القبر قال : بسم الله وعلى ملة رسول الله؛ ولا يدفنه عند طلوع الشمس ولا غروبها ولا عند الظهيرة . وكان إذا فرغ من دفنه قام هو وأصحابه وسألوا له التثبيت ، ولم يجلس عند القبر لقراءة أو تلقين للميت كما يفعله الناس اليوم . أما ما رواه الطبرانى فى حديث أبى أمامة من الأمر بالتلقين فلا يصح رفعه .

وكان يعزى أهل الميت ولكن لم يجتمع لذلك ولم يجتمع لقراءة قرآن لا عند القبر ولا غيره ، ولم يكن من هديه أن يتكلف أهل الميت الطعام للناس بل أمر أن يصنع الناس لهم طعاماً يرسلونه إليهم .

الذين ضلوا عن هديه فقلبوا السكون تهويشا وصياحا وأبدلوا الاتعاظ سخرية والتكريم تعذيبا وفضيحة . بوارق ورايات تمثل الصليب على الخشبة ونساء تولول من خلفها وأطفال تصيح بالأغانى من حولها ومشايخ قطعوا أنفسهم لبردة البوصيرى ينشدونها فى الأمام بأصوات منكرة وطرق فظيعة إلى غير ذلك مما تنكره الشريعة ولا يحبه الله ورسوله . وقد ورد إن الله يحب الصمت عند الجنازة والحكمة والتدبر والاعتبار (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

وكان لا ينعى الميت ، ونهى عن النعى وقال : هو من عمل الجاهلية .

هديه صلى الله عليه وآله وسلم فى زيارة القبور

كان إذا زار قبور أصحابه يزورها للدعاء لهم والترحم عليهم والاتعاظ بهم ، وهذه هى الزيارة التى شرعها لأمته وأمرهم فيها أن يقولوا : السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . نسأل الله لنا ولكم العافية (١)

---

(١) هذه الزيادة قد عكسها الناس فجعلوا قبور الأموات عبارة عن معابد شيدوا عليها القباب وصنعوا لها الهياكل من الخشب والنحاس والقماش وغيره يطوفون حولها ويطلبون منها ما لا يطلب إلا من الله تعالى !! وهذا كان أصلا من أصول الشرك الناشئ من الجهل عند الأمم السابقة ومشركى العرب ما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم لهدمه كما جاءت الرسل من قبله ، والله يقول : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » : ويقول : (ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) ويقول : (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضرّ هل هنّ كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هنّ ممسكات رحمته ؟! قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون) . ويقول : (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات إيتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين . ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) . ويقول : (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إنّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) . ويقول : (قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا

وكان من هديه ألا تهان القبور فتوطأ ويجلس أو يتكأ عليها ولا تعظم بحيث تتخذ مساجد يصلى عندها وإليها ، وتتخذ أعياداً وأوثاناً يجتمع لها ، وتوقد السرج عليها . ونهى عن ذلك كله ولعن فاعله .

هديه صلى الله عليه وآله وسلم فى الصدقة والزكاة

جعل الزكاة فى الزرع والثمر وبهيمة الأنعام - الإبل والبقر والغنم والنقدين الذهب والفضة ومال التجارة أوجبها مرة فى كل عام إلا فى الزرع والثمر فعند كماله واستوائه (١) وهذا أعدل مايكون لصالح المستحقين وأرباب

ولا ضرا) ؟ ويقول : أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لايملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون) ويقول : (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) .

هذا قول الله الذى بينه الرسول صلى الله عليه وسلم بالعمل . وترى الناس مع هذا لا يزالون يتذللون للموتى ويعكفون على قبور الأولياء حتى إنهم ليفضلون الصلاة داخل أضرحتهم وحول قبورهم عن الصلاة فى المسجد كما ترى فى (القبة) فى مسجد الحسين (رضى الله عنه) وأمثاله يتسابق الناس إليها بكل خشوع ويعتقدون أن الصلاة فيها خير من ألف صلاة . ثم ترى غير ذلك مما يعملون من الأعياد والموالد فيجتمعون لها ويوقدون السرج عليها ! ! وبالرغم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك ولعن فاعله فإنه يعمل بمال المسلمين وتقرره وزارة الأوقاف ويحضره علماء الأزهر وهم بأفعالهم حجة العوام فى كل زمان ، فاللهم وفق العلماء للقيام بالدين والعناية به حتى يكونوا حجة له ولا يكونوا حجة عليه .

(١) قال الله تعالى : (وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره

الأموال فاوت بين مقادير الواجب بحسب سعي أرباب الأموال فى تحصيلها

إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) :

وفى هذه الآية دليل على أنّ الزكاة واجبة فى كل زرع فلا تختص بأصناف دون أصناف ويؤيد ذلك أيضاً قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أنّ الله غنى حميد)

وهنا يجب أن نلاحظ أنّ الله تعالى ينهى عن تعمد إنفاق الخبيث من المال ومما يخرج من الأرض — فمن الناس من ينتقى الجيد لنفسه من محصول القمح وغيره ثم يقصد إلى الخبيث (الذى لا يؤكل) فيعطيه للمسكين كمن يعمد إلى القرش (المغشوش) الذى لا يصرف ويعطيه للسائل أو المحروم . وهذا ممن قال الله فيهم (ويجعلون لله ما يكرهون) وقد قال تعالى : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وبعض الناس لا يعطى شيئا وتراه إذا جاء وقت الحصيد للزرع يتستر لئلا يراه محتاج أو يدخل عليه مسكين . وهذا ممن ضرب الله لهم مثلا — أصحاب الجنة (الحديقة أو المزرعة) (إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون : أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ۞ وغدوا على حرد قادرين فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لكم : لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ۞ كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) فالله تعالى يضرب الأمثال ولا نعتبر وينزل المصائب والآفات على الزروع والمال والبلاد ولا نفكر ولا نعقل ولا نفهم أنّ المال منه وإليه والزكاة من مصلحتنا وهذا كله من البخل الموروث عن ضعف الإيمان وقد تحكم البخل فى الناس إلى درجة أنهم يجاهرون بمنع الزكاة ومنهم من يحتال على إسقاطها ليمتنعوا عن أدائها باسم الدين فيقولون إنّ أرضنا (خراجية) ولا زكاة عليها فى مذهب الحنفية ومنهم من يقول إنّ الزكاة فى الذهب والفضة وما عندنا الآن إلا ورق (بنكنوت)

فاوجب الخمس فيما صادفه الإنسان مجموعاً محصلا وهو الركاز ـ مايوجد

وهؤلاء يجدون من يفتيهم بذلك من الذين ينتسبون إلى العلم وهم يجهلون الدين وقد عرضوا أنفسهم لتعطيل شعائر الله وموت الفقراء والقضاء على مصالح الأمة فالأرض الخراجية هى التى كان يملكها المسلمون بالفتح فيبقون أهلها الكفار عليها ويأخذون منهم خراجا بدل العشر الذى يأخذونه من أرض المسلمين ؛ فهل أرضنا خراجية على هذا المعنى وأهلها كأولئك ؟ أم الغرض اتباع شهواتنا وأهوائنا والله تعالى جعل الزكاة فى كل مايسمى مالا تقضى به المصالح قال تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وقال : (وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم)

وهل إذا كان المرء يعقل يفرق بين جنيه ذهب وجنيه ورق (بنكنوت) مادام كل منهما بقيمة الآخر فى قضاء المصالح المطلوبة ؟ وماذا يهمنا إذا كانت العملة ورقا أو حجرا أو غيره ! وهل شرع الله الزكاة فى الجنيه لأنه ذهب فإذا بدلناه قروشاً أو تسقط الزكاة ويتبدل حكم الله (الله الله) أم نقول إنها أمور تعبدية غير معقولة المعنى والله يقول : (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) ـ ويقول : (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون)

ويقول : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب) ويقول : (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون)

هذا ولو كان الأغنياء يؤدون الواجب عليهم من الصدقات والزكاة لوجد الأيتام وأبناء الفقراء الملاجئ التى تأويهم والمستشفيات التى تداويهم والمدارس التى تهذبهم وتعلمهم ، ولوجد العاطلون دور الصناعات يعملون فيها لكانت الأمة عزيزة بهؤلاء جميعا غنية بما تربحه من ثمرات أعمالهم بدلا من أن يكونوا عالة عليها فتضعف بعضهم وتشقى بشقائهم فمن لنا بالحكومة التى تنفذ ما نقول فتعلم أن الزكاة ـ كغيرها من أركان الدين ـ من أعظم الأسباب التى تثبت الأمن فى البلاد وتقدم الأمة فى أمور العمران والاقتصاد .

مدفونا فى الأرض ـ ولم يعتبر له حولا . وأوجب النصف من ذلك وهو العشر فيما كانت مشقة تحصيله أكثر كالثمار والزروع التى بباشر حرث أرضها ويتولى الله سقيها بلا كلفة فى آلات تعد أو أبيار تحفر ، وأوجب نصف العشر فيما يتولى الإنسان سقيه بتعبه ونفقته على الآلات وغيرها ، وأوجب ربع العشر فيما كان النماء فيه موقوفا على عمل متصل من صاحبه بالضرب فى الأرض تارة وبالإدارة تارة وبالتربص تارة ، وقد جعل لكل شىء من ذلك مقدارا لا تجب الزكاة فى أقل منه : فقد نصب فى الذهب عشرين مثقالا ، وفى الفضة مائتى درهم ، وفى الحبوب والثمار خمسة أوسق(١) ، وفى الغنم أربعين شاة ، والبقر ثلاثين ، وفى الإبل خمسة ، والرب سبحانه تولى قسمة الصدقة بنفسه وجزأها ثمانية يجمعها صنفان من الناس : أحدهما من يأخذ لحاجته على حسب شدتها وضعفها وهم الفقراء والمساكين وفى الأقارب وابن السبيل ، والثانى من يأخذ لمنفعة فيه للمسلمين وهم العاملون والمؤلفة قلوبهم والغارمون لإصلاح ذات البين والغزاة فى سبيل الله .

وكان من هديه صلى الله عليه وآله وسلم تفريق الزكاة على المستحقين الذين فى بلد الماء وما فضل عنهم منها تحمل إليه فيفرقها ، وكان إذا علم من الرجل أنه من أهل الزكاة أعطاه وإن سأله أحد من أهلها ولم يعلم حاله أعطاه بعد أن يخبره أن لا حظ فيها لغنى ولا لقوى على الكسب (٢)

---

(١) الوسق : ستون صاعا ، أردب مصرى تقريبا »

(٢) فهل يعتبر بهذا الذين يمدحون على الأبواب والذين يقرأون فى الشوارع وعلى المساجد للشحاذة وهم يقدرون على الكسب ويعلمون أنهم لا يستحقون وإن كان أكثر الناس لا يعطون .

وكان إذا جاءه الرجل بالزكاة دعا له فتارة يقول : اللهم بارك فيه وفى إبله وتارة اللهم صل عليه .

ولم يكن من هديه أخذ كرائم الأموال فى الزكاة بل الوسط .

وكان ينهى المتصدق أن يشترى صدقته ، وكان يبيح للغنى أن يأكل من الصدقة إذا أهداها إليه الفقير ، وأكل من لحم تصدق به على بريرة وقال : « هو عليها صدقة ولنا منها هدية » وكان أحياناً يستدين لمصالح المسلمين على الصدقة ، وإذا عراه أمر استسلف الصدقة من أربابها كما استسلف من العباس صدقة عامين .

ولم يكن من هديه أن يبعث سعاته إلا إلى أهل الأموال الظاهرة من المواشى والزروع والثمار .

وكان يبعث الخارص يخرص على أرباب النخيل تمر نخيلهم وينظر كم يجىء منه وسقا فيحسب عليهم من الزكاة بقدره ، وكان يأمر الخارص أن يدع لهم الثلث أو الربع فلا يخرصه عليهم لما يعرو النخيل من النوائب ، وكان هذا الخرص لكى تحصى الزكاة قبل أن تؤكل الثمار وتصرم وليتصرف فيها أربابها بما شاءوا ويضمنوا قدر الزكاة .

ولذلك كان يبعث الخارص إلى من ساقاه من أهل خيبر وزارعه فيخرص عليهم الثمار والزروع ويضمنهم شطرها ، وكان يبعث إليهم عبدالله بن رواحة فاذا أرادوا أن يرشوه قال عبدالله : أتطعمونى السحت . والله لقد جئتكم من عند أحسن الناس إلىّ ، ولأنتم أبغض إلى من عدتكم من القردة والخنازير ، ولا يحملنى بغضى لكم وحبى إياه أن لا أعدل عليكم . فقالوا : بهذا قامت

السموات والأرض .

صدقة الفطر

فرضها على المسلم ومن يمونه صاعا [١] من تمر أو زبيب أو أقط أو شعير وقد روى الإمام أحمد وأبو داود صاع البر أو القمح على الاثنين .

وكان من هديه صلى الله عليه وآله وسلم إخراج الصدقة قبل صلاة العيد ، وفى السنن عنه : من أداها قبل الصلاة فهى زكاة مقبولة ومن أداها بعد الصلاة فهى صدقة من الصدقات ، وفى الصحيحين عن ابن عمر : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بزكاة الفطر أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة .

ومقتضى هذين الحديثين أنه لايجوز تأخيرها عن صلاة العيد وهو الصواب إذ لامعارض لهما ولا ناسخ ولا إجماع يدفع القول بهما .

ونظير ذلك ترتيب الأضحية على صلاة الإمام لا على وقتها ، وأن من ذبح قبل صلاة الإمام لم تكن ذبيحته أضحية بل شاة لحم ؛ وكان يخصص المساكين بهذه الصدقة .

صدقة التطوّع

كان أعظم الناس صدقة بما ملكت يده ؛ ولم يسأله أحد شيئا عنده إلا أعطاه قل أو كثر ، وكان سروره بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه ، وكان يتنوع فى أصناف عطائه : فتارة بالهبة ، وتارة بالصدقة

---

(١) قريب من قدحين بالكيل المصرى

وتارة بالهدية ، وتارة بشراء الشيء ثم يعطى البائع الثمن والسلعة ، وكان يقترض الشيء فيرد أكثر منه وأفضل وأكبر ، ويشترى الشيء فيعطى أكثر من ثمنه .

هديه صلى الله عليه وآله وسلم فى الصوم

المقصود من الصوم ترك محبوبات النفس إيثارا لمحبة الله ومرضاته وهذا سرّ بين العبد وربه ، وللصوم تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة واستفراغ المواد الرديئة المانعة من الصحة .

والصوم يعيد إلى القلب والجوارح ما استلبته أيدى الشهوات ، ويذكر بحال الأكباد الجائعة فهو من أكبر العون على التقوى ، كما قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « الصوم جنة » (١) وأمر من اشتدت عليه شهوة النكاح ولا قدرة له عليه بالصيام وجعله وجاء (٢) هذه الشهوة .

ولما كان فطم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور تأخر فرضه لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة وألفت أوامر القرآن فنقلت إليه بالتدريج

---

(١) وقاية — أى يقى صاحبه من غوائل الشهوات

(٢) قاطع

وكان فرضه فى السنة الثانية من الهجرة فتوفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد صام تسع رمضانات .

وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يطيقا الصيام فإنهما يفطران ويطعمان عن كل يوم مسكينا ، ورخص للمريض والمسافر أن يفطرا ويقضيا ، وللحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما كذلك ، فإن خافتا على ولديهما زادتا مع القضاء إطعام مسكين لكل يوم ، فان فطرهما لم يكن لخوف مرض وإنما كان مع الصحة فجبر بإطعام المسكين كفطر الصحيح(١)

(١) هذا الكلام فى الحامل والمرضع غير ظاهر ، والظاهر أنهما من القسم الذى يفدى بلا قضاء لأن الحمل والرضاع يستمران فلا يكون هناك وقت للقضاء ولأن الله تعالى جعل رخصة الفطر لقسمين فقط : قسم المريض والمسافر — يفطران ويقضيان — وقسم الذين يطيقون — يفطرون ويفدون — ولم يذكر قسما ثالثاً يقضى ويفدى ، قال تعالى : فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدّة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين» ومعنى يطيقونه يتحملونه بمشقة شديدة — فمنهم كبار العمر — كما ورد عن ابن عباس رضى الله عنه — ومنهم الحوامل والمراضع كما روى أحمد وأصحاب السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم : «إن الله وضع الصوم عن الحبلى والمرضع» . ومنهم أصحاب الأمراض المزمنة لأنهم ليس عندهم وقت يستطيعون القضاء فيه — فهؤلاء يفطرون ويفدون عن كل يوم طعام مسكين .

وعن الشيخ محمد عبده رحمه الله أنّ منهم العمال الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأعمال الشاقة كاستخراج الفحم الحجرى من المناجم - والآية محتملة ؛ ولكن لا تحتمل الذين يتنعمون حتى يصبحوا مترفين بالنعمة فلا يستطيعوا أن يصوموا أولئك بتركهم الصيام يزدادون ترفاً ويفقدون الشجاعة والصبر كمن أسرتهم الشهوات والمكيفات المذلة للنفوس فأصبحوا لا ينفعون بشىء إلا أنهم يضرون أنفسهم وبلادهم .

وكان من هديه ألا يدخل فى صوم رمضان إلا برؤية محققة أو بشهادة واحدة ؛ كما صام بشهادة ابن عمر ؛ وصام بشهادة أعرابى واعتمد على خبره ولم يكلفه لفظ الشهادة ؛ فإن لم تكن رؤية ولا شهادة أكمل عدة شعبان ثلاثين يوماً ؛ وقد أمر بذلك .

وكان إذا شهد الشاهدان برؤية الهلال بعد خروج وقت العيد يفطر ويصلى العيد من الغد فى وقتها ؛ وكان يعجل الفطر ويفطر قبل الصلاة فيبدأ بالرطبات ؛ فإن لم يجد فتمرات وإلا فحسوات ماء . وروى عنه أنه كان يقول إذا أفطر : « اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت » ، وقيل « ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله تعالى » ذكرهما أبو داود .

ومن أحكام الصيام فى القرآن قوله تعالى أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ ؛ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهنّ وابتغوا ما كتب الله لكم ! وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ؛ ثم أتموا الصيام إلى الليل) . والرفث إلى النساء — كمباشرتهنّ ولمسهنّ والإفضاء إليهنّ — كناية عما يكون بينهنّ وبين أزواجهنّ ؛ وهو من آداب التعبير عما يستحيى منه ، فلعلنا نتأدب بهذا الأدب وننزه ألسنتنا عن فحش الكتب التى يسمونها (كتب الأدب) .

وقد كان بعض الصحابة قبل نزول الآية يمانع نفسه من مباشرة النساء ليلة الصيام فأخبر الله أنّ هذا ظلم للنفس وحرمان من التمتع بالمباح ، وفى الآية ردّ على من يوجبون الإمساك قبل الفجر عن الأكل والشرب والرفث — وهذه الأمور الثلاثة المبطلات للصيام ، ولم يذكر القرآن ما تفنن فيه الفقهاء من فروض المبطلات المشكلات .

وسافر صلى الله عليه وآله وسلم فصام وأفطر وخير الصحابة بين الأمرين وكان يأمرهم بالفطر إذا دنوا من عدوهم ليتقووا على قتاله ، قال عمر بن الخطاب : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى رمضان غزوتين : بدر ، والفتح — فأفطرنا فيهما

ولم يكن من هديه تقدير المسافة التى يفطر فيها الصائم ؛ ولم يصح فى التقدير شىء (١)

وكان الصحابة حين ينشئون السفر يفطرون من غير اعتبار مجاوزة البيوت ويخبرون أن ذلك سنته وهديه صلى الله عليه وآله وسلم كما فى حديث عبيد بن جبير عند أبى داود وأحمد ، وقال محمد بن كعب : أتيت أنس بن مالك فى رمضان وهو يريد السفر وقد رحلت راحلته وقد لبس ثياب السفر فدعا بطعام فأكل ! فقلت له سنة ؟ قال سنة ، ثم ركب — حسنه الترمذى .

وكان يدركه الفجر وهو جنب من أهله فيغتسل ويصوم ويقبل بعض

---

(١) أى لم يقيد الناس بسفر محدود بل أطلق السفر كما قال الله تعالى : (أو على سفر) بالتنكير الشامل لكل مايعد فى العرف سفراً ؛ فكل ما ذكر فى كتب الفقه من تحديد السفر المبيح للفطر وقصر الصلاة إنما هو من اجتهاد الفقهاء واستنباطهم وقد ثبت أن أهل مكة صلوا صلاة السفر بالقصر والجمع فى عرفة مع النبى صلى الله عليه وسلم والمسافة قريبة لم تبلغ عشر التحديد الذى حددوه — ولا يزالون مختلفين فيه .

فالكتاب والسنة العملية متفقان على أن السفر غير محدود ، وهذا الذى يوافق الحكمة فى الرخصة ولا يوقع الأمة فى ارتباك التحديد والاختلاف عليه .

أزواجه وهو صائم ؛ وصح عنه الاستياك ، ومنع من المبالغة فى الاستنشاق ولم يحتجم ، وروى عنه الاكتحال .

وكان يسقط القضاء عمن أكل أو شرب ناسيا ولا يفطره بذلك .

وكان يكثر فى رمضان من الخير ويتلو القرآن ويدارسه زيادة عن غيره من الشهور (١)

صيام التطوع (٢)

كان يصوم حتى يقال لا يفطر ، ويفطر حتى يقال لا يصوم ، وما استكمل صيام شهر غير رمضان ، ولم يكن يخرج عنه شهر حتى يصوم منه ، ولم يصم الثلاثة الأشهر — رجب وشعبان ورمضان — سرداً كما يفعله بعض الناس ، ولا صام رجبا ولا استحب صيامه ، بل روى عنه النهى عن صيامه كما ذكره ابن ماجه ، وكان يتحرى صيام الاثنين والخميس .

---

(١) اختص رمضان بكثرة مدارسة القرآن لأنه نزل فيه ، فالصيام شكر والقرآن ذكر . فالناس بالقرآن يستعدون للإخلاص والإحسان فى الصيام وفى تدبره والعمل به سعادتهم الدنيوية والأخروية فليتدبر أهل زماننا الذين يأتون بالقراء فى رمضان فيجعلونهم (كالفونوغراف يحكون) وهم يلعبون ويهجرون وعلى الخبائث ـ السجارة والشيشة وأمثالها ـ يعكفون ؛ وليفهموا قول الله : (أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوا) .

(٢) قال تعالى : « فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » معنى الصيام فتخلصوا لله فيه وتحسنوا أخلاقكم به ، ومن الناس من يسوء خلقه بالصيام لأنه لا يعلم له معنى فيشتم ويسب ويكون عذره أنه صائم .

وفى الصحيحين أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما قدم المدينة ووجد اليهود يصومون يوم عاشوراء سألهم عنه فقالوا : يوم عظيم نجى الله فيه موسى وقومه وغرق فيه فرعون وقومه فصامه موسى شكراً لله فنحن نصومه ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم فنحن أحق وأولى بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه .

وأفطر يوم عرفة بعرفة ، ذكره الصحيحان . ونهى عن الصوم بها ، رواه أهل السنن .

وذكر لفطره بعرفة عدة حكم : منها أنه أقوى على الدعاء ، ومنها أن الفطر فى السفر أفضل فى فرض الصوم فكيف بنفله ، ومنها أن ذلك اليوم كان يوم الجمعة وقد نهى عن إفراده بالصوم .

وكان ابن تيمية يعلل ذلك بأنه يوم عيد لأهل عرفة لاجتماعهم فيه ويقول : قد أشار النبى صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا فى الحديث الذى رواه أهل السنن : « يوم عرفة ويوم النحر وأيام منى عيدنا أهل الإسلام » ومعلوم أن كونه عيداً هو لأهل ذلك المجمع لاجتماعهم فيه والله أعلم .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يدخل على أهله فيقول : هل عندكم شىء فإن قالوا لا ، قال : إنى إذاً صائم . فينشىء النية للتطوع من النهار .

وكان أحيانا ينوى صوم التطوع ثم يفطر بعد — أخبرت عنه عائشة فى الحديثين ، فأخرج الأول مسلم والثانى النسائى .

هديه صلى الله عليه وآله وسلم فى الاعتكاف

كان صلى الله عليه وآله وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجلّ ، وتركه مرة فقضاه فى شوال ، وكان يأمر بخباء فيضرب له فى المسجد يخلو فيه بربه .

وكان يعتكف كل سنة عشرة أيام ، فلما كان فى العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين يوما ؛ وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرة ؛ فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين .

وكان لايدخل بيته فى اعتكافه إلا لحاجة ؛ وكان يخرج رأسه من المسجد إلى بيت عائشة فترجله وتغسله وهو فى المسجد وهى حائض . وكانت بعض أزواجه تزوره وهو معتكف فإذا قامت تذهب قام معها يوصلها ؛ ولم يباشر امرأة من نسائه وهو معتكف لابقبلة ولابغيرها (١)

هديه صلى الله عليه وآله وسلم فى الحج والعمرة (٢)

فى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : اعتمر رسول الله صلى الله عليه

---

(١) اتباعا لقوله تعالى : (ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون فى المساجد) .

(٢) المراد من الحج قصد البيت الذى جعله الله فى مكة كعبة لجميع المسلمين يحجون إليه ويلتفون حوله ويتماسكون بالمناسك والعبادات المخصوصة التى بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشهره شوّال وذوا القعدة والعشر الأوّل من ذى الحجة ، والمراد من العمرة زيارة ذلك البيت ، ووقتها طول السنة . وسميت عمرة لأنّ من زار فقد عمر قال تعالى : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا

وآله وسلم أربع عمر كلهنّ فى ذى القعدة إلا التى كانت مع حجته عمرة من الحديبية [١] فى ذى القعدة — وهى التى صدّه المشركون عنها — وعمرة من العام المقبل فى ذى القعدة وعمرة من الجعرانة [٢] حيث قسم غنائم حنين فى ذى القعدة ، وعمرة مع حجته : وفيهما عن البراء بن عازب اعتمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى ذى القعدة قبل أن يحج مرتين

من المهتدين أجعلتم سقاية الحاج « وعمارة المسجد الحرام » كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله) وقال تعالى : (إنّ أوّل بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات - مقام إبراهيم - ومن دخله كان آمنا - ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا - ومن كفر فإنّ الله غنى عن العالمين) . وقال تعالى : (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) . وقال تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) : وقال تعالى : (وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم) - انظر سورة الحج . وقال تعالى : (وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله) وقال تعالى : (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزوّدوا فإنّ الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب) - أنظر سورة البقرة ، وقال تعالى : (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ، ذلك لتعلموا أنّ الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأنّ الله بكل شىء عل)

(١) قرية قريبة من مكة وسميت ببئر فيها .

(٢) موضع قريب من مكة وهى فى الحل وميقات للإحرام .

ولامناقضة ، إذ المراد العمرة المستقلة التى تمت ، ولاريب أنهما ثنتان فإنّ عمرة القران (١) غير مستقلة ، وعمرة صدّ عنها وحيل بينه وبين إتمامها كما لامناقضة بين ذلك وبين قول عائشة وابن عباس : « لم يعتمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا فى ذى القعدة » لأنّ مبدأ عمرة القران كان فى ذى القعدة ونهايتها فى ذى الحجة مع انقضاء الحج ، فهما أخبرا عن ابتدائها وأنس أخبر عن انتهائها .

وكان فى كل عمرة داخلا إلى مكة ولم ينقل عنه أنه اعتمر خارجا من مكة كما يفعله الناس اليوم : يخرجون من مكة إلى الحل ليعتمروا .

وحج حجة واحدة بعد الهجرة سنة عشر ، لأنّ فرض الحج لم ينزل قبل السنة التاسعة : وذلك أن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود وفيه قدم وفد نجران على الرسول وصالحهم على أداء الجزية ، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع وفيها نزل صدر آل عمران وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة ، ويدل عليه أنّ أهل مكة وجدوا فى نفوسهم بما فاتهم من التجارة من المشركين لما أنزل الله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هٰذَا ﴾ فأعاضهم الله تعالى من ذلك بالجزية ، ونزول هذه الآيات والمناداة بها إنما كان فى سنة تسع ، وبعث الصدّيق يؤذن بذلك فى مكة فى مواسم الحج وأردفه بعلىّ . أما قوله تعالى ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّٰهِ ﴾ فإنها وإن

---

(١) الإحرام بالعمرة مع الحج

نزلت سنة ست عام الحديبية فليس فيها فريضة الحج ، وإنما فيها الأمر بإتمامه وإتمام العمرة بعد الشروع فيهما ، وذلك لا يقتضي وجوب الابتداء

ولما عزم صلى الله عليه وسلم على الحج أعلم الناس ثم خطبهم خطبة علمهم فيها الإحرام وما يجب عليهم فى هذا الحال وصلى الظهر بهم فى مسجد المدينة أربعاً ثم ادهن وترجل ولبس رداءه وإزاره وخرج قبل العصر لست بقين من ذى القعدة فنزل بذى الحليفة (١) فصلى بها العصر ركعتين ثم بات بها وطاف على كل نسائه فى تلك الليلة . ولما أراد الإحرام اغتسل وتطيب ثم لبس الإزار والرداء وصلى الظهر ركعتين ثم أهل بالحج والعمرة فى مصلاه ؛ ولم ينقل عنه أنه صلى للإحرام ركعتين غير فرض الظهر . وقلد قبل الإحرام هديه وأشعره فى جانبه الأيمن فشق صفحة سنامه (٢) .

وكان يقول : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إنّ الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك » . ورفع صوته بهذه التلبية حتى سمعها أصحابه وأمرهم كذلك ، وكان حجه على رحل لا فى محمل ولا هودج .

وولدت أسماء زوج أبى بكر بذى الحليفة محمد بن أبى بكر فأمرها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن تغتسل وتحرم وتهل ، فدل ذلك على

---

(١) عين على ستة أميال من المدينة ميقات إحرام للشام والمدينة .

(٢) الهدى ما يقربه الحاج إلى مكة من الإبل أو البقر أو الغنم قربانا لله وفداء عما يقصر فيه من الأعمال ؛ وسمى هديا لأنه يهدى إلى بيت الله ولأنه يساق فى الأمام فكأنه يهدى صاحبه إلى الطريق كما يهديه عمله الصالح يوم القيامة إلى الجنة ويوضع له علامات تهدى الناظر إلى أنه قربان لله وشعار من شعائره

أنّ الحائض تغتسل للإحرام ويصح منها ، ثم سار وهو يلبي حتى إذا كان بالروحاء (١) أهدى إليه لحم حمار وحش صيد حلال فأمر بتقسيمه بين رفاقه فدل على جواز أكل المحرم من صيد الحلال إذا لم يصده لأجله (٢)

ولما كان بسرف (٣) حاضت عائشة فقال لها : « افعلي مايفعل الحاج غير ألا تطوفي بالبيت »

ولما كان بمكة أمر من لاهدى معه أن يجعلها عمرة فيطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة ويحل من إحرامه ؛ ومن معه هدى أن يقيم على إحرامه ، ولم ينسخ ذلك شيء البتة ! بل سأله سراقة بن مالك عن هذه العمرة التي أمرهم بالفسخ إليها هل هي لعامهم ذلك أم للأبد ؟ قال : بل للأبد (٤) .

---

(١) موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة .

(٢) لأنّ المحرم لا يجوز له أن يصيد صيد البر ، لكن لو جاء صيد صاده أحد حلال غير محرم يجوز أن يأكل منه ، قال تعالى : « أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا مايتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إنّ الله يحكم مايريد » . وقال : « إذا حللتم فاصطادوا » . وقال : « ياأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب ؛ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم — ياأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ماقتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره ؛ عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام . أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة ؛ وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما واتقوا الله الذي إليه تحشرون)

(٣) موضع قريب من مكة .

(٤) أي هذا الأمر ليس خاصا بهم ؛ بل لكل من يحج إلى الأبد .

وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم الأمر بفسخ الحج إلى العمرة أربعة عشر من أصحابه وأحاديثهم كلها صحاح ؛ وفيها يقول : « ولولا أن معى الهدى لأحللت كما تحلون ؛ أو فلولا أنى سقت الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم به ولكن لايحل منى إحرام حتى يبلغ الهدى محله » وقد أجابوا فقصروا (١) بعد أن طافوا بالبيت وبالصفا والمروة ، ثم أقاموا فى حل حتى إذا كان يوم التروية(٢) أهلوا بالحج

ولما رأى البيت قال : « اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيما وتكريماً ومهابة » ذكره الطبرانى ، فلما دخل المسجد عمد إلى البيت ولم يركع تحية المسجد إذ تحيته الطواف ، فلما حاذى الحجر الأسود استلمه ولم يزاحم عليه ولم يحاذه بجميع بدنه ولم يتقدم عنه إلى الركن اليمانى ولم يرفع يديه ولم يقل نويت بطوافى هذا كذا ولا افتتحه بالتكبير كالصلاة كما يفعله من لاعلم عنده بل هو من البدع المنكرات

ولما استقبل الحجر واستلمه أخذ عن يمينه جاعلا البيت عن يساره وحفظ عنه بين الركنين : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ورمل(٣) فى طوافه هذا ثلاثة الأشواط الأول ، وكان يسرع مشيه ويقارب بين خطاه ، واضطبع برداءه فجعله على أحد كتفيه وأبدى كتفه الآخر ومنكبه وكلما حاذى الحجر الأسود أشار إليه واستلمه

---

(١) أى قصروا شعر الرأس فتقصيره أوحلقه شعار الحل من الإحرام

(٢) اليوم الثامن من ذى الحجة .

(٣) رمل يرمل رملا : أسرع وهرول

بمحجنه وقبل المحجن — والمحجن عصا محنية الرأس — وثبت عنه أنه قبل الحجر نفسه واستلمه بيده واستلم الركن اليمانى ولم يقبله ، وذكر الطبرانى أنه كان إذا استلم الركن اليمانى قال : « بسم الله والله أكبر » وكلما أتى على الحجر الأسود قال : « الله أكبر »

ولما فرغ من أشواط الطواف السبعة جاء إلى خلف المقام فقرأ : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) فصلى ركعتين ، والمقام بينه وبين البيت قرأ فيهما بعد الفاتحة سورتى الإخلاص ثم خرج إلى الصفا ، فلما قرب منه قرأ : (إن الصفا والمروة من شعائر الله[1]) أبدأ بما بدأ الله به ثم رقى عليه حتى رأى البيت استقبله وقال « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده »

ثم نزل إلى المروة يمشى ؛ قال ابن عباس : ولما كثر عليه الناس ركب وكان إذا وصل إلى المروة رقى عليها واستقبل البيت وكبر الله ووحده وفعل كما فعل على الصفا حتى أتم السبعة الأشواط سعيا من غير رمل فى الثلاثة الأولى خاصة ؛ على خلاف الطواف بالبيت .

وهناك أمر كل من لا هدى معه أن يحل حتما — كما تقدم — قارنا كان أو مفرداً[2] وأمرهم أن يحلوا الحل كله من وطء النساء والطيب ولبس

---

(١) (فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) وهما جبلان يمشى الحاج والمعتمر بينهما ويرقى عليهما .

(٢) المفرد : من يحرم بالحج أو العمرة على حدة ، والقارن : من يحرم بهما

المخيط ؛ وأن يبقوا كذلك إلى يوم التروية ولم يحل هو من أجل هديه ، وقال : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى معى حتى أشتريه ؛ ثم أحل كما حلوا .

وكان يصلى مدة مقامه بمكة بمنزله ، فأقام أربعة أيام يقصر الصلاة وتوجه يوم الخميس بمن معه إلى منى فأحرم بالحج من كان أحل منهم ولم يدخلوا إلى المسجد فيحرموا منه بل أحرموا ومكة خلف ظهورهم ، ثم نزل منى فصلى بها الظهر والعصر وبات فيها ليلة الجمعة .

ولما طلعت الشمس صار إلى عرفة وأصحابه منهم الملبى ، ومنهم المكبر وهو يسمع ولا ينكر على أحد فلما أتى عرنة(١) خطب الناس على راحلته خطبة عظيمة قرر فيها قواعد الإسلام وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية وقرر فيها تحريم المحرمات التى اتفقت الملل على تحريمها وهى : الدماء ، والأموال ، والأعراض ؛ ووضع فيها أمور الجاهلية وأوصاهم بالنساء خيراً ؛ وذكر الحق الذى لهن وعليهن ؛ وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله ؛ وأخبر أنهم لن يضلوا ما داموا معتصمين به ! ثم أخبرهم أنهم مسئولون عنه واستنطقهم بماذا يقولون وبماذا يشهدون ؛ فقالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فرفع أصبعه إلى السماء واستشهد الله عليهم

معاً . فإذا أدى أعمال العمرة وتحلل من إحرامه إلى أن جاء الحج فأحرم به سمى (متمتعاً) قال تعالى : (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة . ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ، واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب)

(١) واد حذاء عرفات وليس من الموقف

ثلاث مرات ؛ وأمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم .

ووقف بعرنة وخطب خطبة واحدة ولم تكن خطبتين ، جلس بينهما فلما أتمها أمر بلالا فأذن ثم أقام الصلاة فصلى الظهر ركعتين أسرّ فيهما بالقراءة ؛ وكان يوم الجمعة فدل على أن المسافر لا يصلى جمعة ؛ ثم أقام فصلى العصر ركعتين كذلك ومعه أهل مكة وصلوا بصلاته قصراً وجمعاً بلا ريب ؛ ولم يأمرهم بالإتمام ولا بترك الجمع .

ومن قال إنه قال لهم أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر فقد غلط فيه غلطا بيناً ووهم وهماً قبيحاً .

وإنما قال لهم ذلك فى غزاة الفتح بجوف مكة حيث كانوا فى ديارهم مقيمين — ولهذا كان أصح أقوال العلماء أن أهل مكة يقصرون ويجمعون بعرفة ، كما فعلوا مع النبى صلى الله عليه وسلم .

وفى هذا أوضح دليل على أن سفر القصر لا يتحدد بمسافة معلومة ولا بأيام معلومة ؛ ولا تأثير للنسك فى قصر الصلاة البتة وإنما التأثير لما جعله الله سبباً وهو السفر . هذا مقتضى السنة ولا وجه لما ذهب إليه المحدّدون .

فلما فرغ من صلاته ركب حتى أتى الموقف فى ذيل الجبل عند الصخرات واستقبل القبلة على بعيره ثم أخذ فى الدعاء والتضرع إلى غروب الشمس ؛ وأخبر الناس أن عرفة لا تختص بموقفه ذلك بل قال : «وقفت هاهنا وعرفة كلها موقف» ؛ وأرسل إلى الناس أن يكونوا على مشاعرهم ويقفوا بها فإنها من إرث أبيهم إبراهيم . وهناك أقبل ناس من أهل نجد فسألوه عن الحج فقال «الحج يوم عرفة ، ومن أدرك قبل صلاة الصبح فقد أدرك

الحج ، أيام منى ثلاثة ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ » . وأخبر أن خير الدعاء يوم عرفة ؛ وكان فى دعائه رافعاً يديه إلى صدره كاستطعام المسكين .

ومن دعائه فى الموقف :

«اللهم لك الحمد كالذى نقول وخيراً مما نقول ؛ اللهم لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى وإليك مآبى ولك تراثى ، اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصدر وشتات الأمر ، اللهم إنى أعوذ بك من شرّ ما تجىء به الريح» ؛ ذكره الترمذى .

وهناك نزلت عليه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ . وسقط رجل من المسلمين عن راحلته هناك وهو محرم فمات فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكفن فى ثوبيه ولا يمس بطيب وأن يغسل بماء وسدر ولا يغطى رأسه ولا وجهه ، وأخبر أن الله تعالى يبعثه يوم القيامة يلبى .

ولما استحكم غروب الشمس أفاض من عرفة وأردف أسامة بن زيد خلفه وهو يقول : «أيها الناس عليكم السكينة فإن البر ليس بالايضاع» — أى ليس بالاسراع — وأفاض من طريق المأزمين ؛ وكان قد دخل من طريق ضب — وهكذا كانت عادته فى الأعياد أن يخالف الطريق وقد تقدم حكمة ذلك عند الكلام على هديه فى العيد .

ثم جعل يسير سيراً ليس بالبطىء ولا السريع وهو يلبى ولا يقطع

التلبية حتى وصل المزدلفة : توضأ للصلاة ثم أمر بالأذان فأذن وأقام وصلى المغرب قبل حط الرحال ؛ فلما حطوها أمر فأقيمت الصلاة فصلى العشاء فلم يصل بينهما شيئاً ، وصلاهما بأذان وإقامتين كما فعل بعرفة ، ثم نام حتى أصبح ولم يحى تلك الليلة ولا صح عنه فى إحياء ليالى العيد شىء ؛ وأذن فى تلك الليلة لضعفة أهله أن يتقدموا إلى منى قبل طلوع الفجر ؛ وأمرهم ألا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس — وهذا الذى صححه الترمذى وغيره .

وقد ورد فى بعض الروايات «الرمى مع الفجر» ، ولا تعارض مادام هناك مشقة كبيرة على الرامى بعد الشمس كازدحام المرأة وكبير السن والمريض فإنهم يعجلون قبل ذلك ولا حرج عليهم .

فلما طلع الفجر صلاها ؛ ثم ركب حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة ودعا الله وذكره حتى أسفر (١) وانطلق مردفاً للفضل بن عباس ، وهو يلبى فى مسيره وأسامة على رجليه فى سباق قريش . وفى طريقه هذا أمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار بسبع حصيات فجعل ينفضهن فى كفه ويقول : « أمثال هؤلاء فارموا ؛ وإياكم والغلوّ فى الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلوّ فى الدين » . وفى طريقه تلك عرضت له امرأة من خثعم

---

(١) قال تعالى : (فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إنّ الله غفور رحيم . فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً ، فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب)

جميلة فسألته عن الحج عن أبيها ، وكان شيخا كبيرا لا يستمسك على الراحلة ؛ فأمرها أن تحج عنه . وجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فوضع يده على وجهه وصرفه عنها ؛ وكان الفضل وسيما .

فلما أتى وادى محسر[1] حرك ناقته وأسرع كعادته فى المواضع التى نزل فيها بأس الله بأعدائه . فإن هنالك أصاب أصحاب الفيل ماقصه الله علينا إذ حسر الفيل وانقطع عن الذهاب

وسلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى منى فأتى جمرة العقبة فوقف فى أسفل الوادى واستقبل الجمرة فرماها راكبا بعد الشمس واحدة بعد واحدة يكبر مع كل حصاة . وحينئذ قطع التلبية وبلال وأسامة معه أحدهما آخذ بخطام ناقته والآخر يظله بثوب من الحر وفى هذا دليل على جواز استظلال المحرم

ثم رجع إلى منى فخطب الناس خطبة بليغة أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وفضله وحرمة مكة على جميع البلاد ؛ وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله وأخذ مناسكهم عنه

وقال «لعلى لا أحج بعد عامى هذا وعلمهم مناسكهم» وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض : وأمر بالتبليغ عنه وأخبر أنه «رب مبلغ أوعى من سامع»

وقال «لا يجنى جان إلا على نفسه ؛ اعبدوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم» وودع حينئذ الناس فقالوا :

---

(١) موضع بمنى بين عرفات ومكة

حجة الوداع !! وهناك سئل عن تقديم الرمى والذبح والحلق بعضها على بعض فقال : لاحرج — ذكره ابن عباس وغيره . ثم انصرف إلى المنحر بمنى فنحر ثلاثا وستين بدنة بيده — عدد سنى عمره — قائمة معقولة(١)

ثم أمسك وأمر علياً أن ينحر مابقى من المائة وأمره أن يتصدق بجلالها ولحومها وجلودها فى المساكين ؛ ولا يعطى الجزار فى جزارتها شيئا منها : وقال : نحن نعطيه من عندنا ، وقال : من شاء اقتطع .

عن ابن عباس : نحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام الحديبية البدنة عن سبعة : والبقرة عن سبعة . خرجه الصحيحان . وعن جابر أنهم نحروا البدنة فى حجهم مع رسول الله عن عشرة — على شرط مسلم . وثبت أنه صلى الله عليه وآله وسلم ضحى عن نسائه وهن تسع ببقرة ونحر صلى الله عليه وآله وسلم بمنى وأعلمهم أن منى كلها منحر ، وأن فجاج مكة طريق ومنحر .

ولما أتم النحر استدعى الحلاق فأمره أن يأخذ جانبه الأيمن ، ثم

---

(١) البدنة بفتح الباء والدال : الناقة السمينة جمعها (بدن) بضم الباء وسكون الدال ، قال تعالى : (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم وبشر المحسنين) فمعنى صواف مصفوفة ، ومعنى وجبت جنوبها : سقطت على الأرض وذلك بعد نحرها والمعتر : هو الذى تعتريه الحاجة . والقانع : هو المحتاج الذى يقنع بما يسد حاجته ولا يسأل الناس إلحافا

الأيسر ، وحلق كثير من الصحابة وقصر بعضهم . قال تعالى . ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ وفى هذا دليل على أنّ الحلق نسك ؛ وليس بإطلاق من محظور .

ثم أفاض إلى مكة قبل الظهر راكباً فطاف طواف الإفاضة ولم يطف غيره ولم يسع معه ولم يرمل فيه ولا فى طواف الوداع كما رمل فى طواف القدوم .

ولما قضى طوافه أتى إلى زمزم وهم يسقون فقال : « لولا أن يغلبكم الناس لنزلت فسقيت معكم » ثم ناولوه الدلو فشرب وهو قائم ثم رجع إلى منى فبات بها ،

ولما أصبح انتظر زوال الشمس ثم مشى إلى الجمار فبدأ بالجمرة الأولى التى تلى مسجد الخيف فرماها بسبع حصيات واحدة بعد واحدة يقول مع كل حصاة : الله أكبر ؛ ثم يقدم على الجمرة فيستقبل القبلة ويرفع يديه ويدعو الله طويلا ، وكذلك فعل فى الجمرة الثانية والثالثة وهى جمرة العقبة ولم يرمها من أعلاها كما يفعل الجهال ؛ ولا جعلها عن يمينه واستقبل البيت وقت الرمى ؛ كما ذكره غير واحد من الفقهاء .

ولما رمى جمرة العقبة رجع من فوره ولم يقف عندها يدعو ؛ إذ دعاؤه كان كله فى نفس العبادة قبل الفراغ منها .

وخطب صلى الله عليه وآله وسلم الناس بمنى خطبة ثانية اليوم الثانى من النحر كما ذكر أبو داود ، وفيه نزل عليه سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾

وعرف أنه الوداع وأخبر الناس — كما ذكر البيهقي — ولم يتعجل في يومين بل تأخر حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة ؛ وأفاض يوم الثلاثاء بعد الظهر

ولما وصل مكة طاف الوداع ليلا سحراً ولم يرمل في هذا الطواف ؛ وأخبرته صفية أنها حائض فقال : أحابستنا هي ؟ فقالوا له إنها قد أفاضت قال : فلتنفر إذاً ؛ ورحل إلى المدينة .

وقد رخص للعباس أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل سقايته ؛ ولرعاة الإبل أن يبيتوا خارج منى عند إبلهم ؛ ورخص لهم أن يرموا يوم النحر ثم يجمعوا رمي يومين بعده يرمونه في أحدهما .

وفي أثناء ارتحاله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة لقي ركباً بالروحاء فرفعت امرأة صبياً لها من محفة (١) فقالت يارسول الله : ألهذا حج ؟ قال نعم ! ولك أجر .

فلما أتى ذا الحليفة بات بها ؛ فلما رأى المدينة كبر ثلاث مرات وقال : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ؛ له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ثم دخلها نهاراً والله أعلم (٢)

---

(١) مركب للنساء كالهودج إلا أنها لا تقبب .

(٢) يجب أن يتنبه المسلمون إلى الحج وأسراره ويعرفوا أن الله تعالى جعله مؤتمراً عاماً يأتون إليه من كل البلاد ليتعارفوا بعضهم مع بعض ويوقف كل منهم الآخر على حالة أمته وبلاده ؛ ثم يتشاوروا ويقرروا توحيد العمل الذي يعملونه لترقية أمتهم وحمايتها من كل أجنبي يطمع فيها ؛ ويتعاهدوا أمام الله في بيت الله على أن ينصروه ويعلوا كلمته . وتالله لو فقه الحجاج هذا السر وعملوا به لما ضعف المسلمون

هديه صلى الله عليه وسلم فى الهدايا والضحايا والعقيقة

وهى مختصة بالأزواج الثمانية المذكورة فى سورة الأنعام ، ولم يعرف عنه ولا عن الصحابة هدى ولا أضحية ولا عقيقة من غيرها . وهذا مأخوذ من القرآن من مجموع أربع آيات إحداها قوله تعالى ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ والثانية قوله تعالى ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ والثالثة قوله تعالى ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ — ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ثم ذكرها (١) والرابعة قوله تعالى ﴿هَدْيًا

ولما استعبدتهم دول الاستعمار . وماذا نصنع وقد أصبح الحاج يذهب ليقال ياعم الحاج أو يا خالتى الحاجة !! وقد رأيت كثيراً من أهل جاوة يحجون ليأتوا بعمامة حجازية مبروكة أو اسم شريف أو غير هذا مما يبكينا ويجعلنا نأسف على حالنا ! ولعل ما وقع من الحوادث فى الشرق والغرب ينبه المسلمين إلى التمسك بالدين والبحث عن أسراره والعمل على التضامن والاتحاد وكل ما يجمع شملهم ويجعلهم كتلة واحدة أمام أعدائهم الذين لا يغفلون عن كيدهم والقضاء عليهم . ومن يرد أن يقف على ماتدبره دول الاستعمار لمحق الإسلام والمسلمين فيقرأ ما كتبته فى كتاب « الاستقلال التام فى الكتب المقدسة » .

(١) ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قال آلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئونى بعلم إن كنتم صادقين ؟ ! ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ ! فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضلّ الناس بغير علم إنّ الله لا يهدى القوم الظالمين »

بَالِغَ الْكَعْبَةِ (١) ﴾ فدلّ على أنّ الذى يبلغ الكعبة من الهدى هو هذه الأزواج الثمانية — وهذا استنباط على بن أبى طالب رضى الله عنه

والذبائح التى هى قربة إلى الله وعبادة ثلاثة : الهدى والأضحية والعقيقة فأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنم ، وأهدى الإبل وأهدى عن نسائه البقر

وشرك بين أصحابه فى الهدى ، كما تقدّم ، البدنة عن سبعة والبقرة كذلك وأباح لسائق الهدى ركوبه بالمعروف حتى يجد ظهراً غيره(٢)

وأباح لأمته أن يأكلوا من هداياهم وضحاياهم ويتزوّدوا منها(٣)

وذكر أبو داود من حديث جبير بن نفير عن ثوبان قال : ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال يا ثوبان : أصلح لنا هذه الشاة فما زلت أطعمه منها حتى قدم المدينة — وروى مسلم هذه القصة أيضا

وكان ربما قسم لحوم الهدى ؛ وربما قال : من شاء اقتطع ؛ وكان يذبح هدى العمرة عند المروة وهدى القران بمنى وكذلك ابن عمر .

ولم ينحر إلا بعد أن حل يوم النحر بعد طلوع الشمس والرمى فكان ترتيبه صلى الله عليه وآله وسلم فى هذه الأربعة هكذا : الرمى ، ثم النحر

---

(١) « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة » .

(٢) قال تعالى : (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق) .

(٣) قال تعالى : (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) .

ثم الحلق ، ثم الطواف ؛ ولم يرخص فى النحر قبل طلوع الشمس البتة .

الأضحيـــة

كان يضحى بكبشين ينحرهما بعد صلاة العيد ؛ وأخبر أنّ من ذبح قبل الصلاة فليس من النسك فى شىء . وإنما هو لحم قدمه لأهله (١) دلت على ذلك السنة ـ كما تقدّم فى صدقة الفطر .

وكان من هديه اختيار الأضحية وسلامتها من العيوب ؛ ويضحى فى المصلى والشاة تجزى عن الرجل وأهل بيته ولو كثر عددهم . قال عطاء بن يسار سألت أبا أيوب الأنصارى كيف كانت الصحابة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال : كان الرجل يضحى بالشاة عنه وعن أهل بيته فيأكلون ويطعمون : قال الترمذى حديث حسن صحيح .

العقيقة

فى الموطأ قالوا يارسول الله ينسك أحدنا عن ولده ؟ فقال من أحب منكم أن ينسك عن ولده فليفعل : عن الغلام شاتان وعن الجارية شاة ؛ وقال : كل غلام رهينة بعقيقة تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه ويسمى وذكر رهينة لتقوية الترغيب . وصح عنه أنه عق عن الحسن بكبش وعن الحسين بكبش ؛ وكان مولد الحسن عام أحد ؛ ومولد الحسين فى العام القابل منه — روى ذلك ابن عباس وأنس .

---

(١) عملا بقوله تعالى : (فصل لربك وانحر) وقد تساهل الناس فى الأضحية كغيرها من شعائر الدين فكثير منهم يذبح فى العيد ؛ ولكن لايضحى لأنه يذبح ليلة العيد ليتعشى هو وأولاده . . .

ومن يذبح يوم العيد لا يراعى أنها شعائر ولا يطعم منها البائس الفقير كما قال الله

وأحاديث الشاتين عن الغلام والشاة عن الأنثى أولى أن يؤخذ بها لأنها من قوله صلى الله عليه وآله وسلم وقوله عام وفعله يحتمل الاختصاص وقصة الحسن والحسين يحتمل أن يراد بها بيان جنس المذبوح : وأنه من الكباش لا تخصيصه بالواحد .

ذكر أبو داود عن أبي رافع قال : رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أذن في أذن الحسن بن علي حين ولدته أمه فاطمة بالصلاة

هديه صلى الله عليه وسلم في الأسماء والكنى

لما كانت الأسماء قوالب للمعاني ولابد أن يكون بينهما ارتباط وتناسب استحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الاسم الحسن ، وثبت عنه أنه قال : « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ؛ وأصدقها حارث وهمام ؛ وأقبحها حرب ومرة » وصح أنه قال : « لا تسمين غلامك يسارا ولا رباحا ولا نجيحاً ولا أفلح ؛ فإنك تقول أثمة هو ؟ فلا يكون فيقول لا » ثبت أنه غير اسم عاصية وقال : أنت جميلة إلى غير ذلك حتى كان يأمرهم إذا أبردوا إليه بريداً أن يكون حسن الاسم حسن الوجه .

وكان هديه صلى الله عليه وآله وسلم تكنية من له ولد ومن لا ولد له وقد كنى صهيباً بأبي يحيى ؛ وعلياً بأبي الحسن .

هديه صلى الله عليه وآله وسلم عند دخوله منزله

كان يدخل على أهله على علم منهم فلم يفاجئهم بغتة ؛ وإذا دخل سلم عليهم وربما قال : هل عندكم من غداء ؟ وربما سكت حتى يحضر بين يديه ما تيسر وثبت عنه أنه قال لأنس : « إذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك

أو على أهلك » قال الترمذى حديث حسن صحيح . وصح عنه « إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء ؛ وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان : أدركتم المبيت ؛ وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء » ذكره مسلم .

هديه صلى الله عليه وسلم فى الأذان وأذكاره

ثبت عنه أنه سن التأذين بترجيع ؛ وغير ترجيع وشرع الإقامة مثنى وفرادى ، ولكن الذى صح عنه تثنية كلمة الإقامة — قد قامت الصلاة — ولم يصح عنه إفرادها البتة ، وكذلك الذى صح عنه تكرار لفظ التكبير فى أول الأذان أربعاً ، ولم يصح عنه الاقتصار على مرتين .

وأما حديث أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة فلا ينافى الشفع بأربع ، وقد صح الترجيع صريحاً فى حديث عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب وأبى محذورة رضى الله عنهم .

وأما إفراد الإقامة فقد صح عن ابن عمر استثناء كلمة الإقامة فقال : إنما كان الأذان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرتين مرتين ؛ والإقامة مرة مرة ؛ غير أن يقول : قد قامت الصلاة ؛ قد قامت الصلاة .

وفى صحيح البخارى عن أنس : أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة — إلا الإقامة — وصح فى حديث عبد الله بن زيد وعمر فى الإقامة : قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة . وصح فى حديث أبى محذورة تثنية كلمة الإقامة مع سائر كلمات الأذان .

وكل هذه الوجوه جائزة مجزية لا كراهة فى شىء منها — وإن كان بعضها أفضل من بعض [١] .

---

(١) على هذا يكون الأذان هكذا : —

«الله أكبر مرتين» أو أربعاً «أشهد أن لا إله إلا الله» مرتين «أشهد أنّ محمداً رسول الله» مرتين «حىّ على الصلاة» مرتين «حىّ على الفلاح» مرتين «الله أكبر» مرتين «لا إله إلا الله» مرة واحدة . وفى الإقامة يزيد كلمة «قد قامت الصلاة : بعد حىّ على الفلاح» . إلى هنا تكون هذه الألفاظ هى المتفق عليها لا يجوز النقص منها ولا الزيادة فيها لأنها من العبادات التى بينها الرسول صلى الله عليه وسلم بالوحى فالتغيير فيها إخلال بها . ومن الناس من يزيد بعد الأذان كالصلاة والتسليم الذى أصبح العوام يعتقدون أنه من الأذان لمداومة المؤذن عليه ولجهره به بشكل الأذان حتى أنهم لم يسمعوا الأذان أذاناً مجردا من الزيادة إلا فى المغرب — وفى الصبح يكون التسليم قبل الأذان ، فإذا جاء مؤذن بالصلاة والتسليم فى المغرب أو نقله من قبل الأذان إلى آخره فى الصبح ترى العوام يصيحون به وينكرون عليه كما لو وجدوه يترك التسليم فى الظهر أو العصر ! وهذا لأنهم ألفوا هذه الصيغة من الأذان فأصبحوا يرون تغييرها نقصاً فى الدين والعوام لهم عذر لأنهم لا يعرفون الدين إلا من العمل الذى يتوارثونه عن أهل الدين .

وبعض الناس يزيد فى داخل الأذان فيقول : (أشهد أنّ سيدنا محمداً رسول الله) ويعتقد أنّ لفظ (سيدنا) هنا تعظيم للنبى صلى الله عليه وسلم حتى إذا أمره أحد بتركه شنع عليه بأنه يكره النبى صلى الله عليه وسلم ويمنع من سيادته والتسليم عليه ! ومنشأ هذا الجهل بتعظيم النبى صلى الله عليه وسلم فإنّ تعظيمه فى اتباعه والعمل بما أمر به وهدى إليه ؛ وقد يكون المؤذن غير متدين فلا يقصد التعظيم وإنما وجد العوام يألفون الزيادة ويفرحون بها فيقولها . إرضاء لهم وخوفاً منهم وكل المتعلمين يعتقدون أنّ هذا زائد فى الأذان ، ولكن منهم من يحسنه كالعوام ومنهم من يقول هذا شىء (تافه) لا تضر زيادته ولا يهم تركه ؛ فالذين يحسنونه

وأمّا هديه صلى الله عليه وآله وسلم فى الذكر عند الأذان وبعده فشرع

لم يفهموا أنّ ذلك لو كان حسنا لكان بلال أولى بأن يدخله فى أذانه أمام الرسول صلى الله عليه وسلم أم أنهم يفهمون أنهم أكثر تعظيما للنبى صلى الله عليه وسلم من خلفائه الراشدين والأئمة المقربين رضى الله عنهم أجمعين :

ولو تأمل هؤلاء لعلموا أنّ كثيرا من الأمور الحسنة إذا وضعها الإنسان فى غير موضعها لا تكون حسنة كمن يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم فى الفاتحة فى الصلاة ؛ أو يزيد ركعة فى الفرض فيصلى المغرب أربعا أو الصبح ثلاثا ومثل هذا فالخير يكون كما رسم الشارع .

وأمّا الذين يقولون : إنّ هذا أمر (تافه) فلو حسن التفاهم معهم لعلموا أنّ المسألة فتح باب الزيادة والنقص بحسب ما يرى الناس من التعظيم والناس مختلفون فى آرائهم واستحسانهم ، فعندئذ يصير الدين (بهذا الشىء التافه) آراء ويتفرق الناس فيه بحسب تفرقهم فى الرأى والمزاج والاستحسان ، والمقصود من الدين أن يرتبط المسلمون كلهم بصورة واحدة من العبادات يتفقون عليها فإنهم بمقدار اتفاقهم على شكل العبادة واتحادهم فيها يتقارب بعضهم من بعض ويألف كل منهم الآخر فتتفق قلوبهم تبعاً لاتفاق ألفاظهم وحركاتهم وقيامهم وقعودهم وكل ما تفعله أعضاء الجسم من أعمال الدين .

بذلك تكون النتيجة أنّ المسلمين يؤذنون بألفاظ واحدة ويصلون بشكل واحد وراء إمام واحد إلى قبلة واحدة يعبدون ربا واحداً فالمسلمون شعارهم التوحيد فى كل شىء وهم جسم واحد يتألم كل عضو منه لتألم الآخر .

والمسلمون بهذه التربية الموحدة وهذا التكوين المؤلف الجامع قوة كبرى لا تستطيع أى قوة فى الأرض أن تتسلط عليهم أو تلعب بهم أو تسلبهم استقلالهم أو تفقدهم سلطانهم .

هذه هى الحكمة أيها القوم من اتباع ماورد فى الدين والابتعاد عن الزيادة والنقص (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب — وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)

لأمته منه خمسة أنواع :

(أحدها) أن يقول السامع كما يقول المؤذن إلا فى لفظ حى على الصلاة حى على الفلاح فإنه صح عنه إبدالهما بلا حول ولا قوة إلا بالله

(الثانى) أن يقول : رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا .

(الثالث) أن يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم بعد فراغه من إجابة المؤذن — وأكمل ما يصلى عليه به ويصل إليه كما علمه أمته أن يصلوا عليه فلا صلاة أكمل عليه منها وإن تحذلق المتحذلقون .

(الرابع) أن يقول بعد صلاته عليه : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محموداً الذى وعدته إنك لاتخلف الميعاد .

(الخامس) أن يدعو لنفسه بعد ذلك ويسأل الله من فضله فإنه يستجاب له كما فى السنن ، وذكر عنه أنه كان يقول عند كلمة الإقامة أقامها الله وأدامها ، وفى السنن عنه : الدعاء لايرد بين الأذان والإقامة ؛ قالوا فما نقول ؟ قال : سلوا الله العافية فى الدنيا والآخرة .

هديه صلى الله عليه وسلم فى السلام

فى الصحيحين : «إنّ أفضل الإسلام وخيره إطعام الطعام وأن تقرئ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» قال البخارى فى صحيحه عن عمار : ثلاث من جمعهنّ فقد جمع الإيمان : الإنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم ، والإنفاق من الإقتار .

وثبت عنه أنه مرّ بصبيان فسلم عليهم ؛ ذكره مسلم . وذكر الترمذى فى جامعه أنه مرّ يوماً بجماعة نسوة فأومى بيده للتسليم ، وفى صحيح البخارى وغيره : يسلم الصغير على الكبير ؛ والمار على القاعد ؛ والراكب على الماشى ؛ والقليل على الكثير .

وكان من هديه السلام على القوم عند المجىء إليهم والانصراف عنهم وقال : «إذا قعد أحدكم فليسلم ؛ وإذا قام فليسلم ؛ وليست الأولى أحق من الآخرة» . وقال : «من بدأكم بالسؤال قبل السلام فلا تجيبوه» .

وكان هديه (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ولم يرد السلام بيده ولا رأسه ولا أصبعه إلا فى الصلاة — كما رواه أنس وجابر وغيرهما .

وكان يقول فى الردّ : وعليك السلام — بالواو ؛ وبتقديم عليك على السلام — وهو الصواب .

وثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه مرّ على مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين فسلم عليهم .

وكان من هديه إذا بلغه أحد السلام عن غيره أن يردّ عليه وعلى المبلغ ؛ ذكره أصحاب السنن .

وكان يترك السلام ابتداء وردّا على من أحدث حدثاً حتى يتوب منه ؛ كما هجر كعب بن مالك وصاحبيه ؛ وهجر زينب شهرين وبعض الثالث لما قال لها . تعطى صفية طهراً لما اعتل بعيرها فقالت : أنا أعطى تلك اليهودية — ذكرهما أبو داود .

هديه صلى الله عليه وسلم فى العطاس

ذكر أبو داود عن أبى هريرة كان رسول صلى الله عليه وسلم إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه وخفض ، أو غض به ؛ صوته . قال الترمذى حديث صحيح ؛ ويذكر عنه «أنّ التثاؤب الرفيع والعطاس الشديد من الشيطان وأنّ الله يكرههما»

وصح عنه أنه عطس عنده رجل فقال له : يرحمك الله ؛ ثم عطس أخرى فقال : الرجل مزكوم — هذا لفظ مسلم .

وثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم «إنّ الله يحب العطاس ويكره التثاؤب فإذا عطس أحدكم وحمد الله كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول : يرحمك الله» وأمّا التثاؤب فإنما هو من الشيطان ، فإذا تثاءب أحدكم فليردّه ما استطاع فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان : ذكره البخارى : وذكر إذا عطس أحدكم فليقل الحمدلله وليقل له أخوه : يرحمك الله : وليقل له هو : يهديكم الله ويصلح بالكم .

وفى صحيح مسلم : «حق المسلم على المسلم ست — إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس وحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه» .

هديه صلى الله عليه وسلم فى الاستئذان

كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول : السلام عليكم السلام عليكم . وصح

عنه : «الاستئذان ثلاث ، فإن أذن لك وإلا فارجع» وصح عنه أنه أراد أن يفقأ عين الذى نظر إليه من جحر فى حجرته ، وقال : « إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»

وصح عنه « لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح » وقال « من اطلع على قوم فى بيتهم بغير إذنهم ففقأوا عينه فلا دية له ولا قصاص»

واستأذن عليه رجل فقال له : قل السلام عليكم ، أأدخل[1]

---

(١) قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم . ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ؛ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) .

وبعض الجاهلين يظنون أنّ الاستئذان من مبتكرات الإفرنج مع أنه كغيره من الآداب القومية من آدابنا ، ومادام أبناؤنا يتربون على آداب الإفرنج ويجهلون آداب أمتهم ودينهم فإنهم يرون أنّ الإفرنج هم أصل الآداب فيحترمونهم ويحتقرون أمتهم ، وفى ذلك مافيه من تقوية الأجانب وإضعاف الأمة بحكم الاعتقاد المؤثر فى العمل ، ولهذا يجب أن يتربى أبناء الأمة فى مدارس الأمة وبين يدى مربين منها على آدابها وأخلاقها ولا بدّ أن يكون كل علم يتعلمونه بلغتها ومصبوغا بصبغتها لينشأ الناشئ من الأمة ويكبر على دين أمته ، ومطبوعا بطابعها فيكون صورة طبق الأصل منها : يسعى لخيرها ويدافع عن كيانها . آه لو كان التعليم والتربية عندنا على هذا النظام الذى أمرنا به ديننا لما كان هذا حالنا من التأخر ولما أصبحنا فاقدين أعز شىء علينا وهو استقلالنا وحريتنا (إنّ فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) .

ومن هديه أنّ المستاذن إذا قيل له من أنت ؟ يقول فلان ابن فلان فيذكر كنيته أو لقبه

هديه صلى الله عليه وسلم فى أذكار النكاح

ثبت عنه أنه علمهم خطبة «الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لاإله إلا الله ، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله» ثم قرأ الآيات الثلاث ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

قال شعبة : قلت لأبى إسحاق هذه فى خطبة النكاح أو فى غيرها ؟ قال فى كل حاجة .

وقال : إذا أفاد أحدكم امرأة أو خادماً أو دابة فليأخذ بناصيتها وليدع الله بالبركة ويسمى الله عزّ وجل وليقل «اللهم إنى أسألك خيرها وخير ماجبلت عليه وأعوذ بك من شرها وشر ماجبلت عليه»

وكان يقول للمتزوج : « بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما فى خير » .

وقال : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره شيطان أبداً » .

هديه صلى الله عليه وسلم فيما يعجبه أو يكرهه

عن أنس : « ماأنعم الله على عبد نعمة فى أهل ولا مال أو ولد فيقول : ماشاء الله لاقوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت » . وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَاشَاءَ اللَّهُ لَاقُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

وصح عنه : « الرؤيا الصالحة من الله ، والرؤيا السوء من الشيطان ، فمن رأى ما يكره فلينفث عن يساره وليتعوذ من الشيطان ولا يخبر به أحداً ، ومن رأى حسنة فليستبشر وليخبر من يحب » .

قسم الجهاد والحرب

الجهاد أربع مراتب : جهاد النفس ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار ، وجهاد المنافقين .

فجهاد النفس أربع : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذى لاسعادة لها فى معاشها ومعادها إلا به ، وأن يجاهدها على العمل به بعد علمه ، وأن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لايعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ماأنزل الله من البينات والهدى ولاينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله ، وأن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق . فمن يستكمل هذه المراتب الأربع يكن من الربانيين .

وأما جهاد الشيطان فمرتبتان : جهاده على دفع مايلقى من الشبهات والشكوك القادحة فى الإيمان ، وجهاده على مايلقى من الإرادات والشهوات فالجهاد الأول يكون بعده اليقين ، والثانى بعد الصبر ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ . فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين . فالصبر يدفع الشهوات والإرادات ، واليقين يدفع الشكوك والشبهات .

وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب : بالقلب ، واللسان ، والمال ، والنفس ، ومن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق ، ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان .

والراجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة قال تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

ففرض على كل أحد هجرتان فى كل وقت : هجرة إلى الله عز وجل بالتوحيد ، والإخلاص ، والإنابة ، والتوكل ، والخوف ، والرجاء ، والمحبة ، والتوبة ، وهجرة إلى رسوله بالمتابعة والانقياد لأمره وتقديم خبره على خبر غيره ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ماهاجر إليه

وفرض عليه جهاد نفسه فى ذات الله ، وجهاد شيطانه . وكل هذا فرض عين ولا ينوب فيه أحد عن أحد .

وأما جهاد الكفار والمنافقين فقد يكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود ، وأكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد كلها ، والخلق متفاوتون فى منازلهم عند ربهم تفاوتهم فى مراتب الجهاد .

ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم فإنه كمل مراتب الجهاد وجاهد فى الله حق جهاده من حين بعث إلى أن توفاه الله عز وجل ، فإنه لما نزل عليه ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ قام فى ذات الله أتم قيام ودعا إلى الله ليلا ونهاراً وسراً وجهاراً . فلما نزل ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ صدع لا تأخذه فى الله لومة لائم . ولما صرح لقومه بالدعوة وناداهم بسب آلهتهم وعيب دينهم اشتد أذاهم عليه ومن استجاب له : وهذه سنة الله فى خلقه كما قال تعالى : ﴿مَا يُقَالُ لَكَ

إِلَّا مَاقَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ﴿ كَذٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ أَتَوَاصَوْا بِهِ ! بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ فعزى سبحانه نبيه بذلك وعزى أتباعه بقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ وقوله : ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ — إلى قوله : وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ وكان مما صنع الله أن الأوس والخزرج يسمعون من يهود المدينة أن نبياً من الأنبياء مبعوث فى هذا الزمان فنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم وكان الأنصار يحجون البيت كالعرب دون اليهود ، فلما رأوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدعو الناس إلى الله عز وجل وتأملوا أحواله ، قال بعضهم لبعض : تعلمون والله ياقوم أن هذا الذى توعدكم به يهود المدينة فلا يسبقنكم إليه فخالفوه جميعاً على أن ينصروه ؛ وهاجر إليهم بعد أن أقام بمكة ثلاث عشرة سنة يجاهد القوم بالقرآن كما قال تعالى : ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (١).

---

(١) كان الجهاد بالقرآن لأن الغرض من الدين جذب الناس إلى الأعمال النافعة بالاختيار ، ولا يكون ذلك إلا بالبراهين والمواعظ التى تقبلها عقولهم وتطمئن بها نفوسهم ، ولم يكن الغرض من الدين جبر الناس وإكراههم على العقيدة ، لأن

آخى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ووادع من فى المدينة من اليهود ، وكانوا ثلاث قبائل — بنو قينقاع ، وبنو النضير وبنو قريظة وكتب بينه وبينهم كتاباً فخانوه وحاربوه وظاهروا مشركى العرب عليه ،

الإكراه على العقيدة لا يوجد الإقناع بها ولا ينتج العمل المطلوب منها ، ولذا يقول الله : (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغىّ) . ويقول : (إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) . ويقول : (وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) . ويقول : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) . وأما الجهاد بالسيف والقوة الحربية فقد شرع فى الدين لحماية الدعوة والدفاع عن الأمة والبلاد لا للإكراه على الاعتقاد لما علمت ، ولا للاعتداء على غير المعتدين . قال تعالى : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلا أن يقولوا ربنا الله ! ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوىّ عزيز) . وقال : (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحبّ المعتدين) . وقال : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) . والفتنة هى ما يعمله الكفار لتنفير الناس من الدين وصدّهم عنه . وقال : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتقين ، وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين) . وذكر الإنفاق هنا بمناسبة القتال والحرب لأنّ الجيش المحارب يحتاج إلى إنفاق المال عليه بسعة وسخاء ليكون على الدوام قوياً . فالأمة من غير جيش قوىّ تكون عرضة للتهلكة والضياع يطمع فيها الطامعون من الأجانب ويبتلعها المبتلعون من الأعداء . قال تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون) .

فمنّ على بنى قينقاع وأجلى بنى النضير فنزلت فيهم سورة الحشر ، وقتل بنى قريظة وفيهم نزلت سورة الأحزاب .

غزواته صلى الله عليه وسلم (١)

غزوة بدر

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر العير المقبلة من الشام لقريش صحبة أبى سفيان . وهى العير التى خرجوا فى طلبها لما خرجت من مكة

---

(١) كانت غزواته نحو سبع وعشرين كلها بعد الهجرة ـ ولم يقاتل مشركى العرب إلا لأنهم أخرجوه من وطنه ، ولا يزال فى حرب معهم حتى يتركوه حرّاً فى بلاده ولا يصادروه فى نشر دعوته ، ولم يأذن الله له بالقتال إلا بعد أن أخرج هو وأصحابه من ديارهم وأموالهم . قال تعالى : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) .

فالرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يحارب الأعداء ولم يغزهم انتقاما لشخصه ولا طمعا فى أموالهم ولكن دفاعا عن الدين والحرية ـــ وإذا لم يكن الإنسان حرّاً فى إظهار دينه وإصلاح أمته وبلاده فخير له أن يموت عزيزاً ولا يعيش ذليلا .

هذا وإن الحرب يتغير نظامها وآلاتها بتغير الأيام والعصور ويتجدد بتجدد الاكتشافات والفنون ، وهى من القسم الذى جاء فيه الدين بالأصول والقواعد العامة كقوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) . وقوله : (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) . وقوله : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) . وقوله : (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء) . وقوله : (إن الله يحبّ الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) . وقوله : (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون) .

وغير ذلك مما تراه ممثلا فى غزوات الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أصول الأخلاق والسياسة .

وكانوا نحو أربعين رجلا وفيها أموال عظيمة لقريش ، فندب رسول الله الناس للخروج إليها ، وخرج فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا لم يكن معهم من الخيل إلا فرسان .

وكان معهم سبعون بعيراً يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد فلما قرب من الصفراء بعث بسيس بن عمرو الجهنى وعدى بن الرعباء يتجسسان أخبار العير .

وأما أبو سفيان فإنه بلغه خروج رسول الله وقصده إياه ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى إلى مكة مستصرخاً لقريش بالنفير إلى عيرهم ليمنعوها من محمد وأصحابه . وبلغ الصريخ أهل مكة فنهضوا مسرعين وأوعبوا فى الخروج فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبى لهب فإنه عوض عنه رجلا كان له عليه دين وحشدوا من حولهم من قبائل العرب ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بنى عدى ، وخرجوا من ديارهم كما قال الله : ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ .

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خروج قريش استشار أصحابه (١) فتكلم المهاجرون فأحسنوا ، ثم استشارهم ثانياً فتكلموا أيضاً فأحسنوا ، ثم استشارهم ثالثا ففهمت الأنصار أنه يعنيهم ، فبادر سعد بن معاذ فقال : يارسول الله كأنك تعرض بنا .

وكان إنما يعنيهم لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود فى

---

(١) وكان يستشيرهم فى كلّ الأمور العامة عملا بقوله تعالى : (وشاورهم فى الأمر) . وقوله : (وأمرهم شورى بينهم) .

ديارهم ، فلما عزم على الخروج استشارهم ليعلم ماعندهم فقال له سعد : لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها ألا تنصرك إلا فى ديارهم ، وإنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ماشئت ، وأعطنا ماشئت ، وما أخذت منا كان أحب الينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك .

وقال له المقداد : لانقول لك كما قال قوم موسى لموسى ﴿ إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ(١) ﴾ . ولكنا نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ،

---

(١) قال ذلك قوم موسى لأنهم جبناء تربوا تحت قراعنة مصر فى ذل واستعباد فماتت فيهم العواطف الوطنية وفقدوا الإرادة والشجاعة وروح الدفاع ، ولما أنقذهم موسى من مصر وسار بهم إلى وطنهم فى الشام قال لهم : ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) . فكان فهمهم أن الجبارين الذين احتلوا أرضهم يخرجون منها من أنفسهم من غير أن تخرجهم قوة . . . وما علموا أن (الاحتلال) كداء السرطان إذا تمكن من الجسم لايخرج إلا بعمليات جراحية تقطع فيها أجزاء من الجسم ، وهيهات إن تغلغل فيه أن يخرج منه إلا بموته .

(قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً مادامو فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون * قال ربّ إنى لاأملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين * قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) .

ومن بين يديك ، ومن خلفك ، فأشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسرّ بما سمع من أصحابه وقال : « سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، وإنى قد رأيت مصارع القوم » (١)

وخفض أبو سفيان ولحق بساحل البحر . ولما رأى أنه قد نجى وأخذ السير كتب إلى قريش أن ارجعوا فإنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم فأتاهم الخبر بالجحفة فهموا بالرجوع ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نقدم بدراً فنقيم بها ونطعم من حضرنا من العرب وتخافنا العرب بعد ذلك .

وأشار الأخنس بن شريق عليهم بالرجوع فعصوه فرجع هو وبنو زهرة فلم يشهد بدراً زهرى فاغتبطت بنو زهرة بعد برأى الأخنس فلم يزل فيهم مطاعا معظما . وأراد بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل وقال : لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع ، فساروا .

أى جعلهم الله فى التيه فى البادية حتى ينقرض هذا الجيل الجبان ويأتى نسله فينشأ فى حرية البادية بعيداً عن الظلم المميت للإرادة . ويتربى فى وسط النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس فيحيا بالروح الوطنية وينشأ على العزّة والشجاعة والإقدام

(١) قال تعالى : (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم . ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) . والطائفتان — هما الطائفة التى كانت معها العير بالتجارة وليس معها قوّة للحرب وهى غير ذات الشوكة — والطائفة التى جاءت من مكة بطلب أبى سفيان وكانت مستعدّة بالرجال وأدوات الحرب وهى ذات الشوكة . وكان المسلمون يقصدون إلى الطائفة الأولى ولم يعلموا أنّ الطائفة الأخرى ستجىء فأراد الله أن يهلك ذات الشوكة ليحقّ الحقّ ويقطع دابر الكافرين كما قال عزّ وجلّ .

وسار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى نزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر فقال : «أشيروا علىّ فى المنزل» . فقال الحباب بن المنذر يارسول الله أنا عالم بها وبقلبها إن أردت أن نسير إلى قاب قد عرفناها فهى كثيرة الماء عذبة فننزل عليها ونسبق القوم اليها ونغور ماسواها من المياه

وسار المشركون سراعا يريدون الماء .

وبعث علياً وسعداً والزبير إلى بدر يلتمسون الخبر فقدموا بعبدين لقريش سألهما الرسول أين قريش ؟ قالا : وراء هذا الكثيب ، فقال : كم القوم ؟ فقالا لاعلم لنا ، فقال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوما عشراً ويوما تسعا. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « القوم مابين تسعمائة إلى الألف[1]

وأنزل الله عز وجل فى تلك الليلة مطراً واحداً فكان على المشركين وابلا شديداً منعهم من التقدم . وكان على المسلمين طلا طهرهم به وأذهب عنهم رجز الشيطان ووطأ به الأرض وصلب به الرمل وثبت الأقدام ومهد به المنزل وربط به على قلوبهم [2] فسبق رسول الله وأصحابه إلى الماء فنزلوا عليه شطر الليل وصنعوا الحياض . ثم غوروا ماعداها من المياه[3] ونزلوا

---

(١) أنظر بحث الرسول« صلى الله عليه وسلم » وسياسته وفراسته .

(٢) قال تعالى : (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام)

(٣) عمل صلى الله عليه وسلم برأى ابن المنذر الذى أشار به سابقا .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يرى غير مايرى أصحابه فيرجع عن رأيه لرأيهم لأن الأمر مادام ليس من الوحى فقد يكون بعض الصحابة أدرى به .

وفى هذا عبرة للرؤساء الذين يستبدون بالرأى ويحتقرون آراء ذوى الرأى فمن استبد ندم ، ولا يندم من استشار .

على الحياض وبنى لرسول الله عريش يكون على تلّ مشرف على المعركة ، ومشى فى موضع المعركة ، وجعل يشير بيده ويقول : هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان إن شاء الله ، فما تعدّى أحد منهم موضع إشارته .

فلما طلع المشركون وتراءى الجمعان قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اللهم هذه قريش جاءت بخيلها وفخرها ، جاءت تحاربك وتكذب رسولك . فقام ورفع يديه واستنصر ربه وقال : « اللهم أنجز لى ماوعدتنى اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك » . فالتزمه الصديق من ورائه وقال له يارسول الله أبشر ، فوالذى نفسى بيده لينجزن الله لك ماوعدك ؛ واستنصر المسلمون الله واستغاثوه وأخلصوا له وتضرعوا فأوحى إلى ملائكته ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ وأوحى إلى رسوله ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ(١)﴾ قرئ بكسر الدال وفتحها ، فقيل المعنى أنهم ردف لكم ؛ وقيل يردف بعضهم بعضاً أرسالا لم يأتوا دفعة واحدة .

بات رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى إلى جذع شجرة هنالك وكان ليلة الجمعة السابع عشر من شهر رمضان فى السنة الثانية ، فلما أصبحوا أقبلت قريش فى كتائبها واصطف الفريقان فنشبت الحرب وعدل رسول الله الصفوف (٢) ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر ؛ وقام سعد بن معاذ

---

(١) بعد ذلك قال الله تعالى : (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إنّ الله عزيز حكيم) .

(٢) قال الله تعالى : إنّ الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كانهم بنيان

فى قوم من الأنصار على باب العريش يحمونه ، ثم استدارت رحى الحرب

مرصوص) — وقد علم الله المسلمين كيف يضربون الأعداء المحاربين فقال : (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) .

والبنان طرف الأصبع وهذا غاية مافى الأمر بإبادتهم حتى لايتركوا منهم طرف أصبع يبقى ، وفيه الأمر بالدقة فى الحرب وتعليم الرامى والضارب أن يكون على علم بالرمى والضرب حتى يصيب المرمى ولايفوت أحد من يده .

فانظر بلاغة القرآن وأمر الله المؤمنين أن يكونوا بارعين فى علوم الحرب التى يحفظ بها كيان الأمة وقال تعالى : (فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون) . أى اضربهم الضربة التى تجعل من خلفهم إذا رأوها يفرون ولا يقدمون وقال : (ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أومتحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) . وهذا أمر يبعث فى المسلمين روح الشجاعة ويحضهم على مواجهة العدو فى الحرب ولايبيح لأحد منهم أن يعطى ظهره للأعداء إلا إذا كان يريد أن يتحرف أى يعدل نفسه للقتال أو يتحيز ينضم إلى فرقة من إخوانه ولاينبغى له أن يعطى ظهره ليفر أويهرب وينهزم وقال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إنّ الله مع الصابرين * ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراًورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط * وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالاترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب)

وقال تعالى : (ياأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين : وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون * الآن خفف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبون مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين)

واشتد القتال وأخذ رسول الله فى الدعاء والابتهال ومناشدة ربه عزوجل حتى سقط رداؤه عن منكبيه فردّه عليه الصدّيق وقال خفض مناشدتك ربك فإنه منجزلك ماوعدك ، فأغفى رسول الله إغفاءة واحدة وأخذ القوم النعاس فى حال الحرب (١) ثم رفع رسول الله رأسه فقال : أبشر ياأبابكر هذا جبريل على ثناياه النقع ! وجاء النصر وأنزل الله جنده وأيد رسوله والمؤمنين ومنحهم أكتاف المشركين أسراً وقتلا ، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين .

ولما بردت الحرب وولى المشركون منهزمين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من ينظر لنا ماصنع أبوجهل ؟ فانطلق عبد الله بن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد وأخذ بلحيته فقال : أنت أبو جهل ! فقال : لمن الدائرة اليوم ؟ فقال : لله ولرسوله ، وهل أخزاك الله ياعدو الله ؟ ! فقال : وهل فوق رجل قتله قومه ، فقتله عبد الله ثم أتى به الرسول

وفى هذه الآية يبين الله تعالى أنّ من شأن المؤمن الكامل الإيمان أن يغلب عشرة من الكفار فى الحرب وسيكون ذلك بعد أن يقوى المؤمنون فى الإيمان بالأعمال التى تربى فيهم الصبر والإرادة . أمّا الآن فى أوّل الإيمان وابتداء الحرب فإنّ الواحد يغلب اثنين — والآية تخبر عن حالة المؤمن فى الضعف وفى القوة ، وقد فهم بعض الناس أنّ الأمر تكليف من الله للمؤمن فى أوّل الحرب أن يغلب عشراً ثم نسخ ذلك بأن كلفه أن يغلب اثنين ، وليس لهذا الفهم معنى فى الآية ولم يكن الله ليكلف المؤمنين شيئاً ليس فى وسعهم وهو يقول : (وعلم أنّ فيكم ضعفا) ويقول : (لايكلف الله نفسا إلا وسعها) وهو العليم الحكيم فكيف يكلف وينسخ فى الحال ؟ ! . . هذا لايكون .

(١) قال الله تعالى : (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) .

صلى الله عليه وسلم فقال : قتلته فقال : الله الذى لا إله إلا هو فردّدها ثلاثا .

قال : الله أكبر الحمد لله الذى صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، انطلق أرنيه فلما رآه قال : هذا فرعون هذه الأمة .

ولما انقضت الحرب ارتحل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرير العين بنصر الله له ومعه الأسارى والمغانم ، فلما كان بالصفراء قسم المغانم (١) ودخل المدينة مؤيداً منصوراً قد خافه كل عدوّه . فأسلم كثير من أهل المدينة وحينئذ دخل عبد الله بن أبىّ المنافق فى الإسلام ظاهراً .

وجملة من حضر بدراً من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا جاءهم النفير بغتة ولم يكن عزمهم على اللقاء ولا أعدوا له عدة ، ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد (٢) . واستشهد منهم يومئذ أربعة عشر وفرغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من شأن بدر والأسارى فى شوال والقصة فى سورة الأنفال (٣) .

---

(١) قال الله تعالى : (فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم) . وقال تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأنّ لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير) .

(٢) قال الله تعالى : (ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة وإن الله لسميع عليم إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكنّ الله سلم إنه عليم بذات الصدور ، وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور) .

(٣) العبرة من هذه القصة أنّ فئة قليلة غلبت فئة كثيرة قال تعالى : (كم من

غزوة أحد

لما قتل الله أشراف قريش ببدر ، وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلها ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم أخذ يؤلب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى المسلمين فجمع قريباً من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء (١) والأحابيش ؛ وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا ليحاموا عنهن ثم أقبل بهم نحو المدينة فنزل قريبا من جبل أحد بمكان يقال له عينين وذلك فى شوال من السنة الثالثة .

واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه : أيخرج اليهم أم يمكث فى المدينة ؟ وكان رأيه ألا يخرج من المدينة وأن يتحصنوا بها ، فإن دخلوها

فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) .

وذلك نتيجة الإخلاص لله تعالى والاتكال عليه والاستعانة به مع الأخذ بالأسباب التى أمر بها ولا تنس شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسن سياسته وتأمل كيف أجابه أصحابه لما عرض الأمر عليهم — أجابوه بقلوب ملؤها الإيمان ونفوس اطمأنت للدفاع عن عزتها وشرفها ، فما وجدت هذه النفوس فى أمة إلا عزت ، ولن يستطيع كافر أن يتسلط عليها أو يهين كرامتها مهما كانت قوته قال الله تعالى : (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) وقال : (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) . وقال : (ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين) .

(١) ذكرتنى هذه الكلمة كلمة (الحلفاء) بالحلفاء فى أوربة هذه الأيام وما يفعلونه من الكيد لنا والقضاء على استقلالنا ، فقلت : ياسبحان الله تكون هذه الكلمة مصيبة علينا فى كل زمان . وما هؤلاء إلا خلف لأولئك ، أتواصوا به ؟ ! بل هم قوم طاغون .

قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت ووافقه على هذا الرأى عبدالله بن أبيّ فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاتهم الخروج يوم بدر ، وأشاروا عليه بالخروج فنهض ودخل بيته ولبس لامته (١) وخرج فى ألف من الصحابة واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقى فى المدينة فخرج يوم الجمعة .

فلما صار بالشوط بين المدينة وأحد انعزل عبدالله بن أبيّ بنحو ثلث العسكر ؛ وقال : تخالفنى وتسمع من غيرى فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حزام يوبخهم ويحضهم على الرجوع ويقول : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع (٢) فرجع وسبهم . وسأله قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من اليهود فأبى .

ونفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى وجعل ظهره إلى أحد ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم ، فلما أصبح يوم السبت تعنى للقتال وهو فى سبعمائة فيهم خمسون فارساً واستعمل على الرماة — وكانوا خمسين — عبدالله بن جبير وأمره وأصحابه أن يلزموا مركزهم وأن لا يفارقوه ، ولو رأى الطير تتخطف العسكر وكانوا خلف الجيش (٣)

---

(١) لباسه الحربى

(٢) قال الله تعالى : (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون)

(٣) ليحفظوا خط الرجعة على الجيش كما يقول علماء الفن فى الحرب .

فتأمل هذا النظام فى الحرب والعلم به والمنظم هو الرسول صلى الله عليه وسلم الرئيس الدينى . فلعل رؤساءنا يتذكرون وقد وقفوا عليهم وحياتهم على مايعلمون

وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم .

فظاهر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بين درعين يومئذ(١) وأعطى اللواء مصعب بن عمير ، واستعرض الشبان يومئذ فردّ من استصغره عن القتال — وكان منهم عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت وأسيد بن ظهير والبراء بن عازب وزيد بن أرقم وعرابة بن أوس وعمرو

---

(١) الدرع : لبوس من الحديد يتقى به المحارب بأس الحوب . قال الله تعالى فى قصة داود عليه السلام : (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) وقال : وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد ؛ ومعنى سابغات تسبغ من يلبسها أى تعمه وتحيط به حتى تحصنه تمام التحصين من الضربات التى تقع به أو المقذوفات التى تنزل عليه — ومعنى قدر فى السرد نظم فى النسيج وأحكم فى الصناعة .

وهذا يبين أنّ أنبياء الله لم يأتوا للناس بالصوم والصلاة فقط وإنما جاءوهم بكل مايحتاجون إليه فى أمورهم الدنيوية ونظامهم الحيوى وبعض الناس يفهم من قوله . (وألنا له الحديد) أنّ الله ألان الحديد لداود معجزة — أى من غير سبب كونى على فهمهم — وهذا لاحاجة إليه إذ المعجزة التى يقولون عنها يأتى بها النبى للقوم عند مايكذبونه فى الدعوة وهنا يبين الله لنا أنه علم داود الصناعة «لا المعجزة »

ولم لايكون إلهام داود بالتجربة بأن يلين الحديد بالنار هو المعجزة كالمعجزات الصناعية التى تعجزنا بها الآن أوربة وأمريكة ؟ ! ولكن ماذا نصنع فى القوم الذين يجعلون كل مايأتى به الأنبياء من الأعمال معجزات خصهم الله بها ولاسبب لها ولاحاجة لنا إليها — فاللهم فهمنا أسرار دينك حتى نبحث فى سنن الكون ونتعلم الصناعات المفيدة لأمتنا والفنون المقدمة لبلادنا — وقال تعالى : (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون)

ابن حزام (١) — وأجاز من رآه مطيقاً وكان منهم سمرة بن جندب ورافع ابن خديج ولهما خمس عشرة سنة .

وتعبت قريش للقتال — وهم فى ثلاثة آلاف وفيهم مئتا فارس — فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل . ودفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيفه إلى أبى دجانة سماك بن خرشة — وكان شجاعا بطلا يختال عند الحرب — ثم قاتل المسلمون قتالا شديداً .

وكان شعار المسلمين يومئذ : (أمت أمت !) . وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار فانهزم عدو الله وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم ؛ فلما رأى الرماة هزيمتهم تركوا مركزهم الذى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحفظه وقالوا ياقوم : الغنيمة ! الغنيمة ! فذكرهم أميرهم عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يسمعوا وظنوا أن ليس للمشركين رجعة فذهبوا فى طلب الغنيمة وأخلوا الثغر .

وكر فرسان المشركين فوجدوا الثغر خالياً قد خلا من الرماة فجازوا منه وتمكنوا حتى أقبل آخرهم فأحاطوا بالمسلمين فأكرم الله من أكرمهم منهم بالشهادة وهم سبعون ، وولى الصحابة .

---

(١) تأمل كيف كان الصغار عن القتال يهرعون إليه ويجودون بأرواحهم حبا فى الله ورسوله ودفاعا عن دينهم وشرفهم فهم صغار الأجسام لكنهم كبار النفوس ! وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

ونحن إذا أخذوا منا رجلا (للجندية) يتبعه أهله يصيحون من حوله ، وبعضهم يعتذر عن ذلك بأنه لا يؤخذ للدفاع عن الوطن ولكن ليسخره (المحتلون) فيما يريدون . .

وخلص المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجرحوا وجهه وكسروا رباعيته[1] اليمنى ، وكانت السفلى ، وهشموا البيضة على رأسه ورموه بالحجارة حتى وقع لشقه وسقط فى حفرة من الحفر التى كان أبو عامر الفاسق يكيدبها المسلمين ، فأخذ على بيده واحتضنه طلحة بن عبيد الله ، وقتل مصعب ابن عمير بين يديه فدفع اللواء إلى على بن أبى طالب ، ونشبت حلقتان من حلق المغفر فى وجهه فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح وعض عليهما فسقطت ثنيتاه من شدة غوصهما فى وجهه ، وامتص مالك بن سنان — والد أبى سعيد الخدرى — الدم من وجنته ، وأدركه المشركون يريدون ما الله حائل بينهم وبينه فحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة حتى قتلوا ! ثم جالدهم طلحة حتى أجهضهم عنه ، وترس أبو دجانة بظهره عليه والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك !! وصرخ الشيطان بأعلى صوته : إن محمداً قد قتل ، ووقع ذلك فى قلوب كثير من المسلمين وفر أكثرهم ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ .

ومر أنس بن النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم فقال : ما تنتظرون ؟ فقالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ما تصنعون بالحياة بعده ! قوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم استقبل الناس ولقى سعد بن معاذ فقال : يا سعد إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد ، فقاتل حتى قتل ووجد به سبعون ضربة ، وجرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف نحواً من عشرين جراحة [2] .

---

(١) إحدى أسنانه التى بعد الثنيتين — الأماميتين

(٢) الناظر إلى الحادثة بغير اعتبار يقول : كيف ينهزم جيش فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصاب بما أصيب ؟ ! ولو علم هذا الناظر أن الله تعالى يريد

وأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحو المسلمين — وكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك فصاح بأعلى صوته : يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأشار بيده أن اسكت . واجتمع إليه المسلمون ونهضوا معه إلى الشعب الذى نزل فيه ، وفيهم أبو بكر وعمر وعلىّ والحرث بن الصمة الأنصارى وغيرهم ، فلما امتدوا إلى الجبل أدرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبىّ بن خلف على جواده يقال له العود كان يعلفه بمكة ويقول : أقتل عليه محمداً ، فلما اقترب منه تناول صلى الله عليه وآله وسلم الحربة من الحرث بن الصمة فطعنه بها فجاءت

أن يعلم المسلمين أنّ الجيش متضامن وأنّ تفريط بعض الجيش فى الخطط المرسومة يهزم الجيش فينشأ المسلمون من ذلك على النظام والأخذ بأسباب النصر العملية .

ومما يناسب المقام ؛ لتطبيق العبرة ؛ أنّ تركية لما كانت تحارب بعض الأعداء طلبت من العالم الإسلامى أن يمدّوها بالمال لتنفق على الجيش وتأتى بالذخيرة والأسلحة المقابلة لأسلحة الأعداء ؛ وكان مما أمدّها به بعض علمائنا أنهم جلسوا فى الأزهر يقرءون (البخارى) فكان مثلهم كمن خرجوا لمقابلة نابليون يوم دخوله مصر فاتحا يدفعون « بالبخارى فى أيديهم » فلما بلغ نابليون أنّ معهم البخارى قال : البخارى هذا قوة كم ؟ . . فقيل له ذا كتاب . . فقال : كتاب ! وضحك . . .

فكأنّ أولئك الذين كانوا يقرءون البخارى يفهمون أنه يغنى عن المدفع فى يد المسلمين ويمدّ جيشهم بالغذاء والمؤونة — وقد نشأ من هذا عند بعض الناس عقيدة أن البخارى يمنع الحريق من البيت الذى يوضع فيه وغير هذا مما ترك الناس به الأسباب الصحيحة . وما كتاب البخارى إلا مجموعة أحاديث مما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاهو رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه — وهو أكرم الخلق على الله — قد أصيب بما أصيب وانهزم جيشه فلو كانت القراءة أو الألفاظ تقوم مقام السلاح والنظام فى الحرب لكان رسول الله أولى بأن يفعل ذلك ، فليعتبر المعتبرون .

فى ترقوته فكبر منهزماً فأيقن بأنه مقتول من ذلك الجرح فمات منه فى طريقه سرف مرجعه إلى مكة .

أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعلو صخرة هنالك فلم يستطع لما به ؛ فجلس طلحة تحته حتى صعدها وحانت الصلاة فصلى بهم جالساً ، وصار ذلك اليوم تحت لواء الأنصار .

وقتل المسلمون حامل لواء المشركين فرفعته لهم عمرة بنت علقمة الحارثية حتى اجتمعوا إليه ، وقاتلت أم عمارة — وهى نسيبة بنت كعب المازنية — قتالا شديداً ، وضربت عمرو بن قمأة بالسيف ضربات فوقته درعان كانتا عليه ، وضربها عمرو بالسيف فجرحها جرحاً شديداً على عاتقها .

ولما انقضت الحرب أشرف أبو سفيان على الجبل فنادى : أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه ، فقال : أفيكم ابن أبى قحافة ؟ فلم يجيبوه ، فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيبوه ، ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم ؛ فقال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم ، فلم يملك عمر نفسه أن قال : ياعدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء وقد أبقى الله لك مايسوؤك ! فقال : اعل هبل[1] فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : ألا تجيبونه ! فقالوا : مانقول ؟ قال : قولوا له : الله أعلى وأجل ، ثم قال : لنا العزى[1] ولا عزى لكم ! قال : ألا تجيبونه ! قالوا : فما نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم .

ثم قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، فأجابه عمر فقال : لا سواء ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار .

---

(١) من معبوداتهم

وقال ابن عباس : مانصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى موطن نصره يوم أحد ! فأنكر ذلك عليه ، فقال : بينى و بين من أنكر كتاب الله إنّ كتاب الله يقول : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ والحس القتل ، ولقد كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة — وذكر الحديث — وأنزل الله عليهم النعاس أمنة منه فى غزاة بدر وأحد — والنعاس فى الحرب وعند الخوف دليل على الأمن وهو من الله — وفى الصلاة ومجالس الذكر والعلم من الشيطان .

وفى الصحيحين عن أبى حازم أنه سئل عن جرح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : والله إنى لأعرف من كان يغسل الجرح ومن كان يسكب الماء وبما دووى ـ كانت فاطمة ابنته تغسله وعلىّ بن أبى طالب يسكب الماء ، فلما رأت فاطمة أنّ الماء لايزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها فألصقتها فاستمسك الدم ،

وفى الصحيح أنه كسرت رباعيته وشج فى رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول : « كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم ! » ؛ فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ .

ولما انهزم الناس لم ينهزم أنس بن النضر ، وقال : «اللهم إنى أعتذر اليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى

المشركين » ونظر حذيفة إلى أبيه والمسلمون يريدون قتله ، وهم يظنونه من المشركين ، فقال : أى عباد الله ؛ أبى ! فلم يفهموا قوله حتى قتلوه . فقال : يغفر الله لكم ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يديه ، فقال : قد تصدقت بديته على المسلمين ، فزاد ذلك حذيفة خيرا عند النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

وقال زيد بن ثابت : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد أطلب سعد بن الربيع ، فقال لى إن رأيته فأقرئه منى السلام وقل له يقول لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كيف تجدك ؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بآخر رمق وفيه سبعون ضربة ، مابين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم ، فقلت ياسعد إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ عليك السلام ويقول : أخبرنى كيف تجدك ؟ فقال وعلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السلام ، قل له : يارسول الله أجد ريح الجنة ، وقل لقومى الأنصار : لاعذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفيكم عين تطرف (١) وفاضت نفسه من وقته

ومرّ رجل من المهاجرين برجل من الأنصار - وهو يتشحط فى دمه فقال : يافلان أشعرت أن محمدا قد قتل ؟ فقال الأنصارى : إن كان محمد قد

---

(١) أى لاينبغى أن تتركوا أحدا يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليؤذيه حتى تموتوا دونه ؛ فإذا متم وتمكن الأعداء منه بعد موتكم يكون لكم عذر !! فلله هذه النفس ، فيا أيتها النفس الأبية : « ارجعى إلى ربك راضية مرضية »

قتل فقد بلغ فقاتلوا عن دينكم ، فنزل ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

وقال الزهرى وغيره : كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص اختبر الله عزّ وجلّ به المؤمنين وأظهر به المنافقين ممن كان يظهر الإسلام بلسانه وهو مستخف بالكفر ، فأكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته . وكان مما نزل من القرآن فى يوم أحد ستون آية من آل عمران أولها ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ . إلى آخر القصة .

بعض الحكم المقصودة من القصة

منها تقريعهم بسوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع ؛ وأن الذى أصابهم إنما هو بشؤم ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ . ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴾ . فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول وتنازعهم وفشلهم كانوا بعد ذلك أكثر حذراً ويقظة وتحرزاً من أسباب الخذلان .

ومنها أنّ سنة الله فى رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم

أخرى ؛ لكن يكون لهم العاقبة ؛ فإنهم لو انتصروا دائما دخل معهم المسلمون وغيرهم ولم يتميز الصادق من غيره ؛ ولو انتصر عليهم دائما لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة ، فاقتضت حكمة الله أن يجمع بين الأمرين : ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاءوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة .

ومنها أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب : فإنّ المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر وطار بهم الصيت دخل معهم فى الإسلام ظاهراً من ليس معهم فيه باطنا ؛ فاقتضت حكمة الله أن سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق ؛ فأطلع المنافقون رؤوسهم فى هذه الغزوة وتكلموا بما كانوا يكتمونه وظهرت مخبآتهم وعاد تلويحهم صريحاً وعرف المؤمنون أنّ لهم عدواً فى نفس دورهم فاستعدوا لهم وتحرّزوا منهم قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ . ومنها أنه سبحانه لو نصرهم دائماً وأظفرهم بعدوهم فى كل موطن لطغت نفوسهم وشمخت ، ولو بسط لهم النصر لكانوا فى الحال التى يكونون فيها لو بسط لهم الرزق (١) فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء ، والشدة والرخاء والقبض والبسط ، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته .

ومنها أنه سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء ؛ ويجعل أسباباً لإهلاك

(١) قال الله تعالى : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير »

الأعداء . وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك فى قوله : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۞ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾

وقد أنكر الله على المؤمنين حسبانهم وظنهم أنهم يدخلون الجنة بدون الجهاد والصبر على أذى أعدائه فقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ . أى ولما يقع ذلك منكم فيعلمه فإنه لو وقع لعلمه فجازاكم عليه بالجنة فيكون الجزاء على الواقع المعلوم لا على مجرد العلم فإن الله لا يجزى العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه

ثم وبخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودون لقاءه فقال : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

ومنها أن غزوة أحد كانت مقدمة بين يدى موت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنبأهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم — إن مات رسول الله أو قتل — بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه أو يقتلوا ، فإنهم إنما يعبدون رب محمد وهو حى لا يموت — وما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم إليهم ليخلد لاهو ولاهم ، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد ، فإن الموت لابد منه ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا، فظهر أثر هذا العتاب وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وارتد من ارتد على عقبيه وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله وأعزهم وظفرهم بأعدائهم وجعل العاقبة لهم.

ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلا لابد أن تستوفيه ثم تلحق به، فيرد الناس كلهم حوض المنايا مورداً واحداً وإن تنوعت أسبابه ويصدرون عن موقف القيامة مصادر شتى: فريق فى الجنة وفريق فى السعير (١)

ثم أخبر سبحانه أن جماعة كثيرة من أنبيائه قتلوا وقتل معهم كثيرون فما وهن من بقى منهم لما أصابهم فى سبيله وما ضعفوا وما استكانوا وما وهنوا عند القتل ولا ضعفوا ولا استكانوا، بل تلقوا الشهادة بالقوة والعزيمة والإقدام فلم يستشهدوا مدبرين مستكينين أذلة، بل استشهدوا أعزة كراما مقبلين غير مدبرين (٢).

ثم عزى الله نبيه وأولياءه عمن قتل منهم فى سبيله أحسن تعزية وألطفها وأدعاها إلى الرضا بما قضاه لهم فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ

---

(١) فقال: (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين)

(٢) فقال: (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين)

اللهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

غزوة المريسيع

كانت فى شعبان سنة خمس ، وسببها أن الحرث بن أبى ضرار — سيد بنى المصطلق — سار فى قومه ومن قدر عليه من العرب يريد حرب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فلما بلغه ذلك خرج له وخرج معهم جماعة من المنافقين لم يخرجوا فى غزاة قبلها . واستعمل على المدينة زيد بن حارثة .

ولما انتهى صلى الله عليه وآله وسلم إلى المريسيع ، وهو مكان الماء ، تفرق جيش الحرث فأغار عليهم وسبى منهم — كما ذكر فى الصحيح . وكان من جملة السبى جويرة بنت الحرث سيد القوم وقعت فى سهم ثابت ابن قيس فكاتبها فأدى عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتزوجها فأعتق المسلمون ، بسبب هذا التزويج ، مائة أهل بيت من بنى المصطلق قد أسلموا وقالوا أصهار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وفى هذه الغزوة كانت قصة الإفك : وذلك أن عائشة رضى الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى هذه الغزوة بقرعة أصابتها — وكانت تلك عادته مع نسائه — فلما رجعوا من الغزوة نزلوا فى بعض المنازل فخرجت عائشة لحاجتها ففقدت عقداً لأختها كانت أعارتها إياه فرجعت تلتمسه فى الموضع الذى فقدته فيه فى وقتها ، فجاء النفر الذين

كانوا يرحلون هودجها فظنوها فيه فحملوه وساروا ولم ينكروا خفته لأنها كانت فتية السن لم يغشها اللحم الذى يثقلها — ولكثرة النفر .

وكان صفوان بن المعطل فى أخريات الجيش فلما رآها عرفها — وكان يراها قبل نزول الحجاب — فقال : إنا لله وإنا إليه رجعون ، وأناخ راحلته وقربها فركبتها ، وما كلمها كلمة ، ثم سار بها يقودها حتى قدم بها . فلما رأى ذلك الناس تكلم كل بشاكلته وما يليق به ، ووجد الخبيث ابن أبىّ متنفساً من كرب النفاق فجعل يشيع الإفك .

فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك فى الحديث ورسول الله ساكت ، فاستشار الصحابة فأشار علىّ بفراقها تلويحاً ، وأشار أسامة وغيره بإمساكها — فعلىّ لما رأى أن ما قيل مشكوك فيه أشار بترك الريبة إلى اليقين ليتخلص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الغم الذى لحقه من كلام الناس ، وأسامة لما علم حب الرسول لها ولأبيها وعلم عفتها وأنها فوق ذلك وأن الرسول أكرم على الله أن يجعل تحته بغياً قال كما قال سادات الصحابة لما سمعوا ذلك : « سبحانك هذا بهتان عظيم !! » .

وقد حبس الوحى عن الرسول شهراً ثم ابتدأه ببراءتها (١)

ولما برأها الوحى قال لها أبواها : قومى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فقالت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذى

---

(١) فى القصة ست عشرة آية فى سورة النور قال تعالى (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم ؛ والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم — إلى أن قال : أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) .

أنزل براءتى ؛ فأظهرت توليتها النعمة لربها وإفراده بالحمد فى ذلك المقام وإدلالها ببراءة ساحتها وأنها لم تفعل مايوجب قيامها فى مقام الراغب فى الصلح ، وهذا غاية الثبات .

ولما ثبتت براءتها بالوحى أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجلد الذين ثبت عليهم أنهم رموها فجلدوا ثمانين جلدة (١)

غزوة الخندق

كانت فى شوال سنة خمس ، وسببها أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المؤمنين يوم أحد وعلموا بميعاد أبى سفيان ورجوعه للعام المقبل خرج أشرافهم إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويوالونهم عليه ، فأجابتهم قريش . ثم خرجوا إلى غطفان وطافوا فى قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك فاستجاب لهم من استجاب : فخرجت قريش فى أربعة آلاف يقودهم أبو سفيان ، ووافاهم بنو سليم ، وأسد ، وفزارة وأشجع : وجاءت غطفان بقيادة عيينة بن حصن ، ووافى الخندق من الكفار عشرة آلاف .

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمسيرهم إليه استشار أصحابه فأشار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة ، فأمر به وبادر إليه المسلمون وعمل فيه الرسول بنفسه ، ثم خرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين ، وعندئذ بلغه خبر بنى قريظة ونقضهم للعهد فبعث

---

(١) قال الله تعالى : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم)

إليهم السعدين وخوات بن جبير وعبدالله بن رواحة ليعرفوه : هل هم على عهدهم أوقد نقضوه ؟ فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون وجاهروهم بالسب والعداوة ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرفوا عنهم ولحنوا إلى الرسول لحنا[1] يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد وغدروا فعظم ذلك على المسلمين واشتد البلاء وتجهر النفاق واستأذن بعض بنى حارثة الرسول فى الذهاب إلى المدينة بدعوى (أن بيوتهم عورة [2] وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً) وأقام المشركون محاصرين المسلمين شهرا

ولما طالت هذه الحال على المسلمين أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصالح عيينة بن حصن والحرث بن عوف رئيسى غطفان على ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما ؛ وجرت المفاوضة على ذلك : ثم استشار السعدين[3] فقالا : يارسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة ، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه ، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف ! فصوب رأيهما وقال « إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة»

ثم إن الله عز وجل صنع ماخذل به العدو وهزم جموعهم وفل حدهم فكان مما هيأ من ذلك أن رجلا من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إنى أسلمت فمرنى بما شئت ،

---

(١) قولا لا يفهمه غيره (٢) ناقصة التحصين (٣) سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رئيسى الأنصار . انظر جوابهما يمثل لك الشجاعة والإيمان

فقال « إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإنّ الحرب خدعة » فذهب من فوره إلى بنى قريظة ، وكان عشيرا لهم فى الجاهلية ، فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه ، فقال : إنكم قد حاربتم محمدا وإنّ قريشا إن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا استمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمدا فانتقم منكم ، قالوا : فما العمل يانعيم ؟ قال : لاتقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن ، قالوا : لقد أشرت بالرأى ، ثم مضى على وجهه إلى قريش قال : تعلمون ودى ونصحى لكم ؟ قالوا نعم ، قال : إنّ اليهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه ، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم ، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم ، ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك .

فلما كانت ليلة السبت من شوال بعثوا إلى اليهود : إنا لسنا بأرض مقام وقد هلك الكراع والخف ، فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً ، فأرسل إليهم اليهود : إن اليوم يوم سبت وقد علمتم ماأصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ومع هذا فانا لانقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن .

فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش : صدقكم والله نعيم ! فبعثوا إلى اليهود : إنا والله لانرسل إليكم أحداً فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً ؛ فقالت قريظة : صدقكم والله نعيم ! فتخاذل الفريقان .

وأرسل الله على المشركين جنداً من الريح والملائكة وكفى نبيه القتال وهزم الأحزاب وحده .

فدخل المدينة ووضع السلاح فجاءه جبريل عليه السلام وقال : إن الملائكة

لم تضع بعد أسلحتها ، انهض إلى غزوة بنى قريظة ، فنادى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة ! ! فخرج المسلمون سراعاً فقتلوا منهم من قتلوا وأسروا منهم من أسروا وأورثهم الله أرضهم وأموالهم . وهاتان الغزوتان فى سورة الأحزاب (١)

غزوة الحديبية

كانت فى ذى القعدة سنة ست ؛ وذلك أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خرج معتمراً فى أربعمائة وألف نفر ، فلما كانوا بذى الحليفة قلد الهدى وأشعره وأحرم بالعمرة وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش ؛ حتى إذا كان قريباً من عسفان أتاه عينه فقال : إنى تركت كعب ابن لؤى قد جمعوا لك جموعاً وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ؛ فاستشار النبى أصحابه وقال : أترون أن نميل إلى ذرارى الذين أعانوهم فنصيبهم ؛ فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين ؛ وإن نجوا يكن عنق قطعها الله ؟ أم ترون

---

(١) فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا * إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا — إلى قوله : ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا * وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من « صياصيهم » وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شىء قديراً)

والصياصى : هى الحصون الحربية التى بها عزة القوم ورفعتهم .

أن نؤم هذا البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ فقال أبو بكر . إنما جئنا معتمرين ولم نجئ لقتال أحد ! ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه . فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : فروحوا إذاً : فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين ؛ فانطلق يركض نذيراً لقريش فقزعت لنزوله عليهم فأرسل إليهم وهو بأقصى الحديبية عثمان بن عفان : إنا لم نأت لقتال فإنما جئنا عماراً وادعهم إلى الإسلام ؛ فقالوا : قد سمعنا ما تقول فانفذ لحاجتك ؛ وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به ! فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون .

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح فرمى رجل من أحد الفريقين رجلا من الفريق الآخر ؛ وكانت معركة وترامو ا بالنبل والحجارة وارتهن كل واحد بمن فيهم . وبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن عثمان قد قتل فدعا إلى البيعة فثار المسلمون إليه وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفروا .

رجع عثمان وقال : لقد دعتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت .

جرى الصلح بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل مكة فطلبوا منه كتاباً فدعا الكاتب فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل ابن عمرو : أما الرحمن فوالله لا ندري ما هو ! ولكن اكتب باسمك اللهم فقال المسلمون : والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم ؛ فقال النبي . اكتب باسمك اللهم ؛ ثم قال اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقال

سهيل : فوالله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله ؛ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إني رسول الله وإن كذبتموني ! اكتب محمد بن عبد الله — على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به — فقال سهيل . والله لا تتحدث العرب : أنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل ؛ فكتب . فقال سهيل . على ألا يأتيك رجل منا وإن كان على دينك إلا رددته الينا ؛ فقال المسلمون : سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما ؟ ! !

وقد تمّ الصلح على وضع الحرب عشر سنين ؛ وأن يأمن الناس بعضهم من بعض ؛ وأن يرجع عنهم عامه ذلك حتى إذا كان العام المقبل قدم وأخلوا بينه وبين مكة فأقام بها ثلاثاً ؛ وألا يدخلها بسلاح الراكب والسيوف في القرب ؛ وأن من أتاهم من أصحابه لا يردونه عليه ؛ ومن أتاه من أصحابهم يردّه عليهم . قال الصحابة : يارسول الله نعطيهم هذا ؟ قال من أتاهم منا فأبعده الله ، ومن أتانا منهم فرددناه إليهم جعل الله له فرجاً ومخرجا (١)

---

(١) قبل صلى الله عليه وسلم هذه الشروط لأنّ له أغراضا يرى الوصول إليها بالصلح أقرب من الحرب ، ومن أغراضه أن تكون له حرية في اجتماعه بأبناء وطنه ليبث فيهم ما يريد من مبادئه .

هذا ؛ وللأعداء في كل زمان — إذا تحكموا — شروط في الصلح لا يراعون فيها إلا مصلحتهم ؛ وهم — مادامت لهم قوة — لا يتركون حقاً لضعيف إلا سلبوه واعتدوا عليه . ومن لم يعدّ ما استطاع من قوة يقاوم بها قوتهم فلا يستطيع أن يحفظ حقه منهم ؛ فضلا عن أن يرده إذا اغتصبوه . . . ومن يحسن الظن بهم ويفهم أنه يسترد حقه منهم بالاستعطاف والاسترحام فهو مغرور مخدوع انظر إلى «تركية» لما كانت ضعيفة طردها الإنجليز وحلفاؤهم من المؤتمرات

ولما فرغوا من الكتاب قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : قوموا فانحروا ثم احلقوا ؛ فلم يقم أحد ! حتى قال ثلاث مرات ولم يقم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها . فقالت : أتحب ذلك اخرج ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك ؛ فقام ففعل . فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا (١)

ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾(٢) وفى هذه القصة دخلت خزاعة فى عقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعهده ؛ ودخلت بنو بكر فى عهد قريش وفيها نزلت سورة الفتح وفى خيبر .

غزوة خيبر

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة من الحديبية مكث بها نحو عشرين ليلة ثم خرج غازياً إلى خيبر وكان الله وعده إياها فى

ثم أمدّوا اليونان لامتلاك بلادها وانتهاك حرمتها ؛ فلما قويت وضربتهم بضربتها وأرهبتهم بقوّتها خطبوا ودّها وسعوا لإرضائها وأصبحوا فى « مؤتمر الصلح فى لوزان » يتحملون منها كل شدّة ويسمعون لها فى كل اقتراح — وهكذا القوّة يصغر أمامها كل كبير وتخضع لها كل سياسة — فاللهم اجعلنا من الأقوياء الأعزاء ولا تجعلنا من الضعفاء الأذلاء .

(١) من هذا نعلم أنّ القول وحده لا يحمل الناس على العمل فمن يرد أن يحمل الناس على عمل فليعمله أمامهم ليعملوه كما يعمله .

(٢) (فامتحنوهنّ ، الله أعلم بإيمانهنّ ، فإن علمتموهنّ مؤمنات فلا ترجعوهنّ إلى الكفار لا هنّ حلّ لهم ولا هم يحلون لهنّ) — انظر سورة الممتحنة

الحديبية بقوله : ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ ﴾

عن ابن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم ؛ فغلب على الزرع والنخل والأرض ؛ فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ماحملت ركابهم إلا السلاح . ولما أراد أن يجليهم قالوا : يامحمد دعنا فى هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها فنحن أعلم بها منكم ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ؛ وكانوا لا يفرغون يقومون عليها ؛ فأعطاهم خيبر على أنّ لهم الشطر من كل زرع وكل ثمر مابدا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقرهم وكان عبد الله بن رواحة يخرصه عليهم .

وقد قسم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نصف خيبر على أهل الخمس والغانمين وأبقى النصف لما ينزل به من أمور المسلمين .

والإمام مخير فى الأرض المفتوحة عنوة (١) بين قسمها ووقفها ؛ وقسم بعضها ووقف البعض . وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأنواع الثلاثة : فقسم قريظة والنضير ؛ ولم يقسم مكة (٢) وقسم شطر خيبر وترك شطرها . وفى الصحيحين وغيرهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسهم للفارس ثلاثة أسهم : سهم له ؛ وسهمان لفرسه ؛ وللراجل سهماً

وفى هذه الغزوة سبيت صفية بنت حيي بن أخطب فأسلمت واصطفاها

---

(١) بالحرب والقهر

(٢) لم يقسم مكة لأنها دار نسك لا تملك ، فهى حرم الربّ الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والباد .

النبي صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه وأعتقها وجعل عتقها صداقها .

وفيها أهدت له زينب بنت الحرث اليهودية امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية قد سمتها ، وسألت أى اللحم أحب إليه ؟ فقالوا : الذراع ، فأكثرت من السم فيها فأكل وأصحابه . وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قتل المرأة لما مات بشر بن البراء ؛ وذلك عقيب أكله اللحم . وأما الرسول فقد بقى بعد ذلك ثلاث سنين حتى قال فى وجعه الذى مات فيه : مازالت أجد من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم خيبر فهذا أوان انقطاع الأبهر منى ! ! (١)

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خيبر إلى وادى القرى : وكان بها جماعة من اليهود ؛ فقتحها عنوة وغلبهم على الأرض والنخيل ؛ وكذلك فدك (٢)

ولما بلغ يهود تيماء ما والى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهل فدك ووادى القرى ؛ صالحوه وأقاموا بأموالهم . فلما كان زمن عمر ابن الخطاب أخرج يهود خيبر وفدك ، ولم يخرج أهل تيماء ووادى القرى

---

(١) يظن بعض الجاهلين أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب — فلو كان يعلم الغيب لكان أولى أن يعلم هذا العمل الذى أرادت اليهودية قتله به ، ولكنه أكل من اللحم المسموم ولم يعلم به حتى ظهرت أعراضه ومات بعض أصحابه الذين أكلوا معه — والله تعالى يقول : (قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون)

والأبهر : هو العرق العظيم الذى ينقل الدم من القلب لتوزيعه على الجسم

(٢) أرض بخيبر — فوق يثرب (المدينة)

لأنهما داخلتان فى أرض الشام ؛ والغرض إخراج من فى الحجاز .

غزوة الفتح

كانت سنة ثمان لعشر مضين من رمضان ؛ وسببها أن بنى بكر عدت على خزاعة ، وهم على ماء يقال له الوتير ، فبيتوهم وقتلوا منهم .

وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل — مستخفياً ليلا — حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، ولجأت إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعى فخرج بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة فأخبروه بما أصيب فيهم وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ؛ فأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالجد والتجهيز للسير إلى مكة وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها (١) . فتجهز الناس فكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليهم ؛ ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشاً ؛ فأدركها من عيون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أخرجه من شعرها ودعى بحاطب فقال : لا تعجل علىّ يارسول الله ؛ والله إنى لمؤمن بالله ورسوله وما ارتددت ولا بدلت ولكنى كنت امرأ ملصقاً فى قريش لست من أنفسهم ولى

(١) كانت خزاعة متعاهدة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ومقتضى المعاهدة أن يدفع الظلم عنها ، فلذا يتأهب للقتال معها وفاء بالعهد ، وقد جارت عليه قريش إذ عاونت من اعتدى على معاهديه ولم يراعوا عهده . ومثل قريش (انكاترة) تعاون اليونان على الترك فى الخفاء وتنكر ذلك فى الظاهر ! ! حتى أظهر الله ما أظهر من أمرها ورد كيدها فى نحرها .

فيهم أهل وعشيرة وولد وليس لى فيهم قرابة يحمونهم ؛ وكان من معك لهم قرابات يحمونهم ؛ فأحببت — إذ فاتنى ذلك — أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى عشرة آلاف قد أفطروا من صومهم فقابله العباس مهاجراً بأهله مسلماً ؛ فلما نزل مرّ الظهران (١) عشاه أمر الجيش فأوقد النيران فأوقدت عشرة آلاف نار ؛ وجعل عمر على الحرس وركب العباس بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج يلتمس أحداً يخبر قريشاً ليستأمنوا الرسول قبل أن يدخل عنوة قال العباس : والله إنى لأسير إذ سمعت كلام أبى سفيان ، كان يتجسس لقريش ؛ وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول : مارأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكراً ! ويقول بديل : هذه والله خزاعة خمشتها الحرب ! فيقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ! ! قال فعرفت صوته فقلت : أبا حنظلة ؟ فعرف صوتى فقال: أبا الفضل ؟ قلت . نعم ؛ قال . مالك فداك أبى وأمى ؟ قلت . هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الناس واصباح قريش والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ! قال : فما الحيلة ؟ قلت : اركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأستأمنه لك ؛ فلما جاءه أسلم وشهد الحق ؛ فقال العباس : يارسول الله إنّ أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا ، قال : نعم ! « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن

---

(١) واد قرب مكة

دخل المسجد الحرام فهو آمن ، فمضى أبو سفيان حتى إذا جاء قريشاً صرخ بأعلى صوته : هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ! من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله ! وما تغنى عنا دارك ؟ فتفرق الناس إلى دورهم .

وسار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى دخل مكة من أعلاها وضربت له قبة هنالك ؛ وأمر خالد بن الوليد (١) وقد أسلم فى هذه المدة ؛ أن يدخلها من أسفلها ؛ وقال له : إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدا حتى توافونى على الصفا .

وكان حماس بن قيس — أخو بنى بكر — يعد سلاحا قبل دخول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقالت له امرأته : لماذا تعد ما أرى ؟ قال لمحمد وأصحابه ، قالت : والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء ! ! قال: إنى والله لأرجو أنى أخدمك بعضهم ، ثم قال : —

---

(١) هو البطل العظيم الذى كان أكبر عون للمشركين فى الحرب ، أسلم قبل الفتح وصار بطل الإسلام سماه رسول الله : سيف الله ! فلم يكن فى جيش إلا انتصر وكان اليد اليمنى لأبى بكر فى إخضاع جيوش الردة ، وهو الذى وحد القيادة العامة فى حرب الروم وكسر شوكة الفرس فى العراق والروم فى الشام ، وهو الذى لما مرض بكى وقال : أنا لا أبكى خوفا من الموت ولكن أبكى لأنى أموت على فراشى كالعنزة وجسمى مملوء بطعنات الحرب ، فكنت أود أن أموت فى ميدان القتال

فبمثل هذا تعلو الأمم وتسود ، ولنا أمل أن تحيا ذكرى ذلك البطل (خالد) ببطل الشرق فى هذا الزمان (مصطفى كمال) فقد ضرب اليونان ضربة مثل فيها ضربة (خالد) لآبائهم الأولين . . وسيبقى — بمعونة الله له والتفاف المسلمين حوله — (سيفاً) يرهب الأعداء ويرغمهم على رد ما اغتصبوه من الضعفاء .

إن يقبلوا اليوم فمالى علة هذا سلاح كامل وآلة

حصلت مناوشة قتل فيها اثنان من المسلمين كانا فى خيل خالد ؛ وأصيب من المشركين نحو اثنى عشر ؛ ثم انهزموا وانهزم حماس صاحب السلاح حتى دخل بيته وقال لامرأته : أغلقى علىّ بابى ! . فقالت له : وأين ما كنت تقول؟

نهض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله حتى دخل المسجد فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم طاف بالبيت وفى يده قوس وحول البيت وعليه ستون وثلاثمائة صنم فجعل يطعنها بالقوس ويقول : «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» . «جاء الحق ومايبدئ الباطل ومايعيد» والأصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته — ولم يكن محرما يومئذ — ثم دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة فمحا مافيها من الصور وصورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام ، ثم صلى ودار فى البيت يكبر ؛ ثم وقف على الباب وقريش قد اصطفت تنظر ماذا يصنع ؟ فقال: «لا إله إلا الله وحده لاشريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ؛ ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمىّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، يامعشر قريش إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب» ثم تلا هذه الآية ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ

عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١) .

يامعشر قريش ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً . أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : «فإنى أقول كما قال يوسف لأخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، ثم جلس فى المسجد فقام إليه علىّ بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده فقال : يارسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، فقال : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له ؛ فقال : يابن طلحة هاك مفتاحك اليوم يوم برّ ووفاء . ثم دخل دار أم هانئ بنت أبى طالب فاغتسل وصلى ثمان ركعات فى بيتها ، وكان ضحى ؛ فظنها من ظنها صلاة الضحى ، وإنما هى صلاة الفتح ، شكراً لله تعالى ، بدليل قول أم هانئ مارأيته صلاها قبلها ولا بعدها .

وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصناً أو بلداً صلوا مثلها اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) تأمل أصول المساواة التى تجعل الناس لا يفضل بعضهم بعضا إلا بالعمل الذى يزكى نفوسهم ويعلى شأن أمتهم وبلادهم ؛ فهذه الأصول فى الدين تقطع أمل الذين يعتمدون على أنسابهم والذين يفخرون ويتكبرون بأموالهم وأولادهم قال الله تعالى : (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون) وقال تعالى : (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون)

فصـــل

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدى هـذا الفتح العظيم ، أمن الناس به وكلم بعضهم بعضا وناظره فى الإسلام ، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليـه ، ودخل بسببه بشر كثير فى الإسلام ، ولهذا سماه الله فتحاً فى قوله : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ نزلت فى شأن الحديبية ، فقال عمر : يارسول الله أو فتح هو ؟ قال : نعم ، وأعاد سبحانه كونه فتحاً فقال : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا — إلى قوله — فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ . وهذا شأنه سبحانه يقدم بين يدى الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليهـا المنبهة عليها ، كما قدم بين يدى قصة المسيح ، وخلقـه من غير أب ، قصة زكريا وخلق الولد له مع كونه كبيراً لايولد لمثله ، وكما قدم بين يدى نسخ القبلة قصة البيت وبنائه وتعظيمه ، والتنويه به وذكر بانيه ومدحه ، ووطأ قبـل ذلك كله بذكر النسخ وحكمته المقتضية له .

وهكذا ماقدم الله بين يدى مبعث رسوله من قصة الفيل وبشارات الكهان به وغير ذلك ، وكذلك الرؤيا الصالحة كانت مقدمة بين يدى الوحى فى اليقظة ، وكذلك الهجرة بين يدى الأمر بالجهاد .

ومن تأمل أسرار الشرع والقدر رأى من ذلك ماتبهر حكمته الألباب .

فصـــل

وفى هذه الغزوة دليل على أنّ أهل العهد إذا حاربوا من فى ذمة الإمام

وجواره وعهده صاروا حرباً له بذلك .

وفيها انتقاض عهد جميعهم بذلك ردئهم ومباشرهم إذا رضوا به وأقروا عليه ولم ينكروه ، فإنّ الذين أعانوا بنى بكر من قريش بعضهم لم يقاتلوا كلهم معهم ، ومع هذا غزاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم ، كما أنهم دخلوا فى عهد الصلح تبعاً ، ولم ينفرد كل واحد منهم بصلح إذ قد رضوا به وأقروا عليه ، فكذلك حكم نقضهم للعهد . هذا هدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وطرد هذا جريان الحكم على ناقضى العهد من أهل الذمة ؛ إذا رضى جماعتهم به ؛ وإن لم يباشر كل واحد منهم ما ينقض عهده . كما أجلى عمر يهود خيبر لما عدا بعضهم على ابنه ورموه من ظهر دار فقدعوا يده بل قد قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جميع مقاتلة بنى قريظة ؛ ولم يسأل عن كل رجل منهم هل نقض العهد أم لا ؛ وكذلك أجلى بنى النضير كلهم وإنما كان الذى همّ بالقتل رجلان ؛ وكذلك فعل ببنى قينقاع حتى استوهبهم منه عبد الله بن أبىّ ؛ فهذه سيرته وهديه الذى لاشك فيه .

وقد أجمع المسلمون على أنّ حكم الردء حكم المباشر فى الجهاد ، ولا يشترط فى قسمة الغنيمة ولا فى الثواب مباشرة كل واحد فى القتال .

وهذا حكم قطاع الطريق : حكم ردئهم حكم مباشرهم ؛ لأنّ المباشر إنما باشر الإفساد بقوّة الباقين ولولاهم ما وصل إلى ما وصل إليه ؛ وهذا الصواب .

وفيها أنّ رسول العدو لا يقتل ؛ فإنّ أبا سفيان كان ممن جرى عليه حكم

انتقاض العهد ولم يقتله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذ كان رسول قومه إليه .

وفيها إباحة متعة النساء ثم تحريمها قبل خروجه من مكة .

فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس لنا نساء فقلنا : ألا نختصى ؟ فنهانا ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل — ثم قرأ عبد الله ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

وقراءة عبد الله هذه الآية عقب هذا الحديث تحتمل أمرين : أحدهما الرد على من يحرّمها ، وأنها لو لم تكن من الطيبات لما أباحها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . والثانى أن يكون أراد آخر هذه الآية وهو الرد على من أباحها مطلقاً وأنه معتد ؛ فإن رسول الله إنما رخص فيها للضرورة ؛ وعند الحاجة فى الغزو ؛ وعند عدم النساء وشدّة الحاجة إلى المرأة — فمن رخص فيها فى الحضر مع كثرة النساء وإمكان النكاح المعتاد فقد اعتدى ، والله لايحب المعتدين .

غزوة حنين

وتسمى غزوة أوطاس وهما موضعان بين مكة والطائف

لما سمعت هوازن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومافتح الله عليه من مكة جمعت له جموعا ؛ فلما سمع بهم بعث إليهم عبد الله الأسلمى وأمره أن يدخل فى الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم فانطلق ثم أقبل بالخبر .

فلما أجمع رسول الله السير إلى هوازن ذكر أن عند صفوان بن أمية أدرعا وسلاحا ، فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك ، فقال : يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غداً ، فقال صفوان : أغصباً يا محمد ؟ قال : بل عارية ، وهى مضمونة حتى نؤديها ؛ فقال : ليس بهذا بأس ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح

خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه ألفان من أهل مكة ، وعشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ، ففتح الله بهم مكة ، (وكانوا اثنى عشر ألفاً) واستعمل عتاب بن أسيد على مكة أميراً ، ثم مضى يريد لقاء هوازن .

عن جابر بن عبد الله ؛ قال : لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى واد من أودية تهامة أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحداراً — قال — وفى عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى ، فكمنوا لنا فى شعابه وأجنابه ومضايقه ، قد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا فوالله ماراعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدّوا علينا شدّة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد منهم على أحد ، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ؛ ثم قال : إلى أين أيها الناس ؟ هلم إلىّ أنا رسول الله ، أنا محمد ابن عبد الله ! وبقى معه نفر من المهاجرين وأهل بيته

ولما انهزم المسلمون ورأى من كان مع رسول الله من حفاة أهل مكة الهزيمة ، تكلم رجال منهم بما فى أنفسهم من الطعن فقال أبو سفيان : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وقال كلدة : ألا بطل السحر اليوم

عن العباس بن عبد المطلب ، قال : إنى لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذ بحكمة (١) بغلته وكنت امرأ جسيما شديد الصوت فسمعته يقول حين رأى مارأى من الناس : إلى أين أيها الناس ؟ فلم أر الناس يلوون على شيء ، فقال : ياعباس ! اصرخ ، يامعشر الأنصار ، فأجابوا : لبيك لبيك — حتى إذا اجتمعوا إليه استقبلوا الناس فاقتتلوا ، فأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ركائبه فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلون فقال : الآن حمى الوطيس — حتى هزم الله المشركين ، وأمر رسول الله بالسبى والغنائم أن تجمع فجمعت ووجهوها إلى الجعرانة

وكان السبى ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفا ، والغنم أكثر من ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة فاستأنى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة (٢)

ثم بدأ بالأموال فقسمها وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس : فأعطى أبا سفيان أربعين أوقية ومائة من الإبل ، فقال : ابنى يزيد ؟ فقال أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل فقال ابنى معاوية فقال أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل

وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ، ثم سأله مائة أخرى فأعطاه ، وأعطى النضر بن الحرث بن كلدة مائة من الإبل ، وأعطى العلاء بن حارثة

---

(١) حديدة اللجام التى توضع فى فم الدابة فتحكمها

(٢) لتعلم أيها القارئ أن الرسول صلى الله عليه وسلم لايهمه الغنائم وإنما يهمه أن يكون الناس مسلمين ، ولذا كان من ودّه أن يأتى أصحاب هذه الأموال مسلمين ويأخذوا أموالهم فانتظرهم ليالى ولما يئس منهم قسمها

الثقفى خمسين ، وذكر أصحاب المائة وأصحاب الخمسين ، وأعطى العباس بن مرداس أربعين فقال فى ذلك شعراً فكمل له المائة ، ثم أمر يزيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس ثم فرضها على الناس فكانت سهامهم لكل رجل أربعا من الإبل وأربعين شاة ، فإن كان فارسا أخذ اثنى عشر بعيراً وعشرين ومائة شاة(١)

عن أبى سعيد الخدرى قال : لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا الكبار فى قريش وفى قبائل العرب ، ولم يكن فى الأنصار منها شىء ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة حتى قال قائلهم : لقى والله رسول الله قومه ! ! فدخل عليه سعد ابن عبادة فقال : يارسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى قسمت فى قومك ؟ ! قال فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ قال يارسول الله ماأنا إلا من قومى ، قال فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة فأتاهم رسول الله فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال يامعشر الأنصار . ما مقالة بلغتنى عنكم ؛ وجدة وجدتموها فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بى ؟ وعالة فأغناكم الله بى ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ ! قالوا . الله ورسوله أمنّ وأفضل ؛ ثم قال ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ قالوا : بماذانجيبك يارسول الله ولرسوله المنّ والفضل ! قال . «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدّقتكم : أتيتنا مكذباً فصدّقناك ؛ ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك وعائلا فواسيناك —

---

(١) لأن الفرس تأخذ برجلين — فانظر قيمة الخيل

أوجدتم علىّ يامعشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ألاترضون يامعشر الأنصارأن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً ووادياً وسلكت الأنصار شعبا ووديا لسلكت شعب الأنصار ووديها ، الأنصار شعار والناس دثار ! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» ، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظاً (١)

غزوة تبوك

كانت فى رجب سنة تسع ، وسببها أنّ النبى صلى الله عليه وسلم بلغه أنّ الروم جمعت له جموعاً كثيرة بالشام ، وأنّ هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه لخم ، وجذم ، وعاملة ، وغسان ، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء . وكان الزمن زمن عسرة من الناس وجدب من البلاد ، فحض رسول الله أهل الغنى على النفقة والحملان فى سبيل الله ، فاحتسبوا وأنفق عثمان بن عفان فى ذلك نفقة عظيمة .

وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها وورى بغيرها

---

(١) قال تعالى : (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ؛ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) .

إلا تبوك لبعد الشقة وشدة الزمان وقال للجد بن قيس إحدى بنى سلمة : هل لك ياجد العام فى جلاد بنى الأصفر ؟ فقال : يارسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى أنه مامن رجل بأشد عجباً بالنساء منى ! وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر ! ! فأعرض عنه ؛ وقال : أذنت لك ! فنيه نزل قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : لا تنفروا فى الحر فأنزل الله فيهم : ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا — لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ .

وجاء إلى رسول الله البكاءون ، وهم سبعة يستحملونه فقال : لا أجد ماأحملكم عليه ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (١)﴾ وأرسل أبو موسى أصحابه إلى النبى ليحملهم فوافاه غضبان فقال : والله لاأحملكم ولاأجد ماأحملكم عليه ؛ ثم أتاه إبل فأرسل إليهم ثم قال : ماأنا حملتكم ولكن الله حملكم ! وإنى والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يمينى وأتيت الذى هو خير .

وقام علية بن يزيد فصلى من الليل وبكى وقال : اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه ثم لم تجعل عندى ماأتقوى به مع رسولك ؛ ولم تجعل فى يد رسولك مايحملنى عليه . وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة

---

(١) آيات القصة كلها فى سورة براءة

أصابني فيها من مال أو جسد أو عرض ! : فقال الرسول . لقد كتبت في الزكاة المقبلة .

وجاء المعذّرون من الأعراب ليؤذن لهم فلم يعذرهم ، قال ابن سعد : وهم اثنان وثمانون رجلا . وكان عبد الله بن أبيّ ابن سلول قد عسكر على ثنية الوداع في حلفائه من اليهود والمنافقين .

ولما انتهى إلى تبوك أتاه صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية ، وكذلك أهل جربا وأذرح وكتب لهم كتاباً . وهذا ما كتب لأهل أيلة وصاحبها :—

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة ابن روية وأهل أيلة : سفنهم وسيارتهم في البرّ والبحر ، لهم ذمّة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحرين ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه لمن أخذه من الناس وإنه لا يحلّ أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً من برّ أو بحر .

خطبته صلى الله عليه وآله وسلم في تبوك : —

أمّا بعد فإنّ أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ، وخير السنن سنة محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عوازمها ، وشرّ الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع وشرّ العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى ، وشرّ المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة

يوم القيامة . ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا دبرا ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا .

ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله عزّ وجل ، وخير ماوقر فى القلوب اليقين .

والارتياب من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والغلول من حرّ جهنم ، والخمر جماع الإثم ، وشرّ المأكل مال اليتيم .

والسعيد من وعظ بغيره . وملاك العمل خواتمه ، وشرّ الرّؤيا رؤيا الكذب ، وسباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه من معصية الله وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرّزية يعوّضه الله ، ومن يعص الله يعذبه .

ثم استغفر ثلاثا (١)

ولما رجع من تبوك مكر به ناس من المنافقين وتآمروا على أن يطرحوه من عقبة فى الطريق فأعلمه الله بهم وعصمه من خداعهم . إذ نزل وسار من بطن الوادى فأمن من مكرهم ، وذلك قول الله : ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ . وكان أبو عامر رأسهم وله بنوا مسجد الضرار — وهو الذى كان يقال له الرّاهب — وقال ابن عباس : والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً هم أناس من الأنصار قال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدكم واستمدّوا ما استطعتم

(١) قل لى بربك أيها القارئ : لو كانت المحفوظات فى المدارس تكون من أمثال هذه الخطبة فكم يكون سعد الأمّة من تعليم أبنائها وبناتها .

من قوة ومن سلاح فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه . فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو بالبركة ، فأنزل الله عز وجل : ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ — يعنى مسجد قباء — أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾

وكان أصحاب مسجد الضرار أتوه ، وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يارسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه ، فقال « إنى على جناح سفر وحال شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه » فلما نزل بذى أوان جاء خبر المسجد من السماء ! فدعا مالك بن الدخشم أخا بنى سلمة ومعن بن عدى العجلانى وقال : « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فهدماه وحرّقاه » ففعلا فتفرقوا عنه فأنزل الله فيه : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة خرج الناس لتلقيه وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن : —

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله داع

بعض الرواة يهم فى هذا ويقول : إنما كان عند مقدمه المدينة من

مكة وهو وهم ظاهر ، لأنّ ثنيات الوداع إنما هى من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام .

وقدم المدينة فى رمضان ولما دخلها بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس فجاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، فقبل علانيتهم ووكل سرائرهم إلى ربهم ، وكان بضعة وثمانين

وقد صرّفت إليه وفود العرب من كل وجه فدخلوا فى دين الله أفواجا قال ابن إسحاق . لما قدم وفد بنى تميم دخلوا المسجد ونادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اخرج إلينا يا محمد ! ! فآذى الرسول صياحهم فنزل فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وهم الذين قال شاعرهم الزبرقان مفاخراً حين قدومهم : —

نحن الملوك فلا حىّ يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع

وأجابه شاعر الإسلام حسان بقوله : —

إنّ الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى به كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يصطنع

قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوهمو ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غير محدثة ... إنّ الخلائق فاعلم شرّها البدع

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس : إن هذا الرجل — يعنى رسول الله — لمؤتى له ! لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، فأسلموا وأحسن الرسول جوائزهم وردّ عليهم أسراهم وسبيهم الذين جاؤا فى سرية عيينة الفزارى .

﴿وفد عبد القيس﴾ فى الصحيحين أنهم قالوا : يارسول الله إن بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ولانصل إليك إلا فى شهر حرام فمرنا بأمر فصل نأخذ به ونأمر به من وراءنا وندخل به الجنة ، فقال : « آمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع : آمركم بالإيمان بالله وحده . أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان ؛ وأن تعطوا الخمس من المغنم» — «الحديث» وفيه أنّ الإيمان بالله هو مجموع هذه الخصال من القول والعمل — كما على ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم» والتابعون وتابعوهم كلهم — ذكره الشافعى فى المبسوط . وعلى ذلك مايقارب مائة دليل من الكتاب والسنة(١) وفيه

---

(١) يستفاد من مجموع الكتاب والسنة أنّ الإيمان أو الإسلام عهد بين الله وبين عباده المسلمين قد اشتمل هذا العهد على كثير من المواد العملية . فإذا أخلوا بمادة من تلك المواد نقضوا العهد . ومثلهم مثل الدولة التى تعقد ميثاقا أو تكتب معاهدة بينها وبين دولة أخرى فإنها تعدّ مسالمة لها مادامت قائمة بحقّ الميثاق والمعاهدة . فإذا أخلت بجزئية أو قصرت وأهملت فى تنفيذ أمر فإنها تعدّ محاربة وناقضة للميثاق كله ، فالذى يحترم الميثاق ويعرف قيمة صاحبه لايقدم على الإخلال بشىء منه ، والذين يظهرون أنهم يؤمنون بالله ثم يعصون أوامره تنطق أعمالهم بأنهم كاذبون فى إيمانهم ، والذى يصلى لله (وحبا فيه) لايهمل ذلك (الحبّ) فى باقى الفرائض المطلوبة لله ! ! فليتق الله المؤمنون وليعلموا أنهم إن تركوا شيئاً من أوامر الله بالقصد والتعمد يكونون محاربين له ناقضين للعهد الذى بينهم وبينه . ومن يعمل بعض العهد ويترك بعضه فإنه يعمل مايوافق شهوته وهواه ولايعمل حبا فى الله ولاخضوعا لأمر الله هذا هو الحق الذى يقرّه علم النفس والواقع : فالذى يعمل لله وإيمانا به وتسليما له يعمل كل شىء يأمره الله به قال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإنّ الله لايحب الكافرين) .

أن الحج لم يفرض إذ أنّ قدومهم سنة تسع وفرضه سنة عشر ؛ ولوكان مفروضاً لعدّه من الإيمان

﴿وفد نجران﴾ قال ابن إسحاق : لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلوا عليه مسجده بعدالعصر فحانت صلاتهم فقاموا يصلون فى مسجده فأراد الناس منعهم ؛ فقال : دعوهم ! فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم

وفى القصة هذه جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين وتمكينهم من صلاتهم فيها بحضرتهم ؛ وفيها أنّ إقرار الكاهن الكتابى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه نبى لايدخله فى الإسلام مالم يلتزم طاعته ومتابعته ونظير هذا شهادة عمه أبى طالب له بأنه صادق وأنّ دينه خير الأديان ولم تدخله هذه الشهادة فى الإسلام . ومن تأمّل مافى السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له صلى الله عليه وسلم بالرسالة وأنه صادق فلم تدخلهم هذه الشهادة فى الإسلام — علم أنّ الإسلام ليس هو المعرفة فقط ، ولا المعرفة والإقرار فقط ؛ بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً (١)

---

(١) فليتأمّل ذلك المعلمون الذين يقولون للعوام : من قال لاإله إلاالله دخل الجنة وإن سرق وقتل وترك جميع أوامر الدين حتى أصبحت المسألة فوضى وليس للناس زاجر من أنفسهم ، فكأنّ الله لايهمه من الناس إلا أن يقولوا : لاإله إلاالله باللسان (وهل هذا من العقل) بل إنّ الله يريد أنّ الناس يعملون ماأمر به لتتزكى نفوسهم بالتربية العملية . يعملون ماأمر به ليصلحوا شؤونهم الاجتماعية . وأمّا إذا تركوا العمل وقالوا ليلا ونهاراً : لاإله إلاالله فماذا يغنى هذا

الصلاة فى الحرب والخوف

أباح الله سبحانه قصر أركان الصلاة وعددها إذا اجتمع الخوف والسفر. وقصر العدد وحده إذا كان سفر لاخوف معه؛ وقصر الأركان وحدها إذا كان خوف لاسفر معه.

وهذا كان هديه صلى الله عليه وآله وسلم وبه يعلم الحكمة فى تقييد القصر فى الآية بالضرب فى الأرض والخوف (١)

القول إلا أنه يكون منهم نفاقا واستهزاء بالله «يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم! » والأعمال تصدق الأقوال أو تكذبها فهم يوحدون الله بالقول ويشركون به بالعمل! ومن يعلم حقيقة الدين يلتزم تعاليمه، قال تعالى: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) وقال: (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وقال: (سلام عليكم «طبتم» فادخلوها خالدين) وقال: (فنعم أجر العاملين) وقال: (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) وقال: (إنما تجزون ما كنتم تعملون) فتنبهوا أيها المعلمون الغافلون (١) قال الله تعالى: وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إنّ الكافرين كانوا لكم عدوّاً مبيناً * وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم. ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم. ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة. ولاجناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم. وخذوا حذركم. إنّ الله أعدّ للكافرين عذاباً مهيناً. فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعوداً وعلى جنوبكم، فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً * ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما)

وكان من هديه صلى الله عليه وآله وسلم فى صلاة الخوف إذا كان العدو بينه وبين القبلة أن يصف المسلمين كلهم خلفه ويكبر ويكبرون جميعاً ، ثم يركع فيركعون جميعاً ، ثم يرفع ويرفعون جميعاً معه ، ثم ينحدر بالسجود والصف الذى يليه خاصة ، ويقوم الصف المؤخر يواجه العدو فإذا فرغ من الركعة الأولى ونهض إلى الثانية سجد الصف المؤخر بعد قيامه سجدتين ، ثم قاموا فتقدموا إلى مكان الصف الأول ، ويؤخر الصف الأول مكانهم لتحصل فضيلة الصف الأول للطائفتين ، وليدرك الصف الثانى مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم السجدتين فى الركعة الثانية كما أدرك الأول معه السجدتين فى الأولى ، فيستوى الطائفتان فيما أدركوا معه وفيما قضوا لأنفسهم وذلك غاية العدل . فاذا ركع صنع الطائفتان كما صنعوا أول مرة ، فاذا جلس للتشهد سجد الصف المؤخر سجدتين ولحقوه فى التشهد فيسلم بهم جميعاً .

وإن كان العدو فى غير جهة القبلة فانه كان تارة يجعلهم فرقتين : فرقة بإزاء العدو ، وفرقة تصلى معه فتصلى معه إحدى الفرقتين ركعة ثم تنصرف فى صلاتها إلى مكان الفرقة الأخرى وتجىء الأخرى إلى مكان هذه فتصلى معه الركعة الثانية ثم تسلم ، وتقضى كل طائفة ركعة ركعة بعد سلام الإمام : وتارة كان يصلى بإحدى الطائفتين ركعة ثم يقوم إلى الثانية وتقضى هى ركعة وهو واقف وتسلم قبل ركوعه ، وتأتى الطائفة الأخرى فتصلى معه الركعة الثانية ، فاذا جلس فى التشهد قامت فقضت ركعة وهو ينتظرها فى التشهد ، فاذا تشهدت يسلم بهم ، وتارة كان يصلى بإحدى الطائفتين ركعتين فتسلم قبله وتأتى الطائفة الأخرى فتصلى معه الركعتين

الأخيرتين ويسلم بهم ، وتارة كان يصلى بإحدى الطائفتين ركعتين ويسلم بهم وتأتى الأخرى فيصلى بهم ركعتين ويسلم ، وتارة كان يصلى بإحدى الطائفتين ركعة فتذهب ولا تقضى شيئاً وتجىء الأخرى فيصلى بهم ركعة ولا تقضى شيئاً — وهذه الأوجه كلها تجوز الصلاة بها : قال الإمام أحمد : كل حديث يروى فى أبواب صلاة الخوف فالعمل به جائز (١)

مدة الإقامة فى السفر

وقد أقام صلى الله عليه وآله وسلم بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة ولم يقل للأمة لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك ؛ ولكن اتفق إقامته هذه المدة ، وهذه الإقامة فى حال السفر لا تخرج عن حكم السفر سواء طالت أو قصرت إذا كان غير مستوطن ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع

وقال نافع : أقام ابن عمر بأذربيجان ستة أشهر يصلى ركعتين وقد حال الثلج بينه وبين الدخول ، وقال حفص بن عبيد الله ، أقام أنس بن مالك بالشام سنتين يصلى صلاة المسافر ، وقال أنس : أقام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برامهرمز سبعة أشهر يقصرون الصلاة . وقال

---

(١) لأن الصلاة هناك تكون على حسب الاستطاعة بأى كيفية ممكنة قال تعالى : (فإن خفتم فرجالا أو ركباناً) أى فصلوا وأنتم ماشون أو راكبون ، والغرض أن الإنسان يجتهد ليجمع بين ذكر الله الذى يقويه فى الحرب وبين الحذر من الأعداء الذى هو من أسباب النصرة عليهم ؛ فما أحكم هذا الدين الجامع بين المصالح الروحية والمادية .

الحسن : أقمت مع عبد الرحمن بن سمرة بكابل سنتين يقصر الصلاة ولا يجمع ، وقال إبراهيم : كانوا يقيمون بالرى السنة وأكثر من ذلك وسجستان السنتين

فهذا هدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه كما ترى وهو الصواب

والأئمة الأربعة متفقون على أنه إذا أقام لحاجة ينتظر قضاءها يقول : اليوم أخرج ، غداً أخرج ، فإنه يقصر أبدا

قسم الأقضية والأحكام[1]

ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه حبس بعض الناس فى تهمة .

وعن علىّ أنه كان يحبس الممسك فى السجن حتى يموت

القصاص[2]

فى الصحيحين أنّ يهوديا رض رأس جارية بين حجرين فاعترف

---

(١) قال عمر بن عبدالعزيز : تحدث للناس أقضية بقدر ما يحدثون من الفجور، ولذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحوادث التى كانت فى زمنه وجاء بقواعد عامة لما يتجدد من الحوادث ؛ وأمر من يقضى فى حادثة أن ينظر فى كتاب الله ، فإن لم يجد ففى سنة رسول الله ؛ فإن لم يجد فليجتهد فى تطبيقها على قواعدها العامة وأصولها الكلية ، وما عليه إلا أن يتحرى الصواب والحقّ ما استطاع . وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنّ الحاكم إذا اجتهد فأصاب له أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ له أجر .

(٢) قال تعالى : (النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن

فأمر رسول الله أن يرض رأسه كذلك — وفيه دليل على أنّ الرجل يقتل فى المرأة

روى الإمام أحمد والنسائى وغيرهما عن البراء قال : لقيت خالى أبا بردة ومعه الراية فقال : أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى رجل تزوج امرأة أبيه أن أقتله وآخذ ماله

وفى سنن ابن ماجه أنه قال « من وقع على ذات محرم فاقتلوه »

وفى الصحيحين أن ابنة النضر أخت الربيع لطمت جارية فكسرت سنها فاختصموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأمر بالقصاص فقالت أم الربيع : يارسول الله أتقتص من فلانة ؟ لا والله : فقال : « سبحان الله ياأمّ الربيع كتاب الله القصاص » فقالت : لا والله لا تقتص منها أبدا ! فعفا القوم عنها وقبلوا الدية . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنّ من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه »

وفيهما أنّ رجلا عض يد رجل فنزع يده من فيه فسقطت ثنایاه فقال الرسول صلى الله عليه وسلم « يعض أحدكم أخاه كما يعض الفحل لا دية لك » وقد تضمنت هذه الحكومة أنّ من خلص نفسه من يد ظالم فكل ما تلف من الظالم فهو غير مضمون

وفيهما من حديث أبى هريرة : « لو أنّ امرأ طلع عليك بغير إذن

بالأذن . والسنّ بالسنّ ، والجروح قصاص ؛ فمن تصدّق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) . وقال : (ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون)

فخذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح » . وفى لفظ « من أطلع فى بيت قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فلا ديةله ولا قصاص»

وفيهما أنّ رجلا أطلع فى حجرة من حجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقام إليه بمشقص[1] وجعل يختله ليطعنه

قضى أنّ الحامل إذا قتلت عمداً لاتقتل حتى تضع مافى بطنها وحتى يكفل ولدها — ذكره ابن ماجه فى سننه

وقضى أن لا يقتل الوالد بالولد — ذكره أحمد والنسائى

وقضى أنّ الرجل يقتل بالمرأة

الزنا[2]

فى السنن من حديث سهل بن سعد أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأقرّ أنه زنى بامرأة سماها فبعث إلى المرأة فأنكرت فجلده الحد وتركها فظهر من هذا أمران : الأول وجوب الحدّ على الرجل وإن كذبته المرأة ؛ الثانى أنه لايجب عليه حد القذف للمرأة . وأماما رواه أبوداود فى ذلك فمنكر — كما قال النسائى

حكم فى الأمة إذا زنت ولم تحصن بالجلد . روى مسلم : «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها» . وفيه لعلى : «أيها الناس أقيموا على أرقائكم الحد : من

---

(١) نصل سكين

(٢) قال تعالى : (الزانية والزانى فاجلدوا كلّ واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين)

أحصن منهن ومن لم يحصن ، فإن أمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زنت فأمرنى أن أجلدها » (الحديث) وفى قوله تعالى فى الإماء ﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ قد يقال إن تنصيصه على التنصيف بعد الإحصان لئلا يتوهم متوهم أن بالإحصان يزول التنصيف ويصير حدّها حدّ الحرّة . وإما أن يقال جلدها قبل الإحصان تعزير وبعده حد ، وهذ قوى ، وإما أن يقال الافتراق بين الحالين فى إقامة الحدّ لا فى قدره ، وأنه فى إحداهما للسيد وفى الأخرى للإمام

شارب الخمر

حكم بضربه بالجريد والنعال ، وضربه أربعين . وتبعه أبو بكر على الأربعين . وفى مصنف عبد الرزاق أنه صلى الله عليه وآله وسلم جلد فى الخمر ثمانين . وقال ابن عباس : لم يوقت فيها رسول الله شيئا .

وقد صح عنه الأمر بالقتل فى الرابعة أو الخامسة ، وقال ابن عمر أحد رواة القتل : ائتونى به فى الرابعة وعلىّ أن أقتله لكم . (١)

---

(١) يدخل هذا فى قوله تعالى : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض . ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) هذا وألمنا عظيم إذ لم يكن عندنا حكومة تقيم الحدود الشرعية . فكثيراً تكلمنا وكثيراً نصحنا والحكومة لم تجب مع أنها تسعى فى تثبيت الأمن ؛ ولا يمكن أن يثبت الأمن إلا بالقضاء على منابع الفساد كإبطال الترخيص بالزنا والخمر وعقاب الزناة وشاربى الخمر والمخدرات . ولعلّ حكومتنا الحاضرة تعتبر فتبطل المنكرات فى داخل البلاد وتمنع من يأتى بها من الخارج فبذلك تسلم من الرذائل ونحفظ

الأسرى

قتل بعضهم ؛ ومنّ على بعضهم ؛ وفادى بعضهم بمال ، وبعضهم بأسرى من المسلمين ، واسترق بعضهم ـ ولكن لم يسترق بالغاً (١)

الغنائم

كانت الأموال ثلاثة ـ زكاة وغنائم وفيء (٢) : فأما الزكاة فقد بين الله مصرفها فى : «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ» ويضاف إليها خمس الغنائم : ﴿وَاعْلَمُوا

الأمة عقلها ومالها . ولا يخفى ما فى مصر من المنكرات التى فاقت بها بلاد الشرق . فعسى أن يتنبه العلماء وقضاة الشرع ولا يرضوا بأن يفشوا هذا الفساد فى بلاد هم ساكنوها وتحت قانون هم خاضعون له ؛ وعسى أن تتنبه شعوب المسلمين جميعاً فيعرفوا أن هذه المنكرات جيوش للأعداء ترسلها دول الاستعمار تنهك بها قواهم وتفسد بها عقولهم وتأخذ بها أموالهم ، وهى أعظم سلاح يقطع فى الشعوب فتمحو أخلاقهم وتقطع رابطتهم وتجعلهم أسرى للأعداء مقضيا عليهم بالفناء والاستعباد (١) قال تعالى : (ما كان لنبىّ أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) وقال : (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق . فإما منا بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها) وقال : (يا أيها النبىّ قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم ، والله غفور رحيم)

(٢) الغنائم هى المكتسبة من الأعداء بالحرب ، والفيء ما يكتسب منهم بغير ذلك ، قال تعالى : (وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) وحكم الفيء كما قال الله : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم)

﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ والأربعة الأخماس الباقية للغانمين : للفارس ثلاثة أسهم ، والراجل سهم ، والسلب[1] للقاتل .

الوفاء للعدوّ

لما جاءه رسولا مسيلمة الكذاب وقالا : نقول إنه رسول الله ، قال : «لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما» . وثبت أنه ردّ إلى قريش أبا جندل للعهد الذى كان بينه وبينهم «أن يردّ إليهم من جاء منهم مسلما» ولم يرد النساء فقد جاءت إليه سبيعة الأسلمية مسلمة فخرج زوجها فى طلبها فأنزل الله ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ فاستحلفها صلى الله عليه وآله وسلم أنها لم يخرجها إلا الرغبة فى الإسلام وأنها لم تخرج لحدث أحدثته فى قومها ولا بغضا لزوجها ؛ فحلفت فأعطى زوجها مهرها ولم يردها عليه — وهذا الحكم يوافق القرآن ويبين أن الردّ المشروط فى العهد خاص بالرجال .

الأمان

ثبت عنه أنه قال : «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم[2]» .

وثبت أنه أجار رجلين أجارتهما أم هانئ ابنة عمه ، وأجار أبا العاص ابن الربيع لما أجارته ابنته زينب ، وقال : «يجير على المسلمين أدناهم ويريد عليهم أقصاهم» .

---

(١) ما يوجد مع المقتول من المال والسلاح وغيره .

(٢) يعنى من يتعهد منهم بعهد يسرى عليهم جميعا ، وذلك لما بينهم من التضامن والتكافل

الجزية (١)

أخذها من أهل نجران وأيلة وهم نصارى من العرب ، ومن أهل دومة الجندل وأكثرهم عرب ؛ وأخذها من المجوس ، ومن أهل الكتاب باليمن وكانوا يهوداً .

الشفاعة

شفع عند بريرة لزوجها ، فقال لها : « لو راجعته » فقالت . أتأمرنى ؟

(١) جزء من المال تأخذه الحكومة الإسلامية من الأجانب التابعين لحكومتها لتصرفه فيما لهم من المصالح المشتركة بينهم وبين المسلمين

إن الحرية فى الإسلام تقضى بأن يكون كل إنسان حراً فى دينه ؛ وعلى الحكومة الإسلامية أن تعامل من تحتها ممن يتدينون بغير دينها بما تعامل به أهل دينها ماداموا مسالمين لها ؛ وغاية الأمر أنها تلزمهم بدفع نصيب من المال نظير ما تقوم به من الخدمة والدفاع والتحصين وغير ذلك من المصالح التى يتمتعون بها ولم يقوموا بشىء منها ، ونظير هذا تأخذ من المسلمين الزكاة — وقد كان بعض الإفرنج يفهم أن الغرض من أخذ الجزية جبر أهلها على الإسلام ! وهذا من الجهل بحرية الإسلام وعدله . وإذا كانت الحكومة الإسلامية تقاتل من لم يدفع الجزية من أهل الكتاب فإنها تقاتل من لم يدفع الزكاة من المسلمين ، وقد سوت فى قتال الاثنين وقاتلت كلا منهما من حيث أنه نقض عهدها وعطل المصالح التى تقوم بها وليعلم الناس أنها لم تقاتل الأجانب من حيث التعصب للدين أو الجنس ، هذا وقد انعكس حالنا وأصبحنا ندفع الجزية لغيرنا ولكنها جزية يأخذون فيها الأموال والرجال وكل ما يمكنهم أن يسخروه لمصلحتهم منا ! ! وقد أصبح المسلمون (وهم أربع مائة مليون) كلهم (جزية) للمستعمرين إلا الترك والأفغانيين عرفوا أن عزتهم بدينهم فأقاموا من شعائره وأوامره ما أعزهم وأزاح كابوس الاستعمار وسلطته من فوقهم وصاروا أحراراً مستقلين : وهكذا يكون كل من تمسك بأصول الدين من المسلمين .

قالالا ، إنما أنا شافع ، فقالت : لاحاجة لى فيه . فتركها ولم يغضب ولم ينكر عليها ردّ شفاعته لأن الشفاعة فى إسقاط حق المشفوع عنده ، وذلك إليه . ولكن أمره واجب اتباعه .

شراء الصدقة والأكل منها

نهى عمر عن شراء صدقته وقال : لاتشترها وإن أعطاكها بدرهم (١) وأكل من لحم تصدق به على بريرة وقال : هو عليها صدقة ولنا منها هدية

التزوّج

حض أمته على التزوج فقال : «تزوّجوا فإنى مكاثر بكم الأمم — وقال: إنى أتزوج — فمن رغب عن سنتى فليس منى» وقال «يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج ، فإنه أغض للبصر ، وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع ، فعليه بالصوم فإنه له وجاء» . وقال : «الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة» . وفى سنن النسائى أنه سئل أى النساء خير ؟ قال : «التى تسرّه إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه فيما يكره فى نفسها وماله وفى الصحيحين : «تنكح المرأة لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر

---

(١) بعض الأغنياء يجمع زكاة المال فى صرة ويدسها فى كمية من حبوب القمح أو الذرة ثم يتصدّق بتلك الكمية على فقير ويقول له : تبيع لى هذه ويعطيه قروشاً أكثر قيمة من الحبوب فيفرح الفقير لأنه لايعلم بالصرة المدسوسة فيأخذ القروش ويمشى ! ! ويظن صاحب الصدقة أنّ الحيلة جازت على الله وأنه خلص من فرض الزكاة وإن كانت رجعت إليه ولم ينتفع بها أحد ممن لهم الحق — وهكذا كلما جهل الناس الدين فهموا أنه عبارة عن ألفاظ لامعنى لها ! وبالحيلة يمكن هدم كل شعيرة يأمر بها وفعل كل كبيرة ينهى عنها

يذات الدين تربت يداك » . وكان يحض على نكاح الولود ويكره المرأة التى لا تلد ـ كما فى سنن أبى داود (١) .

تزويج المرأة بغير إذنها

فى الصحيحين أن خنساء بنت جذام زوجها أبوها وهى كارهة ، وكانت ثيباً ، فأتت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فردّ نكاحها .

وفى السنن أنّ أبا بكر أتته وقد زوّجها أبوها ، وهى كارهة فخيرها .

وثبت فى الصحيح : «لا تنكح البكر حتى تستأذن وإذنها صماتها» وقضى بأن إذن البكر الصمات وإذن الثيب الكلام (٢) .

---

(١) من الغريب أن يعرض شبان اليوم عن الزواج ، وهم المغرمون بالوطنية وفى مستقبلهم الرجاء لحياة البلاد ، فإذا طالبناهم احتجوا بأنهم لا يرغبون فى النسل فيجعلون الداعى إلى الزواج مانعا منه ! وإذا رجعنا بهم إلى عقولهم وعواطفهم فإنهم لا يرضون أن ينتشر هذا المبدأ فيهم لأنه يؤدى إلى انقراض الأمة وهدم استقلالها . ولا ندرى ماذا تصنع بنات الأمة اللاتى جعلن لهم إذا هم أعرضوا عن التزويج بهن ؟ ! وهل تجنى البلاد من وراء هذا الإعراض إلا فسق بنيها وبناتها فليتق الله شبابنا المتنورون .

(٢) كانت ـ ولا تزال ـ عندنا عادة سيئة فى التزويج : ترى أم البنت وأباها إذا كان لهما رغبة فى رجل يحكمان على بنتهما بأن تتزوجه ولو كانت تكرهه ، كذلك أم الرجل وأبوه إذا كانا يرغبان امرأة يلزمان ابنهما بأخذها . ولو كان لا يميل إليها ، ولهذا لم تنتظم عشرة الزوجين فى كثير من البيوت . فليعتبر الآباء وأولياء الزواج وليقتدوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وليعلموا أنّ المقصود من الحياة الزوجية لا يكون إلا بالحب المتبادل بين الزوجين . قال تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إنّ فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

وفى السنن : اليتيمة تستأمر فى نفسها ، فإن صمتت فهو إذنها ، وإن أبت فلا جواز عليها .

إذن الولى

فى السنن من حديث عائشة : « أيما امرأة أنكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل ، فإن أصابها فلها مهرها بما أصاب منها ؛ فإن اشتجروا فالسلطان ولىّ من لا ولىّ له » . قال الترمذى حديث حسن . وفى السنن الأربعة : « لا نكاح إلا بولىّ » ؛ وفيها : « لا تزوج المرأة المرأة ، ولا تزوج المرأة نفسها ، فإنّ الزانية هى التى تزوج نفسها » (١)

وحكم أنّ المرأة إذا زوّجها الوليان فهى للأول منهما .

﴿التفويض﴾ قضى فى رجل تزوج امرأة ولم يفرض لها صداقا ولم يدخل بها حتى مات ، أنّ لها مهر مثلها لا وكس ولا شطط ؛ لها الميراث وعليها العدّة : أربعة أشهر وعشرا . وفى الترمذى أنه قال لرجل : « أترضى أن أزوجك فلانة ؟ قال نعم ؛ وقال للمرأة : أترضين أن أزوجك فلانا ؟ قالت نعم ، فزوجها فدخل بها الرجل ولم يفرض لها صداقا ولم يعطها شيئاً ، فلما كان عند موته عوضها من صداقها سهما له بخيبر » .

﴿المرأة فى الحبل﴾ فى السنن والمصنف عن بصرة بن أكثم قال : تزوجت امرأة بكراً فى كسرها فدخلت عليها فإذا هى حبلى ، فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « لها الصداق بما استحللت من فرجها » ، وحكم

(١) يقيد المرأة بوليها حفظا لكرامته وكرامتها ، ويأمر الولى بألا يعطلها عن الزواج ولا يزوجها بمن تكره ، فهذا توفيق بين المصالح .

بالتفريق وجلدها بعد ولادتها .

﴿الشرط فى النكاح﴾ فى الصحيحين « إن أحق الشروط أن توفوا ما استحللتم به الفروج» . وفيهما : «لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ مافى صحفتها لها ماقدر ، لها» . وفيهما أنه نهى أن تشترط المرأة طلاق أختها وفى مسند أحمد : «لايحل أن تنكح امرأة بطلاق أخرى»

﴿نكاح الشغار﴾ فى صحيح مسلم : « لاشغار فى الإسلام » . والشغار أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته وليس بينهما صداق . وفى حديث أبى هريرة : «والشغار أن يقول الرجل للرجل زوجنى ابنتك وأزوجك ابنتى ، زوجنى أختك وأزوجك أختى» .

﴿نكاح المحلل﴾ فى الترمذى والمسند من حديث ابن مسعود : «لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المحلل والمحلل له» . قال الترمذى حسن صحيح . وفى المسند من حديث أبى هريرة مرفوعا : « لعن الله المحلل والمحلل له » وإسناده حسن — وفيه عن علىّ مثله — وفى سنن ابن ماجه : «ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا بلى يارسول الله قال ، هو المحلل لعن الله المحلل والمحلل له [1]»

---

(١) يزعم أهل التحليل أنهم بهذه الفعلة الشنعاء يفسرون قول الله : (حتى تنكح زوجا غيره) ولو عقلوا أنّ الزوج هو الراغب والمرغوب فى العشرة المبتغى والمبتغى للحياة الزوجية . فنكاح المحلل تنكره الفطرة وتستحى منه العفيفة وهو زنا يتوصل الناس إليه بهذه الحيلة كما توصلوا إلى إسقاط الصلاة والزكاة ، ولا يزال الناس يحتالون لإسقاط الواجبات وفعل المنكرات حتى يهدموا كلّ الدين باسم الدين !! وسبب ذلك غفلتهم عن حكمة التشريع وجهلهم بهدى

﴿نكاح المحرم﴾ فى صحيح مسلم : « لا ينكح المحرم ولا ينكح » .

﴿من أسلم على أكثر من أربع نسوة أو على أختين﴾ فى الترمذى أن غيلان أسلم وتحته عشرة نسوة ، فقال له : « خذ منهن أربعا وفارق سائرهن » .

وأسلم فيروز الديلمى وتحته أختان . فقال له : « خذ أيتهما شئت » .

وقضى بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها أو بنتها ، وهو مأخوذ من تحريم الأختين

﴿فى الزوجين يسلم أحدهما قبل الآخر﴾ لم يعرف أنه جدّد نكاح زوجين سبق أحدهما الآخر بإسلامه قط . ولم يعرف عن الصحابة كذلك ، وقد ردّ ابنته زينب على أبى العاص بن الربيع وهو إنما أسلم زمن الحديبية ، وهى أسلمت من أوّل البعثة ، فبين إسلامها وإسلامه أكثر من ثمانى عشرة سنة . وأما قوله فى الحديث كان بين إسلامها وإسلامه ست سنين فوهم ، إنما أراد بين هجرتها وإسلامه

﴿القسم بين الزوجات﴾ فى الصحيحين عن أنس قال : من السنة إذا تزوج الرجل البكر على الثيب أقام عندها سبعا وقسم ، وإذا تزوّج الثيب أقام عندها ثلاثا ثم قسم (١)

الرسول صلى الله عليه وسلم فليعتبر قضاة الشرع والمأذونون بعقد الزواج ، وليتقوا الله فى فروج النساء التى يستحلونها بغير حقّ

(١) فى هذا الزمان يتزوّج الرجل على امرأته لمضارّتها فلا يطلقها ولا يبيت عندها والله يقول : (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) أى لم تعرف متزوجة هى أم مطلقة ، ويقول : (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) ولكن الناس مع خوفهم — بل مع تحققهم — من عدم العدل أقدموا على التعدّد فى الزوجات ورضوا بأن

﴿الكفاءة فى النكاح﴾ فى الترمذى : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير (١) » . وقال لبنى بياضة : « أنكحوا أباهند وانكحوا إليه » وكان حجاما ! وزوج زينب بنت جحش القرشية من زيد بن حارثة مولاه ، وزوج فاطمة بنت قيس الفهرية من أسامة ابنه ، وتزوج بلال بن رباح بأخت عبد الرحمن ابن عوف

﴿الصداق﴾ فى مسلم عن عائشة : كان صداق النبى صلى الله عليه وسلم فى أزواجه ثنتى عشرة أوقية . وقال عمر : ماعلمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نكح شيئاً من نسائه ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر

يرضوا شهواتهم ويغضبوا الله ورسوله ويوجدوا النزاع والشقاق بين أزواجهم وأولادهم ويجنوا من وراء ذلك خراب البيوت وفساد الأخلاق !! فاللهم وفق الناس لاتباع دينك حتى ينتظموا فى بيوتهم وجميع شؤونهم .

(١) كانت الفتنة وظهر الفساد بالزنا والسفاح لأن أكثر الناس ينتظر فى الزواج صاحب المال أو الجاه . ومنهم من يرى نفسه (شريفاً) لأن عليه عمامة خضراء أو ينتسب إلى جد تحت (قبة علياء) وغير ذلك مما يفتتن به أهل الأنساب ويمتنعون من أجله من تزويج من ليس (شريفاً مثلهم) فالشريف عندهم هو هذا ، وإن كانوا يخالفون رسول الله صلى الله عليه وسلم والله يقول : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ويقول : (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون) ويقول : (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) ويقول : (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور)

من ثنتى عشرة أوقية . قال الترمذى حديث حسن صحيح والأوقية أربعون درهما .

وفى الصحيحين قال لرجل يريد الزواج : « التمس ولو خاتما من حديد فلم يجد ، فقال له : هل معك شىء من القرآن ؟ قال نعم ، سورة كذا وكذا فزوجه بما معه من القرآن » . وفى مسند الإمام أحمد : « إنّ أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة »(١)

---

(١) أصبح الصداق فى هذا الزمان منفرا ومانعاً من الزواج لتغالى الناس فيه نعم لم يكن حراما على الإنسان أن يدفع لامرأته مايشاء من كثرة الصداق ، ولكن بشرط ألا يلتزم الناس مايرهقهم ويعطل الحكمة المقصودة من الزواج وقد صارت النساء الآن سلعا تباع وتشترى بالصداق ويتساوم أهلهنّ مع الراغبين فيهنّ : فأى الراغبين أكثر صداقا يكون أولى بهنّ ؛ وهذه عادة سيئة صرفت الناس عن البحث فى المطلوب من حسن العشرة وطيب الأخلاق ومنعت كثيرا من الزواج حيث لم يوجد المال الذى يرضى الطامعين والمتغالين من أهل النساء ويكون لهؤلاء الأهل عذر إذا كان الشرع كلفهم أن يرهقوا أنفسهم بالجهاز الذى يحتجون به ؛ وهو الجهاز الذى رأيناهم يتغالون فيه ويبيعون أملاكهم من أجله والله لم يجعل الزواج لخراب البيوت وضياع الأموال . فالواجب على الناس بدل تسابقهم فى الجهاز الذى ينفعون بثمنه الإفرنج أن يتسابقوا فى تسهيل الزواج حتى يقل الزنا وأن يتسابقوا فى تجهيز الزوجين بالفضيلة بدل أن يجهزوهما بكثرة الأقمشة والمثقلات من الأمتعة التى تكثر من ترفهما وكسلهما ولقد رأينا من سوء العادة أنّ الفلاحين يناظرون أهل المدن فى جهاز العروسة فيأتون بالأسرة والأبسطة أو أمثال هذا من المنعمات ! ! فقل لى بربك إذا رقد الفلاح على السرير وتعود على ذلك هل يمكنه أن يرقد على الأرض ؟ وماذا يكون حاله إذا مشى على الحرث إذا كان قد تعود المشى على البساط ومنعمات الجهاز فى البيت ؟ ! إنّ ذلك أمر قد وقع ، ونشاهد الآن كثيراً من الفلاحين أزال التنعم خشونتهم

﴿فى الزوج المعاب﴾ فى مسند أحمد أنّ النبى صلى الله عليه وآله وسلم تزوج امرأة من غفار ؛ فلما دخل عليها وضع ثوبه وقعد على الفراش أبصر بكشحها بياضاً فانحاز عن الفراش ثم قال : « خذى عليك ثيابك » ولم يأخذ مما آتاها شيئاً .

فى الموطأ عن عمر : « أيما امرأة غرّبها رجل بها جنون أو جذام أو برص فلها المهر بما أصاب منها ، وصداق الرجل على من غرّه » .

وفى سنن أبى داود « طلق عبد يزيد أبو ركانة زوجته أم ركانة ونكح امرأة من مزينة فجاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : مايغنى عنى إلا كما تغنى هذه الشعرة — لشعرة أخذتها من رأسها — ففرق بينى وبينه فقال له : طلقها ففعل »

وذكر سعيد بن منصور عن ابن سيرين أنّ عمر بعث رجلا على بعض السعاية فتزوج امرأة وكان عقيما ، فقال له عمر : أعلمتها أنك عقيم ؟ قال لا ، قال : فانطلق فأعلمها ثم خيرها

﴿خدمة المرأة لزوجها﴾ قال ابن حبيب : حكم النبى صلى الله عليه وسلم بين علىّ وفاطمة حين اشتكيا إليه الخدمة ، فحكم على فاطمة بالخدمة الباطنة — خدمة البيت ، وحكم على علىّ بالخدمة الظاهرة . وصح عن أسماء

فأصبحوا لايستطيعون العمل فى المزارع وكانت عاقبتهم أنهم خسروا باحتياجهم إلى من يزرع لهم ، وكل من يزرع سيصير غير قادر ولايعلم إلا الله ماذا يكون بعد ذلك . فيا أيها الفلاحون لاتسيروا فى هذا التيار المهلك وحافظوا على خشونتكم التى هى رأس مالكم وبها حياة أمتكم وبلادكم .

كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله ، وكان له فرس وكنت أسوسه وأحش له وأقوم عليه . وصح عنها أنها كانت تخرز الدلو ، وتسقى الماء ، وتنقل النوى على رأسها من أرض له على ثلثى فرسخ (١)

﴿الطلاق﴾ فى السنن عنه صلى الله عليه وسلم : «لاطلاق فى إغلاق» — أى فى غضب لأنّ الغضبان قد أغلق عليه باب القصد بشدّة غضبه

وفى الصحيح : « إنّ الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها مالم تكلم أو تعمل به» . وقال : «إنما الأعمال بالنيات» . وقال : «إنّ الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» ذكر فى السنن (٢)

فى الصحيحين أنّ ابن عمر طلق امرأته وهى حائض ، فسأل عمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال : «مره فليراجعها ، ثم ليمسكها حتى

---

(١) من يوم أن تركت نساؤنا العمل فى البيت واعتمدن على الخادمات فسد نظام البيت وصارت المرأة لاشغل لها إلا تزيين نفسها وتنقلها من بيت إلى بيت ومن فسحة إلى فسحة وتسابقت مع قريناتها فى الملابس الجديدة (المودة) !! ولا تنس ماوراء ذلك .

(٢) الخلاصة من هذا أنّ الإنسان إذا حدثته نفسه بطلاق أوغيره من غير أن ينطق به أو يعمل عليه يكون عفواً لايلزمه ، كذلك إذانطق أو عمل من غير أن يقصد وينوى يكون لغواً لايؤاخذ عليه . قال جلّ شأنه : (لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) وقال (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) أى تحمل مايكون من الناس (عفواً) لاتلزمهم به ولاتؤاخذهم عليه ، وقال : (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) وإذا كان المكره على الكفر لايكفر فكيف المكره على الطلاق يقع طلاقه ؟ ! فعقدة الزواج عقدت بقصد واختيار ورغبة فلا تحل إلا بقصد واختيار ورغبة . فاللهم وفق الناس لمعرفة حكمتك حتى لايعدلوا عن دينك .

تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسكها بعد ذلك وإن شاء طلقها قبل أن يمس فتلك العدّة التى أمر الله أن تطلق لها النساء» . وفى مسلم : «مره فليراجعها ، ثم ليطلقها إذا طهرت وهى حامل» ، وفى لفظ : « إنّ شاء طلقها طاهراً قبل أن يمس فذلك الطلاق للعدّة كما أمر الله تعالى» .

وعند أحمد وأبى داود والنسائى . طلق عبد الله بن عمر امرأته وهى حائض ، فردّها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يرها شيئا وقال : «إذا طهرت فليطلق أو ليمسك» . وقال ابن عمر : قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فى قبل عدّتهن . فتضمن هذا الحكم أنّ الطلاق على أربعة أوجه : وجهان حلالان ووجهان حرامان . فالحلال أن يطلق امرأته طاهراً من غير جماع ؛ أو يطلقها حاملا مبينا حملها . والحرام أن يطلقها وهى حائض ؛ أو يطلقها فى طهر جامعها فيه . هذا فى طلاق المدخول بها ؛ وأما من لم يدخل بها فيجوز طلاقها حائضا أو طاهراً كما قال تعالى : ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ وقال تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ وقد دل على هذا قوله تعالى ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وهذه لا عدّة لها ؛ ونبه عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : «فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق النساء لها» .

﴿الطلاق الثلاث فى لفظ واحد﴾ أخبر أنّ رجلا طلق امرأته ثلاث

تطليقات جميعا ؛ فقام مغضبا ثم قال : «أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم» إسناده على شرط مسلم

وروى مسلم : كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر واحدة . فقال عمر : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه عليهم وفى رواية له أن عمر لما رأى الناس قد تسابقوا فيها قال : أجيزوهن عليهم

وفى مسند الإمام أحمد : طلق ركانة بن عبد يزيد امرأته ثلاثا فى مجلس واحد فحزن عليها حزنا شديداً ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كيف طلقتها ؟ قال : طلقتها ثلاثا ؛ قال : فى مجلس واحد ؟ قال نعم ؛ قال : «فإنما تملك واحدة فأرجعها إن شئت» . قال فراجعها — وقد صحح الإمام هذا وحسنه (١)

فانظر قوله : «فإنما تملك واحدة» ، وذلك أن ما كان مرة بعد مرة لم يملك المكلف إيقاع امرأته جملة واحدة كاللعان فإنه لو قال : أشهد بالله أربع شهادات إنى لمن الصادقين كان مرة واحدة ؛ وكقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : «من سبح الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين» (الحديث) فمن لم يقل مرة بعد مرة لم يك عاملا به ؛ ومثله كثير — وهذا الموافق للغة والعرف المنطبق على العقل ، وقوله تعالى : (الطلاق مرتان) من هذا الباب وقد بينت السنة المراد منه بهذه النصوص

---

(١) الآن تحكم المحاكم الشرعية بوقوع الطلاق الثلاث فى لفظ واحد ثلاثا ! ! ولذا كثر التجاء الناس إلى المحلل الملعون ! ! فالأولى أن تحكم كما حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تتمسك برأى عمر الذى خالفه فيه كثير من أصحابه

ذكر ابن وضاح عن عمرو بن شعيب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إذا ادعت المرأة طلاق زوجها فجاءت على ذلك بشاهد واحد عدل استحلف زوجها ، فإن حلف بطلت عنه شهادة الشاهد ؛ وإن نكل فنكوله بمنزلة شاهد آخر وجاز طلاقه

﴿الظهار (١)﴾ ثبت فى السنن والمسانيد أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت مالك وهى التى جادلت فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واشتكت إلى الله فقالت : يارسول الله إن أوس بن الصامت تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىّ فلما خلا سنى ونثرت بطنى جعلنى كأمه عنده فقال لها صلى الله عليه وآله وسلم : «ماعندى فى أمرك شىء» . فقالت اللهم إنى أشكو إليك . وروى أنها قالت : إن لى صبية صغارا إن ضممهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلىّ جاعوا ؛ فنزل القرآن . وقالت عائشة : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات لقد جاءت خولة بنت ثعلبة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا فى كسر البيت يخفى علىّ بعض كلامها ؛ فأنزل الله عز وجل ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ فقال النبى صلى الله عليه وسلم « ليعتق رقبة ! » قالت لايجد ، قال : « يصوم شهرين متتابعين » قالت : إنه شيخ كبير ، قال : « فليطعم ستين مسكيناً » قالت : ماعنده من شىء يتصدق به ، قال : « سأعينه بعرق من

---

(١) كان الرجل فى الجاهلية يظاهر امرأته : أى يعطيها ظهره ويجعلها أمه ، ويقول لها : أنت أمى ! فلايمسها ولا يقترب منها ؛ فأنكر الله عليهم ذلك القول وأمرهم بألا يعودوا إليه وجعل على من يعود كفارة : اقرأ سورة (قد سمع)

تمر » قالت : وأنا أعينه بعرق آخر ، قال : أحسنت فأطعمى عنه ستين مسكينا وارجعى إلى ابن عمك » .

﴿ الإيلاء (١) ﴾ ثبت فى البخارى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آلى من نسائه ، وكانت انفكت رجله فأقام فى مشربة له تسعاً وعشرين ليلة ثم نزل ، فقالوا : يارسول الله آليت شهراً ؟ فقال : « الشهر قد يكون تسعاً وعشرين » : وقد قال سبحانه ﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ لحوق النسب ﴾ فى الصحيحين أن رجلا قال للنبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم إن امرأتى ولدت غلاماً أسود — كأنه يعرض

---

(١) هو أن يأخذ الرجل على نفسه أن يمتنع من امرأته . وهذا جائز إذا كان الغرض منه تربيتها وتعديلها ، قال تعالى (واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع) ولكن لايجوز أن يزيد الإيلاء على أربعة أشهر كما ترى ولذا لم يحرم الله الظهار السابق من حيث إن الرجل يمتنع من امرأته فذاك ليس بحرام ، وإنما حرمه من حيث يقول الرجل لامرأته : أنت كأمى ويمتنع منها اعتقادا منه بأنها كأمه لايجوز أن يقربها ، كالتبنى الذى كانوا يجعلون به الأدعياء أبناء ويحرمون على أنفسهم الزواج بزوجات هؤلاء الأدعياء كأنهم أبناؤهم من صلبهم فأبطل لهم هذا الاعتقاد وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يتزوج زينب بعد أن طلقها زيد المتبنى له . قال تعالى : (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل)

بنفيه — فقال : هل لك من إبل ؟ قال نعم : قال مالونها ؟ قال : حمر : قال فهل من أورق قال : نعم ، قال : فأنى أتاها ذلك ، قال : لعله يارسول الله نزعها عرق ، فقال . وهذا « لعله أن يكون نزعه عرق»

وفيه أن الحد لايجب بالتعريض إذا كان على وجه السؤال وأن مجرد الريبة لايسوغ اللعان ونفى الولد ، وفيه ضرب الأمثال والنظائر فى الأحكام .

﴿الحضانة﴾ روى أبو داود أن امرأة قالت : يارسول الله إن ابنى هذا كان بطنى له وعاء وثديى له سقاء وحجرى له حواء ، وإن أباه طلقنى فأراد أن ينزعه منى ؟ فقال لها : « أنت أحق به مالم تنكحى » . وروى أهل السنن أنه صلى الله عليه وآله وسلم خير غلاما بين أبيه وأمه

﴿نفقة الزوجات﴾ لم يرد عنه مايدل على تقديرها ، وإنما وكل الأمر فيها إلى العرف . ففى صحيح مسلم أنه قال فى خطبة حجة الوداع بمحضر الجمع العظيم قبل وفاته ببضعة وثمانين يوما : « واتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » . وفى الصحيحين أن هنداً امرأة أبى سفيان قالت له : إن أبا سفيان رجل شحيح لايعطينى من النفقة ما يكفينى وولدى إلا ما أخذت منه وهو لايعلم ؟ فقال « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف »[1]

---

(١) قال تعالى : (لينفق ذوسعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لايكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا) إلا أن المحاكم الشرعية قد غصت بالنساء اللاتى تركهن أزواجهن من غير نفقة ، فالرجل أصبح لاتهمه امرأته يتزوج عليها ويتركها بأولادها وقد يتزوج عدة نساء ، ويخطى

روى الدارقطنى عن أبى هريرة - فى الرجل لايجد ماينفق على امرأته - قال صلى الله عليه وآله وسلم : « يفرق بينهما » . وقال سعيد بن منصور فى سننه عن أبى الزناد قال : سألت سعيد بن المسيب عن الرجل لايجد ماينفق على امرأته أيفرق بينهما ؟ قال نعم ، قلت سنة ؟ قال سنة .

روى مسلم وغيره أن فاطمة بنت قيس لما طلقها زوجها ألبتة وخاصمته عند الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى السكنى والنفقة قالت : فلم يجعل لى سكنى ولا نفقة ، وأمرنى أن أعتد عند ابن أم مكتوم - فإنه رجل أعمى - تضع ثيابها عنده ولا يراها . ورواها النسائى فى سننه وفيها يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنما النفقة والسكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها الرجعة » . وفى لفظ له والدارقطنى : « وإنما السكنى والنفقة لمن يملك الرجعة » . والحكمة فى ذلك بينها الله تعالى بقوله : ﴿ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ

بغيرهن سفاحا ! وتجمد عواطفه أمام زوجاته وأولاده ، ومن أكبر البلاء على هؤلاء النساء أن تؤجل المحكمة قضاياهن عدة أسابيع أو أشهر وهن لايجدن مايسد جوعهن ، وقد يكون القاضى له عذر لاحتياجه إلى معرفة الحقيقة من حالة المرأة والرجل ، ولكن المحامى حبا فى كسب القضية من المرأة يضلل القاضى ويأتى بالشهود الذين يعرقلون الحكم فى صالح المرأة إذا لم يكونوا سببا فى خسارتها للقضية ! ! وكثيرا ماعرقل المحامون قضايا النفقة المزوجة بطلب حكم الطاعة ، ولم تكن المرأة عاصية ولكن الزمان رماها بزوجها القاسى ومحاميه الذى لايخاف من الله ، ولاأنكر أن المرأة قد تسىء فى معاملتها وتدعى ماليس من حقها ، ولكن ذلك يكون فى الغالب من سوء زوجها . فياأيها القضاة اعرفوا الحق ولاتوسعوا الوقت لجدل المحامين وزور الشهود ، وبقدر ماتستطيعون قربوا الفصل فى القضايا وأنتم أعلم بأن المرأة إذا لم تجد نفقة ماذا تصنع ! ! فحافظوا على عفتها واتقوا الله فيها

ذٰلِكَ أَمْرًا ﴾ اقرأ أول سورة الطلاق ففيها أمر الله سبحانه الأزواج الذين لهم عند بلوغ الأجل الإمساك والتسريح بألا يخرجوا أزواجهم من بيوتهم ؛ وأمر أزواجهم أن لايخرجن . فدل على جواز إخراج من ليس لزوجها إمساكها بعد الطلاق ؛ أو يرجى فيها أحدث أمر - أى مراجعة - كما قاله السلف ومن بعدهم .

﴿ نفقة الأقارب ﴾ روى أبو داود : أتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم رجل فقال من أبرّ ؟ قال « أمك وأباك وأختك وأخاك ، ومولاك الذى يلى ذاك . حق واجب ورحم موصولة » . وروى النسائى « يد المعطى العليا ، وابدأ بمن تعول « أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك » . وفى سنن أبى داود « إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أولادكم من كسبكم فكلوه هنيئاً مريئاً » .

﴿ الرضاعة وما يحرم بها ﴾ ثبت فى الصحيحين من حديث عائشة أن الرضاعة تحرم ماتحرم الولادة . وفيهما من حديث ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أريد على ابنة حمزة فقال « إنها لاتحل لى ابنة أخى من الرضاعة » ويحرم من الرضاعة مايحرم من النسب ، وفى سنن أبى داود « لايحرم من الرضاع إلا ما أنبت اللحم وأنشز العظم (١) »

(١) يجب أن ينتبه الناس إلى مايقع فى هذا الزمان من الرضاعة ، فكثيراً ماترى النساء يرضع بعضهن أولاد بعض على التناوب فى الصغر ، وخصوصاً إذا كن فى منزل واحد وكان واحدة لبنها قليلا فإنها تعطى ابنها لجارتها ترضعه على بنتها فيرضع الاثنان من ثدى واحد زمنا ، وبعد أن يكبرا يتزوج كل منهما بالآخر وقد أوقع الجهل بهذا أناسا كثيرين .

﴿العدد﴾ بين الله هذا فى كتابه أتم بيان فذكر أربعة أنواع من العدد

(النوع الأول) عدة الحامل بوضع الحمل مطلقا بائنة كانت أو رجعية مفارقة فى الحياة أو متوفى عنها، فقال ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وبهذا احتج جمهور الصحابة، ولو وضعته والزوج على المغتسل كما أفتى به النبى صلى الله عليه وآله وسلم لسبيعة الأسلمية .

(النوع الثانى) عدة المطلقة التى تحيض ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ .

(النوع الثالث) عدة المطلقة التى لا تحيض، وهى إما صغيرة لا تحيض لها أو كبيرة يئست منه فقال : فى الاثنتين ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾

(النوع الرابع) المتوفى عنها زوجها ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ . وهذا يتناول غير الحامل لأنها خرجت بالنص ولأنها لو تمادى حملها فوق ذلك تربصته ضرورة .

﴿البيوع﴾ فى الصحيحين إن الله ورسوله حرما بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام، فهذه كلمات جوامع اشتملت على تحريم ثلاثة أجناس : مشارب تفسد العقول، ومطاعم تفسد الطباع، وأعيان تفسد الأديان (١)

---

(١) إن طرق البيع والشراء متروكة للعرف، والمقصود من الدين أن الناس يأكلون حلالا طيبا ولا يأكل بعضهم مال بعض بغير حق . قال الله تعالى (يا أيها

قسم الطب والتداوى

المرض نوعان : مرض القلوب ومرض الأبدان ، وهما مذكوران فى القرآن . ومرض القلوب نوعان . مرض شبهة وشك ، ومرض شهوة وغى . وكلاهما فى القرآن قال تعالى فى مرض الشبهة : ﴿فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ . وقال تعالى فى مرض الشهوات : ﴿يَانِسَاءَ النَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾

وأمّا مرض الأبدان فقال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ . وذكر مرض البدن فى الحج والصوم والوضوء لسرّ بديع يبين لك عظمة القرآن والاستغناء به ـ لمن فهمه وعقله ـ عن سواه ، وذلك أن قواعد طب الأبدان ثلاثة : حفظ الصحة ؛ والحمية عن المؤذى ، واستفراغ المواد الفاسدة . فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة فى آية الصوم فقال : ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فأباح الفطر للمريض لعذر المرض ؛ وللمسافر طلباً لحفظ صحته وقوته لئلا يذهبها الصوم فى السفر لاجتماع شدة الحركة

الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيما) وقال (وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضارّ كاتب ولا شهيد)

وما يوجبه من التحليل وعدم الغذاء الذى يخلف ماتحلل فتخور القوة وتضعف وقال فى آية الحج ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ من قمل أو حكة أو غيرهما أن يحلق رأسه فى الإحرام استفراغاً لمادة الأبخرة الرديئة التى أوجبت له الأذى فى رأسه باحتقانها تحت الشعر، فإذا حلق رأسه ففتحت المسام فخرجت تلك الأبخرة منها، فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذى انحباسه . والأشياء التى يؤذى انحباسها ومدافعتها عشرة : الدم والمنى والبول والغائط والريح والقىء والعطاس والنوم والجوع والعطش — وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواء ؛ وقد نبه سبحانه باستفراغ أدناها وهو البخار المحتقن فى الرأس على استفراغ ماهو أصعب منه كما هى طريقة القرآن : التنبيه بالأدنى على الأعلى .

وأما الحمية فقال تعالى فى آية الوضوء : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حمية له أن يصيب جسده مايؤذيه ؛ وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذ له من داخل أوخارج فقد أرشد عباده إلى أصول الطب الثلاثة ومجامع قواعده . ونحن نذكر هدى رسول الله صلى الله عليه وآله سلم فى ذلك مبينين له : —

فأما طب القلوب فسلم إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ولاسبيل إلى حصوله إلا من جهتهم وعلى أيديهم . وأما طب الأبدان فإنه نوعان :

نوع قد فطر الله عليه الحيوان ناطقه وبهيمه . فهذا لايحتاج فيه إلى معالجة طبيب كطلب الجوع والعطش والبرد والتعب بأضدادها ومايزيلها والثانى مايحتاج إلى فكر وتأمل كدفع الأمراض المتشابهة التى يخرج بها الجسم عن حد الاعتدال ؛ وهو مانحن بصدد بيانه .

هديه صلى الله عليه وسلم فى تداويه لنفسه والأمر به لغيره

روى مسلم : « لكل داء دواء ؛ فإذا أصاب دواء الداء برئ بإذن الله عز وجل » . وفى الصحيحين : « ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء » وفى مسند الإمام أحمد عن أسامة بن شريك قال : « كنت عند النبى صلى الله عليه وآله وسلم وجاءت الأعراب فقالوا : يارسول الله أنتداوى ؟ فقال نعم ! ياعباد الله تداووا فإن الله عز وجلّ لم يضع داء إلا وضع له شفاء ؛ غير داء واحد . قالوا ما هو ؟ قال : الهرم » وفى لفظ : « إنّ الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء ؛ علمه من علمه وجهله من جهله [1] وفى المسند والسنن عن أبى خزامة قال قلت يارسول الله : أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : هى من قدر الله وقد روى أنه دخل على مريض يعوده فقال : أرسلوا إلى طبيب ؛ فقال قائل : وأنت تقول ذلك يارسول الله ؟! قال نعم إن الله عزّ وجلّ لم ينزل داء إلا أنزل له دواء .

فقد ضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات وإبطال قول

---

(١) تحريض على تعلم الطب ومعرفة منافع الأشياء

من أنكرها والرد على من أنكر التداوى .

﴿إرشاده إلى أحذق الطبيبين﴾ فى موطإ مالك عن يزيد بن أسلم أنّ رجلا جرح فاحتقن الدم فدعا رجلين من بنى أنمار فنظرا إليه فزعم أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال لهما : أيكما أطب ؟ فقال : أوفى الطب خير يارسول الله ؟ فقال : « أنزل الدواء الذى أنزل الداء » .

ففى هذا الحديث أنه ينبغى الاستعانة فى كل علم وصناعة بأحذق من فيها فالأحذق ؛ لأنه إلى الإصابة أقرب

﴿اتقاؤه الأمراض المعدية وإرشاده الأصحاء إلى مجانبة أهلها﴾

فى صحيح مسلم أنه كان فى وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبى صلى الله عليه وسلم ارجع فقد بايعناك . وروى البخارى : « فر من المجذوم فرارك من الأسد » . وفى سنن ابن ماجه : « لا تديموا النظر إلى المجذومين » وفى الصحيحين : « لا يوردن ممرض على مصح » . ويذكر عنه : « كلم المجذوم وبينك وبينه قدر رمح أو رمحين[1] » .

تضمين من طب الناس وهو جاهل بالطب

روى أبو داود والنسائى وابن ماجه أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من تطبب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك فهو ضامن » والطب معناه الإصلاح يقال : طببته إذا أصلحته . وقال من تطبب ولم يقل من طب لأن لفظ تفعل يدل على تكلف الشىء والدخول فيه بعسر وكلفة وأنه ليس من أهله

(١) هذا يوافق مايقوله الأطباء فى جراثيم السل من أنها تنتقل فى البصاق على هذا البعد

كتحلم وتشجع . ففى الحديث إيجاب الضمان على الطبيب الجاهل ؛ فاذا تعاطى علم الطب وعمله ولم يتقدم له به معرفة فقد هجم بجهله على إتلاف الأنفس وأقدم بالتهور على مالم يعلمه فيكون قد غرر بالعليل فيلزمه الضمان لذلك .

الاحتماء من التخم

فى المسند وغيره أنه قال : «ماملأ آدمى وعاء شرا من بطنه ! ! بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ؛ فإن كان لابد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» . والأمراض نوعان : أمراض مادية تكون عند زيادة مادة أفرطت فى البدن حتى أضرت بأفعاله الطبيعية وهى الأمراض الأكثرية وسببها إدخال الطعام على البدن قبل هضم الأول ، والزيادة فى القدر الذى يحتاج اليه البدن ، وتناول الأغذية القليلة النفع البطيئة الهضم ، والإكثار من الأغذية المختلفة التراكيب المتنوعة فإذا ملأ الآدمى بطنه من هذه الأغذية واعتاد ذلك أورثته أمراضا متنوعة : منها بطىء الزوال وسريعه فاذا توسط فى الغذاء وتناول منه قدر الحاجة — وكان معتدلا فى كميته وكيفيته — كان انتفاع البدن به أكثر من انتفاعه بالغذاء الكثير . ومراتب الغذاء ثلاث : أحدها مرتبة الحاجة ؛ والثانية مرتبة الكفاية ؛ والثالثة مرتبة الفضلة فأخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه يكفيه لقيمات يقمن صلبه فلا تسقط قوته ولا تضعف معها . فإن تجاوزها فليأكل فى ثلث بطنه ويدع الثلث الآخر للماء والثالث للنفس ؛ وهذا من أنفع ما يكون للبدن والقلب وإنما يقوى البدن بحسب ما يقبل من الغذاء لا بحسب كثرته .

هديه صلى الله عليه وسلم فى علاج الأمراض

﴿علاج الحمى﴾ ثبت فى الصحيحين أنه قال : «إنما الحمى ـ أو شدة الحمى من فيح [1] جهنم فأبردوها بالماء» — فهذا الحديث خاص بأهل الحجاز وماوالاهم إذا كان أكثر الحميات التى تعرض لهم من نوع الحمى اليومية العرضية الحادثة عن شدة حرارة الشمس ؛ وهذه ينفعها الماء البارد شربا واغتسالا

﴿علاج استطلاق البطن﴾ فى الصحيحين أنّ رجلا أتاه فقال : إنّ أخى استطلق بطنه ؟ فقال : اسقه عسلا ؛ فذهب ثم رجع فقال : قد سقيته فلم يزده إلا استطلاقا مرتين أو ثلاثا ! ! كل ذلك يقول : اسقه عسلا ! ! فقال له فى الثالثة ـ أو الرابعة ـ : صدق الله وكذب بطن أخيك [2] وهذا الذى وصف له العسل كان استطلاق بطنه عن تخمة أصابته عن امتلاء فأمره بشرب العسل لدفع الفضول المجتمعة فى نواحى المعدة والأمعاء ؛ فإنّ العسل فيه جلاء ودفع للفضول ، وكان قد أصاب المعدة أخلاط لزجة تمنع استقرار الغذاء فيها ؛ فإن المعدة لها خمل كخمل المنشفة ؛ فاذا علقت بها الأخلاط اللزجة أفسدتها وأفسدت الغذاء . فدواؤها بما يجلوها من تلك الأخلاط ؛ والعسل جلاء لاسيما إن مزج بالماء الحارّ . وفى تكرار سقيه العسل معنى طبى بديع وهو أن الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمية بحسب حال الداء إن قصر عنه لم يزله بالكلية ؛ وإن جاوزه أوهن القوى فأحدث ضرراً آخر ؛ فلما تكررت الشربات بحسب الداء برئ بإذن الله . واعتبار مقادير الأدوية وكيفياتها ومقدار قوة المرض والمريض من أكبر قواعد الطب

---

(١) شدة اللهب (٢) يشير إلى قوله تعالى فى النحل : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس)

﴿علاج الجرح﴾ فى الصحيحين أنه لما جرح وجهه يوم أحد كانت فاطمة تغسل الدم . فلما رأت الدم لايزيد إلا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقتها حتى إذا صارت رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك الدم برماد الحصير المعمول من البردى ، وله فعل قوى .

﴿قطع العروق والكى﴾ فى الصحيح أنه بعث إلى أُبَىّ بن كعب طبيباً فقطع له عرقا وكواه عليه . ولما رمى سعد بن معاذ فى أكحله (١) حسمه النبى صلى الله عليه وسلم ثم ورمت فحسمه ثانية ، والحسم هو الكى

﴿علاج يبس الطبع﴾ روى الترمذى وابن ماجه أنه قال لأسماء بنت عميس : « بماذا كنت تستمشين ؟ قالت بالشبرم . قال : حارّ حار ! ! ثم قال استمشى بالسنا (٢) » .

﴿علاج عرق النسا﴾ روى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « دواء عرق النسا ألية شاة أعرابية تذاب ثم تجزأ ثلاثة أجزاء ثم تشرب على الريق فى كل يوم جزء » . عرق النسا وجع يبتدئ من مفصل الورك وينزل من خلف على الفخذ ، وربما امتد على الكعب . وكلما طالت مدته زاد نزوله ويهزل معه الرجل والفخذ وهذا الحديث خطاب لأهل الحجاز ومن جاورهم ولاسيما أعراب البداوى فإنّ هذا العلاج من أنفع العلاج لهم ، فإنّ هذا المرض يحدث من يبس وقد يحدث من مادّة غليظة لزجة فعلاجها بالإسهال . والألية فيها الخاصيتان : الإنضاج والتليين . وهذا المرض يحتاج علاجه إلى هذين الأمرين : وفى تعيين الشاة الأعرابية قلة فضولها وصغر مقدارها ولطف

(١) عرق فى يده (٢) هو المعروف بالسنا المكى

جوهرها وخاصية مرعاها لأنها ترعى أعشاب البرّ الحارة كالشيح والقيصوم ونحوهما ، وهذه النباتات إذا تغذى بها الحيوان صار فى لحمه من طبعها بعد أن يلطفها تغذيه بها ويكسبها مزاجاً ألطف منها ، ولاسيما الألية .

﴿ علاج ذات الجنب ﴾ روى الترمذى : « تداووا من ذات الجنب بالقسط البحرى والزيت » ؛ وذات الجنب عند الأطباء نوعان : حقيقى وغير حقيقى ، فالحقيقى ورم حار يعرض فى نواحى الجنب فى الغشاء المستبطن للأضلاع ؛ وغير الحقيقى ألم يشبهه يعرض فى نواحى الجنب عن رياح غليظة مؤذية تحتقن بين الصفاقات ، إلا أنّ الوجع فى هذا القسم ممدود وفى الحقيقى ناخس ، والعلاج الموجود فى الحديث للقسم الكائن عن الرياح فإن القسط البحرى (وهو العود الهندى) إذا دق ناعماً وخلط به الزيت المسخن ودلك به مكان الريح المذكور أو لعق كان دواء موافقا .

﴿ علاج الصداع ﴾ روى أنه كان إذا صدع غلف رأسه بالحناء ؛ وهذا العلاج بالحناء لنوع من أنواع الصداع ؛ فإنّ الصداع إذا كان من حرارة ملتهبة ولم يكن من مادة يجب استفراغها نفع فيه الحناء ؛ وإذا دق وضمدت به الجبهة مع الخل سكن الصداع . وفى الترمذى عن خادمته سلمى أم رافع . كان لا يصيبه قرحة ولا شوكة إلا وضع عليها الحناء

﴿ علاج الرمد ﴾ كان يعالجه بالسكون والحمية مما يهيجه وفى حديث ابن ماجه أنه حمى صهيباً من التمر وأنكر عليه أكله وهو أرمد ؛ وحمى عليا من الرطب لما أصابه الرمد . وذكر أنه كان إذا رمدت إحدى عينى امرأة من نسائه لم يأتها حتى تبرأ عينها

﴿ علاج البثرة ﴾ ذكر عن بعض أزواجه قالت : دخلت على رسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد خرج فى أصبعى بثرة فقال : عندك ذريرة ؟ قلت : نعم ؛ قال : ضعيها علىها وقولى : (١) اللهم مصغر الكبير ومكبر الصغير صغر ما بى . الذريرة دواء هندى ، والبثرة خراج صغير يكون عن مادة حارة تدفعها الطبيعة فتسترق مكانا من الجسد تخرج منه فهى محتاجة إلى ماينضجها ويخرجها ؛ والذريرة هى إحدى ماينضج ويخرج

﴿ علاج الخراجات بالبط (٢) ﴾ عن على قال : دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل يعوده بظهره ورم ، فقالوا : يارسول الله بهذه مدة قال : بطوا عنه ، قال علىّ : فما برحت حتى بطت والنبى صلى الله عليه وسلم شاهد . وعن أبى هريرة أنه أمر طبيباً أن يبط بطن رجل أجوى البطن ؛ فقيل : يارسول الله هل ينفع الطب؟ قال «الذى أنزل الداء أنزل الشفاء فيما شاء»

﴿ علاج المرضى بترك إعطائهم مايكرهون من الطعام والشراب ﴾

روى الترمذى وابن ماجه : «لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإنّ الله عزّ وجلّ يطعمهم ويسقيهم» ؛ قال بعض الأطباء : ما أغزر فوائد هذه الكلمة النبوية المشتملة على حكم إلهية لاسيما للأطباء ولمن يعالج المرضى وذلك أنّ المريض إذا عاف الطعام أو الشراب فذلك لاشتغال الطبيعة بمجاهدة المرض أو لسقوط شهوته أو نقصانها لضعف الحرارة الغريزية

(١) تأمل كيف كان النبى صلى الله عليه وسلم لاينسى الله مع اتخاذ الأسباب الطبيعية التى فيها خاصية شفاء المرض ، وإنا لنرى كثيرين ممن يزعمون أنهم مسلمون يتركون الاستشفاء بالله وبالأسباب الطبيعية التى خلقها لأمراضهم ويذهبون إلى الأموات يستشفون بهم : فبذلك يعطلون سنن الله ويشركون بالله !!

(٢) الشق ؛ فقوله بطوا عنه أى شقوا عنه لتخرج المادة والحكيم الذى يبط يعرف الآن بالجراح

أوخمودها ، وكيفما كان فلا يجوز إعطاء الغذاء فى هذه الحالة ولا ينبغى أن يستعمل فى هذا الوقت والحال إلا مايحفظ عليه قوته ويقويها من غير استعمال مزعج للطبيعة كشراب التفاح وأمراق الفراريج المعتدلة الطيبة ، وقد يحتاج فى الندرة إلى إجبار المريض على الطعام والشراب : وذلك فى الأمراض التى يكون معها اختلاط العقل . وعلى هذا فالحديث من العام المخصوص ، أومن المطلق الذى قد دلّ على تقييده دليل . ومعنى الحديث أنّ المريض قد يعيش بلا غذاه أياما لا يعيش الصحيح فى مثلها

﴿ علاج المرضى بتطييب نفوسهم وتقوية قلوبهم ﴾ روى ابن ماجه : «إذا دخلتم على المريض فنفسوا له فى الأجل ، فإنّ ذلك لا يردّ شيئا وهو تطيب لنفس المريض» إنّ تفريج نفس المريض وإدخال مايسره عليه له تأثير عجيب فى شفاء علته وخفتها ، فإنّ الأرواح والقوى تقوى بذلك تتساعد الطبيعة على دفع المؤذى ؛ وقد شاهد الناس كثيراً من المرضى تنتعش قواهم بعيادة من يحبونه ويعظمونه ورؤيته لهم ولطفه بهم ومكالمته إياهم . وهذا أحد فوائد عيادة المرضى

وكان يعالج الأبدان بما اعتادته من الأدوية والأغذية دون مالم تعتده .

﴿ تغذية المريض بألطف مااعتاده من الأغذية ﴾ عن عائشة أنه كان إذا قيل له إنّ فلاناً وجع لا يطعم الطعام ، قال : «عليكم بالتلبينة فحسوه إياها — ويقول — والذى نفسى بيده إنها تغسل بطن أحدكم كما تغسل إحداكن وجهها من الوسخ» . التلبينة : الحساء الرقيق الذى هو فى قوام اللبن يتخذ من دقيق الشعير بنخالته . والفرق بينهما وبين ماء الشعير أنه يطبخ صحاحاً والتلبينة تطبخ منه مطحوناً ، وهى أنفع منه لخروج خاصية الشعير بالطحن . وكان من عادة القوم أن يتخذوا ماء الشعير منه مطحوناً لا صحاحاً

وهو أكثر تغذية وأقوى فعلا . وإنما اتخذ أطباء المدن منه صحاحاً ليكون أرق وألطف فلا يثقل على طبيعة المريض . وهذا بحسب طبائع أهل المدن ورخاوتها

﴿علاج السم﴾ احتجم يوم أن أكل من الشاة المسمومة فى خيبر ؛ وأمر أصحابه أن يحتجموا فمات أحدهم ، وحجمه أبو هند بالقرن والشفرة ومعالجة السم تكون بالاستفراغات وبالأدوية التى تعارض فعل السم وتبطله إما بكيفياتها وإما بخواصها . فمن عدم الدواء فليبادر إلى الاستفراغ الكلى ؛ وأنفعه الحجامة لاسيما إذا كان البلد حاراً والزمان حاراً فإن القوة السمية تسرى إلى الدم فتنبعث فى العروق والمجارى حتى تصل إلى القلب فيكون الهلاك . فالدم هو المنفذ الموصل للسم إلى القلب والأعضاء

ولما احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجم فى الكاهل وهو أقرب المواضع التى يمكن فيها الحجامة إلى القلب فخرجت المادة السمية مع الدم ؛ لاخروجا كليا بل بقى أثرها مع ضعفه — وظهر سر قوله تعالى لأعدائه من اليهود ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فجاء بلفظ كذبتم بالماضى الذى وقع منهم وتحقق وجاء بلفظ تقتلون بالمستقبل الذى يتوقعونه وينتظرونه ؛ والله أعلم

﴿علاج لدغة العقرب﴾ فى مسند ابن أبى شيبة : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى إذ لدغته عقرب فى أصبعه فانصرف وقال «لعن الله العقرب ما تدع نبيا ولا غيره» ؛ ثم دعا بإناء فيه ماء وملح فجعل يضع موضع اللدغة فى الماء والملح ويقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين . فى الملح نفع لكثير من السموم قال صاحب القانون : يضمد به مع بذر الكتان للسع العقرب ؛

وذكره غيره . وفى الملح من القوة الجاذبة المحللة مايجذب السموم ويحللها

﴿النهى عن التداوى بالمحرّم﴾ ورد النهى عنه صلى الله عليه وسلم عن التداوى بالمحرم ؛ وقد سئل عن الخمر فقال : إنها داء وليست بالدواء !» ، أخرجه أصحاب السنن وذكر البخارى : «إنّ الله لم يجعل شفاءكم فيما حرّم عليكم(١)»

العلاج بالأدعية الإلهية

﴿علاج حرّ المصيبة وحزنها﴾ قال تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ وفى المسند عنه صلى الله عليه وسلم قال مامن أحد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها إلا أجره الله فى مصيبته وأخلف له خيراً منها»

﴿فى علاج الكرب والحزن﴾ فى جامع الترمذى أنه كان إذا أحزنه أمر قال ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث . وفى سنن أبى داود «دعوات المكروب : اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت»

هديه صلى الله عليه وآله وسلم فى حفظ الصحة

كان إذا عافت نفسه الطعام لم يأكله ولم يحملها إياه على كره . وهذا

---

(١) ربما يعترض الحكماء على هذا بأن الخمر نافعة لأمراض من الحميات وغيرها فنقول لهم : إنّ تحريمها فى الدواء كان لسد باب استعمالها فى اللذة لئلا يتخذها أرباب الشهوات حيلة لملذاتهم ولظنهم النفع فيها يؤثرونها على غيرها فتزيد علاقتهم بها ويفشو استعمالهم إياها . أما إذا كان الحكماء لايجدون غيرها يقوم مقامها فى تأثيرها فى المرض فلا جناح عليهم إذا نظروا إليها بهذا النظر واستعملوها للضرورة بقدر ، (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) .

أصل عظيم فى حفظ الصحة ؛ فإن أكل الإنسان ما تعافه نفسه ولا يشتهيه كان تضرره به أكثر من انتفاعه . ولما قدم إليه الضب المشوى لم يأكل منه فقيل له : أهو حرام ؟ قال : «لا ! ولكن لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه»

وكان يحب اللحم ويقول : « هو سيد طعام أهل الدنيا والآخرة » . (ذكره ابن ماجه) وأحبه إليه الذراع ومقدم الشاة . عن ضباعة بنت الزبير أنها ذبحت فى بيتها شاة فأرسل إليها : أن أطعمينا من شاتكم ؛ فقالت ما بقى عندنا إلا الرقبة وإنى لأستحى أن أرسل بها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرجع الرسول فأخبره ، فقال : ارجع إليها فقل لها : أرسلى بها فإنها هادية الشاة وأقرب إلى الخير وأبعدها من الأذى»

وكان أحب الشراب إليه البارد الحلو ، وكان يستعذب له الماء ويختار البائت منه — لأن الإجراءات الترابية والأرضية تفارقه إذا بات

روى مسلم عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « غطوا الإناء وأوكئوا السقاء» . وفى البخارى أنه صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الشراب من فى السقاء (١)

وكان فى كل أعماله على أعدل نظام ينفع البدن : انظر هديه فى طعامه وشرابه ولباسه ونومه ويقظته ومشيه وجلوسه ونظافته ، فصلوات الله وسلامه عليه ، علم أمته جميع ما تحتاج إليه

---

(١) إن الطعام والشراب إذا كان مكشوفا تلوث بما يحمله الهواء من الأقذار والجراثيم الضارة وبما يدب حوله من الحيوانات ، كما أن الشرب من فم السقاء وكل إناء لا يكون فيه المشروب مرئيا للشارب قد يضر بأن يكون فى الماء شىء يندفع إلى البطن ـ فتأمل حكمة الشرع

الخاتمـــة

من يقرأ هذا الكتاب يجد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مثالا للحياة الطيبة : قد جاء لنا بكل ما نحتاج إليه من أصول الإصلاح الروحية والجسدية ، وهذه الأصول هي أصول القرآن التي ارتقى بها المسلمون الأولون وقد وصلوا إلى ما وصلوا إليه من سعة الملك والعمران بفضلها ولما تركوها نقصت أطراف أرضهم : بل سقط كل ملك لهم وصاروا عبيداً لغيرهم .

فالمسلمون الآن في تعاليمهم الدينية متأخرون إذ أنهم يدرسون كتباً أبعدتهم عن القرآن ولا يدرسون القرآن إلا على سبيل (البركة) أي لا للهداية والعمل !!! . ولو كنا نتدارس القرآن كما كان يتدارسه سلفنا لما تأخرنا وتقدم غيرنا من الأجانب الذين بنوا عمرانهم على أصول القرآن — وهم يكفرون بالرحمن . . .

ولو قارنا بيننا وبينهم وأظهرنا ماذا نصنع نحن في معاهدنا الدينية وماذا يصنعون هم في حياتهم الدنيوية لازددنا حسرة على حسرتنا ؛ ولكن رب حسرة أورثت عبرة ! فانظروا أيها المسلمون لعلكم تعتبرون

نحن نضرب في زيد فنقول : ضربنا زيداً ونضربه : وهم يضربون في الأرض للتجارات والاكتشافات .

نحن نحلل رموز جمع الجوامع وتعقيدات ابن الحاجب وهم يحللون الأجسام إلى عناصرها ويعرفون وظيفة كل عضو فيها وما يحتاج إليه كل جسم منها . .

نحن نؤلف المقدمات المنطقية الصغرى والكبرى وهم يؤلفون الشركات الاقتصادية والجمعيات الخيرية .

نحن نستخرج النتائج من تلك المقدمات وهم يستخرجون اللؤلؤ والمرجان من البحار ويستخرجون زيت الصخر (البترول) والفحم والحديد والذهب وسائر المعادن والكنوز من الأرض . . .

نحن نركب فى (تأبط شراً) و (معد يكرب) وهم يركبون الأدوية والأطعمة والأشربة ؛ ويركبون الأسلاك البرقية ويركبون المدافع على الحصون ؛ ويركبون السكك الحديدية ؛ ويركبون السماد المنتج للزرع ؛ ويركبون كل آلات الصناعات وعدد الأعمال . . .

نحن نجرى الاستعارات فى (رأيت أسداً فى الحمام) و (أنشبت المنية أظفارها بزيد) وهم يجرون السفن فى البحار ؛ ويجرون المياه فى الأنابيب والمرشحات ويجرون الكهرباء فى الأسلاك . ويجرون القطارات والترام والسيارات .

نحن نشرح جلود الحيوانات وشعورها فنتنازع فى طهارتها ونجاستها وهم يشرحونها فى المصانع والمعامل ليتخذوا منها أثاثا ومتاعا . .

نحن نستظهر صفات الله بأنها قديمة أزلية قائمة بذاته تعالى (لو كشف عنا الحجاب لرأيناها) وهم يستظهرونها بما يشرحونه من جسم الإنسان والحيوان والنبات وبما يعلمونه من نظام الله وسننه فى سائر خلقه . .

نحن فى كل علومنا لا نخرج عن مجادلات فى ألفاظ ليس من ورائها عمل تتزكى به النفس أو تستفيد منه الأمة والبلاد ، وهم قد طاروا فى السماء وغاصوا تحت الأرض وسخروا الماء والهواء وانتفعوا بما فى الكون من السنن حتى امتلكوا كل شىء وامتلكونا ضمنا وسخرونا تبعاً فأين نحن منهم ؟ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

بعد ذلك يقف خطيبنا على المنبر ويقول « الدنيا جنة الكافر وسجن المؤمن » فيزهد المؤمنين فى شؤون العمران لأنها فى نظره ليست من أعمال الآخرة . . ويرغبهم فى الآخرة بقوله : « من صام ثلاثة أيام من رجب غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وأدخل الجنة بغير حساب وأعطى مالم يحصه إلا الله من نعيمها » ويقول : الإنسان مادام يقر بالشهادتين وإن

لم يعمل بهما يصير من أمة محمد (وأمة محمد على خير) !! ويقول : إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم سيشفع للمجرمين يوم القيامة . ويقول : إن دخول الجنة ليس بالعمل ويجوز أن المجرم العاصي لله يدخل الجنة والطيب المطيع لله يدخل النار !! وأمثال هذه التعاليم التي تميت شعور الناس وتربيهم على الجبن والكسل والفوضى وتزيل من نفوسهم هيبة الله وتشككهم في وعده ولا تجعل حكمة للدين ولا قيمة للتدين . . .

وقد أصبح المسلم يكتفي بنسبته إلى الإسلام : أي لا يهتم بالعمل . وأكثر المسلمين لا يعملون بالإسلام ولكنهم مسلمون بالاسم والإحصاء الرسمي ! وسبب ذلك تلك التعاليم المشوهة التي يتغنى بها خطيبنا

إن السامع لهذا الخطيب يأخذه العجب ويقول : كيف أن المؤمنين يكونون أذلاء فقراء في الدنيا ؟ كأن الله جعل هذا الكون وما فيه من المنافع للكافرين يتمتعون به ، وجعل جزاء المؤمنين الذلة والمسكنة والحرمان من تلك المنافع !! وكأن المؤمن لم يكن إلا ليعلق سبحة في رقبته وينزوي في خلوة أو مسجد لا يعرف من هذا العالم شيئا ! وكأن الجنة دار للكسالى والعاطلين إن كان هذا من أصول الإسلام فتكون أصوله أصول عجز ، وكسل ، وفقر ، ومذلة — وهذا جهل بالإسلام وأصوله . فأصول الإسلام أصول عمل ، ونشاط ، وغنى ، وعزة ، وملك ! وسلطان وإن كان قد فهم خطيبنا أن الله يسجن المؤمنين في الدنيا ويذلهم ليوسع لهم في الآخرة ويعزهم فعلام يعزهم في الآخرة ؟ وهل تبنى العزة في الآخرة إلا على العزة في الدنيا ؟ هل تظن أن الله تعالى جعل الجنة في الآخرة للمؤمنين بالاسم ؛ الذين ينتسبون إلى الإيمان وليست فيهم صفات المؤمنين وأعمالهم ؟ وهل تظن أنه تعالى يعطي الجنة جزافاً ؟ أم أنه جعلها جزاء ؟ وجعل الجزاء كما قال : ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ وقال : ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ

أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ . فالأعمى هو الضال الذى لا يكون بصيراً بأمور دينه ، والذى لا يعمل على إعلاء كلمة ربه ، وعزة أمته وبلاده . فالأمة التى ترضى بالذّل وتعيش ذليلة فى الدنيا تكون كذلك فى الآخرة ، وتكون من أهل النار وليس لها حظ فى الجنة لأنها ليست من المؤمنين .

فلتتنبه الأمم الإسلامية ولتنظر عمل رسول الله وأصحاب رسول الله ولتسمع قول الله فى صفات المؤمنين بالله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ . وقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وقال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ . وقال : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ وقال : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وقال ﴿ وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وقال ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ؛ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

هذه ياقوم صفات المؤمنين فليس من صفاتهم أن يجهلوا شؤون الحياة وعلوم الكون وأن يعيشوا فى الدنيا عالة أذلاء مستعبدين ؛ بل من صفاتهم أن يكونوا أعلم الناس بشؤون الحياة وأكثرهم عملا بسنن الله وأن يعيشوا أعزاء وأحرار مستقلين . فياقوم لاتمنوا أنفسكم بالجنة بدون عمل ولا تصدقوا أن يجتمع إيمان وكسل ! فاعملوا لتعيشوا أعزاء أو لتموتوا شهداء ﴿ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ . ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ .

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۞ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۞ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ۞ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾

﴿ تم بعون الله تعالى ﴾

فهرس هـــدى الرسول

صفحة		صفحة	
٣	الخطبة	٥٤	هديه ﷺ فى مشيه وجلوسه واتكائه
١٦	مقدمة من زاد المعاد	٥٥	« فى قضاء الحاجة والاستنجاء
٢١	نسبه صلى الله عليه وسلم	٥٦	« فى الفطرة والنظافة
٢٢	مولده ومبعثه ﷺ	٥٦	الشارب واللحى والطيب والسواك
٢٣	مراتب الوحى	٥٩	هديه صلى الله عليه وسلم فى كلامه وسكوته وضحكه وبكائه
٢٥	ختانه	٦٠	هديه صلى الله عليه وسلم فى خطبته
٢٥	أمهاته اللاتى أرضعنه	٦٢	قسم العبادات
٢٦	حواضنه	٦٢	هديه ﷺ فى الوضوء
٢٦	أول ماأنزل عليه	٦٤	« فى التيمم
٢٧	ترتيب دعوته	٦٥	« فى الصلاة
٢٧	ذكر الهجرتين	٧٤	« فى سجود السهو
٣١	أولاده	٧٥	« بعد تمام الصلاة
٣١	أعمامه وعماته	٧٦	« فى اتخاذ السترة فى الصلاة
٣١	أزواجه	٧٦	« فى السنن والرواتب
٣٤	مواليه وخدامه	٨٠	« فى الجمعة
٣٥	كتبه إلى أهل الإسلام	٨٤	« فى العيدين
٣٥	كتبه ورسله إلى الملوك	٨٦	« فى صلاة الكسوف
٣٨	مؤذنوه وأمراؤه	٨٧	« فى الاستسقاء
٤٠	حرسه وشعراؤه وخطباؤه	٩١	« فى قراءة القرآن واستماعه
٤٠	سلاحه وأثاثه	٩٢	« فى عيادة المريض
٤١	ملابسه	٩٣	« فى الجنائز
٤٦	هديه ﷺ فى الطعام والشراب	٩٧	« فى زيارة القبور
٤٧	« فى معاشرة أهله		
٤٨	« فى نومه وانتباهه		
٤٩	« فى الركوب		
٥٠	« فى معاملته وأخلاقه		

obeikandl.com

صفحة	
٩٧	هديه ﷺ فى الصدقة والزكاة
١٠٤	« « فى الصوم
١١٠	« « فى الاعتكاف
١١٠	« « فى الحج والعمرة
١٢٥	« « فى الهدايا والضحايا والعقيقة
١٢٨	« « فى الأسماء والكنى
١٢٨	« « فى دخوله منزله
١٢٩	« « فى الأذان وأذكاره
١٣٢	« « فى السلام
١٣٤	« « فى العطاس
١٣٤	« « فى الاستئذان
١٣٦	« « فى أذكار النكاح
١٣٧	قسم الجهاد والحرب
١٤٢	غزواته صلى الله عليه وسلم
١٤٢	غزوة بدر
١٥١	« أحد
١٦٤	« المريسيع وفيها قصة الإفك
١٦٦	« الخندق
١٦٩	« الحديبية
١٧٢	« خيبر
١٧٥	« الفتح
١٨٢	« حنين
١٨٦	« تبوك
١٩٤	الصلاة فى الحرب والخوف

صفحة	
١٩٦	الصلاة فى مدة الإقامة فى السفر
١٩٧	قسم الأقضية والأحكام
٢٠٢	الوفاء للعدو . الأمان
٢٠٤	التزويج
٢٠٥	تزويج المرأة بغير إذنها
٢٠٦	التفويض . المرأة فى الجبل
٢٠٧	الشرط فى النكاح
٢٠٧	نكاح الشغار والمحلل
٢٠٨	فى الزوجين يسلم أحدهما قبل الآخر
٢٠٩	الكفاءة فى النكاح
٢١١	خدمة المرأة لزوجها .
٢١٥	الظهار
٢١٦	الإيلاء . لحوق النسب
٢١٧	نفقة الزوجات
٢١٩	« الأقارب
٢١٩	الرضاعة وما يحرم بها
٢٢٠	العدد . البيوع
٢٢١	قسم الطب والتداوى
٢٢٣	هديه صلى الله عليه وسلم فى تداويه لنفسه ، والأمر به لغيره
٢٢٦	هديه صلى الله عليه وسلم فى العلاج
٢٣٢	النهى عن التداوى بالمحرم
٢٣٢	علاج حر المصيبة والكرب والحزن
٢٣٢	هديه ﷺ فى حفظ الصحة
٢٣٤	الخاتمة

﴿ تم الفهرس ﴾

obeikandi.com